أعلام العرب

(٩٥)

علي الجارم

تأليف: محمد عبد المنعم خاطر

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

تقـــديم ..

على الجارم .. حياته وشعره

هذا هو موضوع الكتاب ، وان كان نثر الجارم **لا يقل أهمية** عن شعره لأن النثر يتضمن المقال والقصة وكلاهما يستحق دراسة مستقلة ، غير أن الجارم الشاعر أبرز وأظهر من الجارم الناثر ، لذلك رأيت أن أبدأ بدراســة شعره ، ثم اذا ساعدت **الظروف ، وواتت الفرصة أثنى بدراسة نثره** .

والذى دفعنى فى الواقع لدراسته أمران :

أولهما ـ اهمال النقاد والدارسين لطائفة معينة من شــعرائنا المحدثين أطلقوا عليهم اســـم شعراء التقليد ، وحكموا عليهم دون دراسة جادة بالعقم والجمود .

وثانيهما ـ هذا التحامل الواضح ، والهجوم الحاد الذى تعرض له الجارم بخاصة فى حياته وبعد موته .

ولقد أخذت أتساءل : أحقا ما يقول هؤلاء النقاد ؟ أحقا لم يزود الله شعراءنا التقليديين بشىء من نفثة القلب ، أو نداء الروح ، أو حيرة الفكر ، أو انطلاق الوجدان ؟

أمن أجل أنهم ترسموا خطى السابقين فى اتجاهاتهم الفنيــة يحكم عليهم هذا الحكم القاسى ويلقى بهم فى غياهب النسيان ؟

ومن يدرى ؛ فلقد يبرز من خلال التقليد فى الأغراض والمفاهيم شعر فيه أصالة الفن ، وعمق التجربة ، وصدق الاحساس ·

لقد خلف الأدب الكلاسيكى فى الغرب آثارا خالدة مع أن كثيرا منه أنشىء فى ظل القصور وتحت رعاية الملوك ·

ومن المحقق أن حافظ ابراهيم وعلى الجارم وأحمد محرم ، وعلى الجندى ، ومحمد عبد الغنى حسن ، ومحمد الأسمر ، ومحمود غنيم لهم آثار تستحق الدراسة والبحث ، وما علينا الا أن نعرض لنتاجهم فنوفيه حقه ، ونضعه فى مكانه اللائق به ، اما من الجودة والتقدير ، أو من القصور والجمود والابتذال ·

وبهذا الفهم ، وهذه الروح بدأت دراسة الجارم باعتبـاره أولا ظاهرة أدبية كونتها ظروف وعوامل مختلفة ، ووجهتها وجهة معينة، ولكنى بعـد أن عشت معه فترة طويلة من الزمن ، وكشفت بصـبر واخلاص عن موهبته الشعرية واتجاهاته الفنية أدركت أن الرجل مفترى عليه ، وأنه كان يستحق دراسة جادة وهادفة من يوم أن مات وأنه لم يظفر حتى اليوم بتقدير كان جزاء ما قدمه للأدب والعرب فى ميادين شتى ·

ولعل هذه الدراسة هى المحاولة الجادة فى هذا الميدان ، والله ولى التوفيق ·

محمد عبد المنعم خاطر

تمهيد ..

الأدب قبيل عصر الجارم

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لم يكن قد طرأ على الأدب تغيير يكاد يذكر ، فلقد ورث عن عصور الجمود والتأخر كثيرا من أوضار التقليد والتكلف فى أغراضه ، وفى ألفاظه ومعانيه .

ورث ضيق الأفق فى الأغراض حتى لم تكن تعدو رثاء صديق أو التهنئة ببناء دار ، أو الرجوع من سفر ، أو تولى منصب ، أو مدح الرسول والتوسل الى بعض الصالحين .

وورث ضيق الأفق فى الألفاظ بما حملها من وفرة الاستعارات، والمجازات وألوان المحسنات البديعية .

وورث ضيق الأفق فى المعانى بما يملكه فيها من أفكار جامدة انحدرت اليه عن عصور التأخر الأدبى ، اذ لم يكن نتاج المطبعة قد توفر بعد الى درجة تستطيع أن تطور من أفكاره ومعانيه .

وورث الى جانب ذلك قلة من الشعراء والأدباء كانت فى الواقع امتدادا للعصر الذى قبله ، حيث نشأت فيه ، وتثقفت بثقافته ، وان امتد بها العمر ، وعاشت ردحا من الزمن فى النصف الأول من القرن الذى نعنيه .

من أمثال اسماعيل الخشاب (١٢٣٠ ـ ١٨١٥) والشيخ حسن العطار (١٢٥٠ـ١٨٣٤) والسيد على الدرويش (١٢٧٠ـ١٨٥٣) ٠ فلقد كانوا يمثلون عصرهم التقليدى البحت فى أغراضه وفى ألفاظه ومعانيه ، اللهم الا اذا استثنينا رقة الأسلوب وخفة الروح التى غلبت على كتابة الشيخ حسن العطار ٠

ومع ما كان يبدو فى هذه الفترة من جمود وتكلف فانها فى الواقع كانت تحتضن بذور نهضة أدبية ، وتهيىء لها جوا صالحا تترعرع فيه لتؤتى بعض ثمارها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر !!

لقد كانت البعثات التى سافرت الى فرنسا فى عهد محمد على من أهم العوامل التى ساعدت على ازدهار الأدب ، فلقد عاد رفاعة الطهطاوى وتلاميذه ليسهموا بدور فعال فى خلق نهضة حقيقية ٠

كما كان لانشاء المدارس العالية ودور المترجمين فيها من الأرمن والسوريين والمغاربة نفس الأهمية التى ساعدت على ذلك ، بالاضافة الى ما كانت تخرجه مطبعة بولاق الأميرية من كتب ساعدت على احياء الأدب وازدهاره فى عصر اسماعيل ٠

وعصر اسماعيل عصر تعددت روافد النهضة فيه ، فلقد كان اسماعيل نفسه على درجة من الوعى بمقتضيات العصر وتطوراته ، ولقد أراد كما تصور هو أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا ، وعمل من أجل ذلك بكل ما يملك من امكانيات ، بل وبأكثر مما يملك حتى عرض استقلال البلاد للخطر ، ففى عهده أعيد ديوان المدارس الذى كان قد ألغى فى عام ١٨٦٠ ، وأنشئت المدارس العالية ، وأرسلت البعثات الى الخارج مما ساعد على زيادة الاتصال بالأدب الأجنبى ، وأدخل فن التمثيل والغناء والترجمة للمسرح ابتداء من عام ١٨٦٨ ، وأنشئت دار الكتب فى سنة ١٨٧٠ ٠

وفى عهده أيضا أنشئت الصحافة الوطنية التى كانت تسانده فى صراعه مع الأجانب ، كما أنشىء مجلس شورى النواب فى ٢٥ من نوفمبر سنة ١٨٦٦ .

ولقد ساعد على هجرة كثير من أحرار الشام الى مصر ، كما ساعد على استقرار السيد جمال الدين الأفغانى فى مصر أثناء حكمه، ولقد كان السيد جمال الدين هو الروح الحى الذى كان يسرى فى أعماق المصريين فيهزهم ويعلمهم معنى الحرية والوطنية .

لقد كان جمال الدين يشرح العبارة ليستخرج منها قوة حية تسرى الى النفس فتحركها الى العمل ، وكأنما الكلمات المشروحة على لسانه تلك المفاتيح الصغيرة التى تدار فتنبعث منها قوى من الكهرباء لا يستقر لها قرار .

ولقد انبعثت الكهرباء ، واشتعلت النار حتى أودت باستقلال البلاد فى أحداث الثورة العرابية .

وكان أقطاب الثورة العرابية من ذوى اللسن والبيان من أمثال الشيخ محمد عبده ، والسيد عبد الله النديم ، وأحمد عرابى ، ومحمود سامى البارودى ، وكلهم قد اكتوى بنارها ، ومر بتجربتها ، وعاشها بكل ما يملك من فكر واحساس .

ومن هنا نجد فى الشعر بخاصة ، وفى الأدب بعامة انتفاضة سرت فى كيانه فبعثت فيه الحياة والحركة ، ودفعته بقوة الى التطور والازدهار .

ولن يستطيع المؤرخ للأدب أن يعمم أحكامه ، وأن يسوى بين شعراء هذه الفترة لأن تيار التقليد لم ينكسر دفعة واحدة ، وانما خفت حدته مع اطراد التقدم الفكرى والحضارى .

فالسيد على أبو النصر (١٢٩٨ ـ ١٨٨٠) والشيخ على الليثى (١٨٩٦) كلاهما يعتبر امتدادا لشعراء النصف الأول من القرن الماضى ، وان غلبت عليها خفة الروح ، وسرعة البديهة ، وذكاء العبارة ، مما يتناسب وحياة الندمان ٠

ومحمد عثمان جلال (١٨٩٨) فى ترجمته الشعرية لأمثال (لافونتين) « العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ » يعتبر باعثا لجنس أدبى طال عليه الأمد بعد « ابان بن عبد الحميد اللاحقى » كما يعتبر سابقا لشوقى فى نظمه الحكم والمواعظ على ألسنة الحيوانات ٠

وعائشة التيمورية (١٩٠٢) تعتبر بحق بادئة النهضة النسوية بمصر ٠

أما محمود صفوت الساعاتى فان مؤرخى الأدب يقفون عنده وقفات طويلة ٠ والظاهر أن لكثرة تنقله بين القاهرة والاسكندرية والحجاز ، والتحاقه بحضرة أمير مكة « الشريف بن عون » ومشاركته له فى بعض غزواته فى نجد واليمن أثرا فى أن روائح الاحياء والتجديد كانت تفوح من بعض جوانب شعره فهو وان لم يجدد فى موضوعات الشعر الا أنه حاول أن يتخفف من ثقل التكلف ، وأن يجرى طبعه على سجيته ، وأن يعود بفن الشعر الى ما كان له أيام العباسيين ٠

ثم يأتى بعد ذلك دور البارودى (١٩٠٤) ذلك الشاعر الذى تجمعت فيه كل مقتضيات العصر ، ومتطلبات النهضة فى الشعر ، فجاء شعره خير معبر عن أحاسيسه وأصدق مترجم لحياته التى انفعلت بأحداث الثورة العرابية ٠ فلقد خاض غمارها ، وعانى منها، وشرد عن وطنه بسببها ٠

وهو وان كان يقلد أحيانا الا أنه كان يبتكر أيضا حينما يتجه

بصدق الى وصف تجاربه ، أو الى التعبير عن ذاته وأحاسيسها ، أو الى تسجيل مشاهد الطبيعة ٠

كان يقلد أحيانا كما كان يقلد النظامون فى عهـد الحمـلة الفرنسية ، ويبتكر أحيانا كما يبتكر الشـاعر الطليق بين أحـدث المعاصرين ، وله ـ على هذا ـ ميزة واضحة لا نظير لها فى تاريخ الأدب فى مطلع العصر الحديث ، وتلك أنه قد وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة الى طريق الصحة والمتانة ، وأوشك أن يرتفع هذا الارتفاع بلا تدرج ولا تمهيد كأنه القمة الشاهقة تنبت فى متون الطود عما قبلها فينقطع بينها وبينه طريق الوصول ، الا أن تستدير لها من القمم التى تليها وتقرب منها ، فاذا أرسلت بصرك خمسمائة سنة وراء عصر البارودى لم تكن تنظر الى قمة واحـدة تساميه أو تدانيه ، وكنت كمن يقف على رأس الطود المنفرد فلا يرى أمامه غير التلال والكثبان والوهاد الى أقصى مدى الأفق البعيد ، وهذه وثبـة قديرة فى تاريخ الأدب المصرى ترفع الرجل بحق الى مقـام الطليعة أو مقام الامام ٠

ولقد أثر البارودى فى كثير ممن أتى بعده من الشعراء ، ان يده على الشعر العربى يد من أقاله من عثرته ، وأنهضه من كبوته ، وأعاد له ديباجته المشرقة ، ومعانيه السامية وكأنما فى يده عصـا ساحر صيرت الميت حيا ، والضعيف قويا ، والمعدم ثريا ، وكان شعره فى العصر الحديث نموذجا لـكل من أتى بعده من شعراء العربية ٠

ويسلم البارودى الراية الى شوقى (١٩٣٢) فيتلقفها بجدارة ليسير بهـا فى نفس الطريق مع تعمق فى الحضـارة ، والمام أكثر بالثقافة ، واستعداد لأن يكون هو القمة التالية لباعث الشعر العربى الحـديث ٠

ومهما يقولوا عن شعر الصنعة عند شوقى فانهم لن يستطيعوا أن يطمسوا من تاريخ الأدب الحديث روائع شوقى ، ولا أن يسلبوه ما حباه الله به من الهام واحساس وقدرة استطاع بها أن يثرى أدبنا الحديث .

وعلى منوال البارودى وشوقى سار كثير من شعرائنا المحدثين من أمثال حافظ وعبد المطلب ، ومحرم ، والجارم ، والجندى ، وغنيم وغيرهم .

كما سار على منهج آخر ومنوال جديد خليل مطران ، ذلك الذى تعمق الثقافتين العربية والفرنسية ، واستطاع بحق أن يكون من الرواد المجددين فى الأدب العربى الحديث .

هذا الى جانب مدرسة الديوان التى تعمقت فى الثقافة الانجليزية ، ونادت بنظريات جديدة ساندتها بدواوين شعرية متعددة .

الباب الأول

الشاعر وعصره وآثاره الأدبية

الفصل الأول

عصر الشاعر

١ ـ الحياة السياسية :

قد يجد الباحث صعوبة فى تصوير حياة مصر السياسية ابتداء من أواخر القرن الماضى الى منتصف القرن العشرين اذا كان بصدد دراسة سريعة موجزة يقدمها بين يدى دراسته الأدبية ، لأن كثرة الأحداث وتتابعها وتشابكها واضطرابها تدع الانسان فى حيرة ، فما يدرى الى أى طريق يسير ؟ أيتجه بدراسته الى التفصيلات المهمة وكلها تلقى أضواء على عملية الانصهار القوية التى مرت بها مصر وخرجت منها بأنقى عناصرها ، وأقواها على الخلود فيبعد كثيرا عن جوهر دراسته ؟ أم يتجه الى الايجاز وهو يعلم أن شخصيته الأدبية التى يريد دراستها قد أسهمت فى وجودها ظروف مصر التاريخية والطبيعية ؟ أم يسكت اعتمادا على أن التاريخ الحديث لمصر يعرفه كل المثقفين .

ومن أين يبدأ الباحث والأحـــداث متشابكة ومعقدة فمن أى تاريخ بدأ وجد نفسه فى حاجة الى استقصاء هذا التاريخ ؟ وخروجا من هذا المأزق آثرت أن ألقى الأضواء على أبرز الأحداث السـياسية المعاصرة ، وبخاصة تلك التى أسهمت فى تكوين شخصية الجارم ، أو ساعدت على ابراز ظاهرة أدبية فى فنه .

كما آثرت أيضا أن أبدأ تاريخ هذه الفترة بدخول الانجليز الى مصر فى سنة ١٨٨٢ عقب فشل الثورة العرابية • والذى ساعد على ذلك أمران :

أولهما : أن حياة مصر والمصريين اختلفت أشد الاختلاف بعد الاحتلال الانجليزى عن الحياة التى كانت تتمتع بها أيام الاستقلال حينما كانت الامبراطورية المصرية تمتد من البحر الأبيض شمالا الى أوغندا جنوبا !!

ثانيهما : أن الجارم ولد بالفعل فى عام ١٨٨١ ، فكأن ولادته قد بدأت مع عهد جديد لا أقول : انه كان عهد خير للمصريين ، ففى الواقع لم ير المصريون فيه خيرا يكاد يذكر ! وانما أقول : انه كان يحمل فى ثناياه الخير كل الخير للمصريين ، وقديما قالوا : جزى الله الشدائد كل خير ، والشدائد فى مصر هى التى خلقت ثورتها ونهضتها وتقدمها !!

وايثارا للمنهج الصحيح ، وبعدا عن الاضطرابات مع أحداث العصر التى تكاد تبلغ السبعين من السنين رأيت أن أجعل من تاريخ الحاكم الشرعى ، ومن دراسة أهم الأحداث السياسية فى عهده منارات أستضىء بها فى القاء الضوء على ما أريد •

وحكام مصر الشرعيون لا يتجاوزون الخمسة طوال هذه السنوات العجاف من تاريخ كفاحنا القومى ، وهذا يدل بداهة على أن الشعب المصرى كان مغلوبا على أمره ، والا فبم نفسر هذا الاستقرار الذى تمتعت به الأسرة الحاكمة مع أنها قد خانت كفاح الشعب حينما تعاونت مع المستعمرين فى عام ١٨٨٢ وما بعدها ؟

كما يدل أيضا على أن الشعب المصرى قد يصبر ، وقد يطول صبره ، ولكنه اذا ثار أتى على الجذور العفنة فاختلعها بقسوة ورمى

بها فى غير شفقة ولا رخمة ، ثم يعود الى طبعه الألوف وروحه الهادئة .

فى هذه الفترة الطويلة من تاريخ كفاحنا القومى نشأ الجارم وعاصر دخول الاستعمار فى مصر كما عاصر تطورات الأحداث الى سنة ١٩٤٩ .

نشأ فى عهد الخديوى توفيق ، وفتح أول ما فتح عينيه على هذه الوجوه الحمراء التى كانت تسير آمنة شامخة فى كل مكان فتثير فى نفوس المصريين الأسى والحزن ، وذكريات الهزيمة والعار .

كما تثير فى نفوسهم ألوانا من اليأس يدعوهم الى الاستسلام؟ فالجيش الوطنى الذى صارع المحتلين فى معارك عنيفة بكفر الدوار قد ألغى فى عام ١٨٨٣ ، والمصريون فى السودان قد أجبروا على اخلائه فى عام ١٨٨٤ ، ووعود الانجليز بالجلاء فى مؤتمر الآستانة قد ضاعت مع تثبيت أقدامهم فى مصر ، والحاكم الشرعى قد أظهر الخيانة فهو يلتمس منهم التوجيه والعون ، وكبار الموظفين ورجال البعثات قد قبعوا فى مكاتبهم ، ورضوا بما تدره عليهم وظائفهم من مرتبات ، والوزارة القائمة وان كانت مصرية الا أنها فى الواقع تستمد وجودها من دار المندوب السامى ، وتعمل مخلصة على ارضاء قصر الدوبارة ، والمصريون أنفسهم قد استسلموا لسبات عميق طوال عهد توفيق !!

وكأن القدر قد آلى على نفسه الا أن يجمع من كل هذه الظروف السيئة عوامل البعث والايقاظ .

فبموت توفيق يبرز الى ميدان القيادة السياسية شابان ثائران يعملان فى صدق واخلاص ضد المستعمرين وان افترقت بهما الطرق واختلفت الأهواء ، وانتهى كفاح كليهما الى طريق يختلف عن الآخر .

أما أولهما فالخديوى عباس حلمى الثانى ذلك الشاب الذى اعتلى عرش مصر وعمره لا يتجاوز الثامنة عشرة ، والذى كان ينقم من أبيه استعانته بالانجليز ويصرح بأن فى ذلك خيانة ، والذى قرب كثيرا من الوطنيين ليقفوا بجانبه فى صراعه .

وأما ثانيهما فمصطفى كامل ذلك الشاب الذى كان يحمل وجدان مصر فى وجدانه ، والذى وهب حياته كلها فى بث الروح والحرارة فى نفوس المصريين فعقد المؤتمرات المتعددة فى فرنسا ، وفينا ، وبرلين ، وانجلترا ، والآستانة ، كما عقد مؤتمرات كثيرة فى الاسكندرية نادى فيها بأعلى صوته بأنه « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » .

وبالتقاء الشابين فى كفاحهما مع المستعمر كانت هذه الهزة النفسية الصادقة التى هزت كيان الشعب .

غير أن قوة المستعمرين قد أرهبت أولهما حينما وجد عرشه يهتز بقوة بعد أن أقال وزارة مصطفى فهمى الموالية للاستعمار فى عام ١٨٩٣ ، ثم بعد أن اعترض على تدريب فرقة من الجيش المصرى فأغضب بذلك اللورد كرومر ، ثم عاد فأصدر ما يشبه الاعتذار فى عام ١٨٩٤ .

ولقد استمر فى ولائه للحركة الوطنية حتى عام ١٨٩٨ ، ثم أخذ يذعن بعد ذلك للأمر الواقع ، ويتودد الى الانجليز بعد حادثة فاشودة التى تقع على النيل الأبيض فى السودان بين الفرنسيين والانجليز ، وكان أول مظهر لهذه السياسة الجديدة زيارته للندن فى عام ١٩٠٠ ، وزيارته للسودان فى ظل الحكم الثنائى فى عام ١٩٠١ .

ثم ظهر انحيازه الى المستعمرين بعد أن وقع الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا فى سنة ١٩٠٤ ، واختط لنفسه ما يسمى سياسة

الوفاق ، ونفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال ، وذكر اللورد كرومر بالخير ، وصرح بأن المعتمد البريطانى لا يستطيع حكم مصر وحده ، وأنه مستعد للتعـاون معه ، وأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال ، وأن الاحتـلال البريطـانى أفضل من أى احتلال آخر .

وعلى العكس من ذلك لم ترهب قوة المستعمرين ثانيهما ، فلقد وقف الشـاب الأعزل للانجليز بالمرصاد ، وضيق عليهم السـبل وطالبهم ، وألح فى مطالبتهم بالجلاء ، وهاجم الخديوى والمنحرفين .

واستغل حادثة دنشواى أروع استغلال فهو الذى أطاح فى الواقع باللورد كرومر سنة ١٩٠٦ بعد أن حكم مصر ثلاثا وعشرين سـنة .

وعلى العموم فلقد كانت هذه السنوات الطويلة التى تولى الحكم فيها عباس حلمى الثانى من أخصب الفترات فى تاريخ مصر الحديث ، ففيها تبلورت الفكرة الوطنية ووجدت لها أنصارا يدافعون عنها ، ويعملون من أجلها ، ويهاجمون خصومها فى الصحف وفى المجتمعات . وبحسبك أنه نشأ فى هذه الفترة ثلاثة أحزاب .

أولها : الحزب الوطنى الذى كان ينادى بأنه لا مفاوضة الا بعد الجلاء ، ثم حزب الاصلاح الذى كان مناوئا للحزب الوطنى ومدافعا عن وجهة نظر الخديوى برئاسة الشيخ على يوسف ، والذى سـماه « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » ايذانا للمحتلين بالتسليم لهم بدعوى الاصلاح والقناعة منهم بالمبادىء الدستورية دون الدستور الكامل على أساس سلطة الأمة ، ولم تذكر فى عنوان الحزب كلمة عن الاستقلال ، ولا عن الحرية الوطنية .

ثم حـزب الأمة الذى نادى بالاستقلال بعيـدا عن الخـلافة

الاسلامية ، وكان لطفى السيد لسان الذين فكروا هذا التفكير ، والذين اعتزموا لبث دعوتهم اصدار جريدة الجريدة ٠

كما برز الى الميدان كثير من الصحف القوية المتطورة من أمثال اللواء ، والمؤيد ، ومصباح الشرق على اختلاف فى المشارب ، والاتجاهات ، مما اضطر الحكومة والمستعمرين الى تقييد حرية الصحافة ، واعادة قانون المطبوعات فى مارس سنة ١٩٠٩ وبه أنذرت اللواء ، وحوكم الشيخ عبد العزيز جاويش ، كما أحيلت تهم الصحافة الى محكمة الجنايات ٠

وبموت مصطفى كامل فى فبراير سنة ١٩٠٨ حدث فراغ هائل ، وأصيبت القضية الوطنية بصدمة عنيفة ظهر أثرها فى هذه الاضطرابات المتوالية التى بدأت بسقوط وزارة مصطفى فهمى الطويلة الأجل ، ثم باغتيال رئيس الوزراء الجديد بطرس غالى لأنه وقع على اتفاقية سنة ١٨٩٩ الخاصة بالسودان وبالحكم الثنائى ، ثم بتولى رئاسة الوزارة محمد سعيد الذى افتن فى محاربة الحركة الوطنية ، وانتهت هذه الفترة بتولى حسين رشدى الوزارة فى ابريل سنة ١٩١٤ قبيل اعلان الحرب العظمى بين انجلترا وألمانيا فى أغسطس من العام نفسه ، كما انتهت بخلع الخديوى عباس ، وتولية السلطان حسين كامل عرش مصر فى ظل الحماية البريطانية فى ديسمبر عام ١٩١٤ ٠

واستسلمت مصر مرة ثانية فى ظل الحماية ، وأسلمت جميع مواردها من الرجال والمهمات والمؤن والمواشى والحاصلات الزراعية والصناعية الى خدمة السلطة العسكرية وصارت الحكومة تعمل بلا انقطاع لتقديم كل المساعدات اللازمة للجيوش البريطانية ٠

وكأن الأمل الذى خرج من أحشاء الأمة ومن دمها وأعصابها قد بدأ يبتسم فى تلك الوجوه البائسة التى ذاقت ويلات الحرب

والحرمان بلا جريرة ، وكأن هذه السنوات العشر التى أعقبت موت مصطفى كامل كانت هى الروح التى غذت هذا الأمل وهيأت السبيل لنموه ، فلقد رأيناه فى سنة ١٩١٩ قويا جبارا يتمثل فى هذه الثورة العنيفة التى تصدت للمستعمرين ، وكادت تؤتى ثمارها لولا الانحراف السياسى .

وثورة ١٩١٩ حدث خطير هائل لم تكن وليدة زعامات فردية ، وانما كانت وليدة ارادة أمة عانت من الكبت ومن الاستعمار قرابة أربعين عاما ، ثم انطلقت لا تلوى على شىء ، وكانت خليقة بأن تحقق أمل البلاد لولا أنانية الزعماء .

فسعد ، وعدلى ، وصدقى ، ومحمد محمود هم ركائز هذه الفترة ، والمسئولون أولا وأخيرا عن نتائجها .

ولن يشك أحد فى اخلاص الأولين ، كما لن يغفر للأخيرين انحرافهما بالسلطة الشرعية عن أهدافها ، واستغلالها ضد حريات الشعب .

وبشىء من التفصيل نستطيع أن نسلط الأضواء على كل زعيم من هؤلاء .

فسعد بصفته الوكيل العام للجمعية التشريعية يعتبر وكيلا شرعيا عن الأمة فهو كما كان يرى أحق من غيره بالمطالبة بحقوق الأمة ، وقد كان كذلك ، بل لقد تعرض للنفى مرتين فاكتسب بذلك عطف الجماهير الشعبية ، وأرهب المستعمرين .

ولكنه مع ذلك هو المسئول الأول عن هذا الانقسام الذى حدث نتيجة لاختلافه مع عدلى على رئاسة وفد المفاوضات ، وهو المسئول أيضا عن الارتفاع بالروح الثورية الى أقصى غايتها دون عمل الضمانات اللازمة لاستمرار هذه الروح ، وبخاصة بعد مقتل « السير لى استاك » فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ .

وهو المسئول أخيرا عن اغفاله للثورة الاقتصادية حينما كان رئيسا للوزارة ، فهى لم تساير الثورة السياسية على الاطلاق .

وعدلى كان مخلصا أيضا ولكنه تردى فى أخطاء ، ولقد أتى الى الوزارة أكثر من مرة ، أتى الى الوزارة فى سنة ١٩٢١ ، واختلف مع سعد ، وسحبت الأمة ثقتها من وزارته ، وكان من الواجب عليه أن يستقيل ، ولكنه تردى فى عناده .

وأتى فى يونيو سنة ١٩٢٦ على رأس وزارة ائتلافية ، ولكنه لم يعن بقضية الاستقلال ، ولا بمقاومة الاعتداء البريطانى ، ولم يعمل عملا لرفع آثار الاعتداءات المتكررة من الانجليز فى السودان بل لم يضع لوزارته برنامجا انشائيا ينهض بالبلاد من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية .

وأتى الى الوزارة فى أكتوبر سنة ١٩٢٩ عقب استقالة وزارة محمد محمود ، ولكنه فى هذه المرة أعاد الحياة الدستورية الى البلاد .

وصدقى عين وزيرا للداخلية فى وزارة زيور باشا فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٤ ، وكان الغرض من تعيينه تقوية الوزارة ، والاستعانة به فى تسخير الأداة الحكومية للعبث بالانتخابات ، وقمع المقاومة الشعبية . ولقد قام بدوره خير قيام فأذل المصريين ، وكمم أنفاسهم .

ثم أتى على رأس الوزارة فى ٢٠ يونيو سنة ١٩٣٠ ، فألغى دستور سنة ١٩٢٣ وأعلن دستور آخر فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ فيه تفويض للملك بالاستبداد ، ولم يأبه بالشعب ، ولا باحتجاج الأحزاب ، بل لقد استخدم الجيش فى احتلال دار البرلمان فى ٢١ يوليو من نفس العام ، وظل صدقى مرعبا مخيفا مكروها من الشعب حتى وزارته الأخيرة فى فبراير سنة ١٩٤٦ .

أما محمد محمود فمحبذ سياسة الاضطهاد ، وصاحب اليد الحديدية الذى عطل الدستور ، وأعاد العمل بقوانين المطبوعات القديم، وجرد الموظفين من حرية العقيدة السياسية ، وعاقب طلاب المدارس والجامعة ، وبه يكمل تصويرنا لهذه الفترة الحيوية من تاريخ كفاحنا القومى ، ولو أنه فى عهد وزارته الثانية كان أخف وطأة من ذى قبل ·

ولقد اتسمت هذه الفترة بسمة الصراع من أجل الدستور ، كما اتسمت أيضا بسمة المنافسة الحزبية ·

والدستور كان وليد ثورة ١٩١٩ ، كما كان اعلان الاستقلال، والمناداة بسلطان مصر ملكا فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وليد الثورة أيضا ·

غير أن الدستور قد ارتطم بسياسة الملك فؤاد الذى كان يرى فيه حدا من سلطته المطلقة ، ولقد سخر من أجل الاجهاز عليه أكثر من زعيم ، فوزارة محمد توفيق نسيم فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٢ شرعت فى مسخ الدستور ، وحذفت المادة التى تقول : ان الأمة مصدر السلطات ، كما حذفت النصوص الخاصة بالسودان ·

ووزارة يحيى ابراهيم فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٣ سارت على خطى نسيم وأعلن رئيسها أنه معتمد فى أداء مهمته على مساعدة المندوب السامى ·

ووزارة زيور باشا فى سنة ١٩٢٤ عبثت بالانتخابات ، وسلبت من الدستور روحه ·

ووزارة محمد محمود فى يونيو سنة ١٩٢٨ عطلت الدستور وحلت البرلمان ·

ووزارة صدقى فى أغسطس سنة ١٩٣٢ ألغت الدستور ، وأعلنت دستورا آخر فى أكتوبر من العام نفسه كان فيه تفويض للملك بالاستبداد ·

ولكم كان للدستور من شهداء ، ولقد توج كفاح الشعب اعادة دستور ١٩٢٣ فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ٠

أما المنافسة الحزبية فلقد اتسمت بالصراع بين الأحزاب المختلفة التى من أهمها حزب الوفد ، حزب الأغلبية ، وحزب الأحرار الدستوريين المنشقين عن الوفد الذى تألف فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ ووقف للدستور بالمرصاد ٠ ثم حزب الاتحاد الذى ألفه يحيى ابراهيم فى يناير سنة ١٩٢٥ بايعاز من قصر عابدين ، وحزب الشعب الذى ألفه صدقى فى سنة ١٩٣٠ ثم اندمج مع حزب الاتحاد فيما يعرف باسم حزب الاتحاد الشعبى ، ثم حزب الهيئة السعدية برئاسة أحمد ماهر سنة ١٩٣٨ ، والحزب الوطنى ، وحزب مصر الفتاة ٠

واستمر الصراع الحزبى طوال عهد فاروق ٠

ومن الملاحظ أن فاروق تولى عرش مصر والبلاد يسودها الائتلاف ودستور سنة ١٩٢٣ قد أعيد الى الحياة ، والانتخابات قد أتت بوزارة النحاس فى ١٠ مايو سنة ١٩٣٦ ٠

والنحاس ووزراء الهيئة السعدية من أمثال أحمد ماهر ، ومحمود فهمى النقراشى هم عمد هذه الفترة التى كانت تشبه الى حد بعيد فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى مع اختلاف فى الظروف والملابسات والنتائج ٠

أتى النحاس الى دست الوزارة فى هذه الفترة أكثر من مرة فشغل الناس ، وافتن فى الدعاية ، واكتسب بذلك عطف الجماهير وحماستهم ، فهو الذى عقد اتفاقية ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، مع أنها لا تحقق أمل البلاد فى الاستقلال التام ٠ وهو الذى عقد أيضا اتفاقية « مونترو » التى تنص على الغاء الامتيازات الأجنبية فى ابريل سنة ١٩٣٧ ، وهو الذى عمل على دخول مصر الى عصبة الأمم فى ١٠ مايو من العام نفسه ، وهذا كله جهد مشكور ٠

غير أننا لا نستطيع أن نغفر للنحاس استغلاله لثقة الشعب في مناوراته السياسية التى كان يهدف من ورائها دائما الى الوزارة ·

فلقد رفض وزارة الائتلاف فى سنة ١٩٤٠ والحرب مشتعلة الأوار ، والبلاد فى حاجة الى ائتلاف ، كما رفض الوزارة أيضا فى عام ١٩٤٢ فى مناورة سياسية مكشوفة أدت الى محاصرة قصر عابدين واهانة المصريين فى شخص ملك البلاد ·

كما أرهب خصومه السياسيين عن طريق فرق القمصان الزرق ، واقالة بعض كبار الموظفين الحزبيين ، واستغلال المناصب عن طريق الرشوة ، والمحسوبيات ·

وعلى العكس من ذلك نرى وزارتى أحمد ماهر ، ومحمود فهمى النقراشى · فلقد كان لكليهما مواقف فى القضاء على المحسوبيات ، كما كان للأخير موقفه المشرف فى مجلس الأمن من أجل الدفاع عن قضية البلاد ·

واتماما للحديث عن هذه الفترة رأينا أن نتحدث عن خمسة مظاهر ميزتها عن الفترة السابقة ، وصبغتها بصبغة معينة ·

أولهما ـ سياسة الاحتفالات التى اتبعها القصر ، واجتذب بها قلوب المصريين ، وسخر من أجلها كل وسائل الاعلام نرى ذلك فى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ كما نراه فى حفلات التتويج والزفاف الملكى فى ٢٠ يناير سنة ١٩٣٨ وأعياد الميلاد الملكية ، وميلاد الأميرات وزواج الامبراطورة فوزية · ويطول بنا الحديث اذا استطردنا الى تصوير ما كان لهذه الاحتفالات من الروعة والجلال ·

ثانيها ـ تأثر مصر بأحداث الحرب العالمية الثانية ، واعلان الأحكام العرفية فى عام ١٩٣٩ ، فلقد أصبحت مصر ميدانا لتصارع قوات المحور والحلفاء وبخاصة فى العلمين ، كما أصبحت المدن عرضة

لغارات الأعداء المستمرة مما سبب الرعب فى قلوب المصريين ، هذا بالاضافة الى الأزمة الاقتصادية التى سببتها الحرب ، وعانى منها الشعب وأثرت فى كثير من مواد تموينه التى كانت مسخرة لجيوش المحاربين .

ثالثها ــ تأليف لجنة عليا تمثل الطلبة والعمال للمطالبة بالجلاء فى ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ وكانت وسيلتها الى ذلك تنظيم الاضرابات ، ثم تطورت الى جماعات الفدائيين التى اشتركت فى حرب العصابات مع الانجليز فى مدن القنال .

رابعها ــ توقيع ميثاق جامعة الدول العربية فى مارس سنة ١٩٤٥ .

خامسها ــ دخول جيوش الدول العربية الى فلسطين فى سنة ١٩٤٨ ، وما أعقبها من خيانات تجلت فى قضية الأسلحة الفاسدة .

ولقد تجمعت كل هذه العوامل ، وانضمت الى العوامل الأخرى الاقتصادية والاجتماعية ، وتكاتفت ، وبرزت الى الوجود فى ثورة ١٩٥٢ .

٣ ــ الحياة الاجتماعية :

والحياة الاجتماعية فى مصر قد شغلت أذهان المفكرين منذ مطلع هذا القرن ، لأن رواسب التخلف من فقر وجهل ومرض قد تراكمت وأصبحت فى حاجة ماسة الى نهضة سريعة وحاسمة تقضى على كل ما خلفته عهود الظلام ، وتعمل على انقاذ البلاد من مؤامرات الاستعمار التى ترمى الى تخلفها الاقتصادى بالاعتماد على الزراعة وحدها ، وتخلفها الاجتماعى بتوسيع الفوارق بين الطبقات .

ومن هنا رأينا كثيرا من المصلحين يهتمون بالأدواء الاجتماعية، ويعملون على اصلاحها وأدباء مصر بعامة ، وشعراءها بخاصة في المقدمة •

١ ـ ولقد شغلت مشكلة الفقر أذهان كثير من المصلحين والمفكرين ، فحافظ ابراهيم ـ وقد نشأ بين طبقات الشعب الكادحة ـ يصور لنا في شعره حياة كثير من الفقراء ، فهذه فتاة يائسة قد أضر بها الجوع ، وأنهك جسمها المرض ، فأصبحت كعود خلال ، أو كطيف خيال •

أمست بمدرجة الخطوب فمالها ... راع هناك وما لها من وال
وهذا صبي هائم ... تحت الظلام هيام حائر

لا يجد له مأوى يؤويه ، ولا قلبا يعطف عليه ، ولا شيئا يستر جسمه ، الى آخر هذه الصور البائسة التي حفل بها شعر حافظ ابراهيم •

ومصطفى صادق الرافعي يصور لنا في كتابه المساكين أنماطا متعددة ، ونماذج بشرية لهذا اللون من الناس : يصور حياة أطفال الشارع وهم ينامون على عتبة البنك يحلمون بالغنى والمجد ، كما يصور حياة كثير من السائلين والمجدودين ، فهذه فتاة مسكينة قد تزوجت « بكونت » في سن أبيها ، وهذه فتاة سائلة أراق السؤال ماء وجهها ، ولكنها لم تظفر بما تريد ، صور متعددة لمساكين عج بهم المجتمع فأصبحوا عالة عليه وثقلا في سبيل تقدمه •

ومحمد عبد المطلب يصور باكية الدياجي وحولها أطفالها يتضاغون من الجوع ، ويصور حياة الفقير وبجواره قصر منيف يشمق السماء طولا ، وحالة الغلاء وقد أضر بالشعب، كما أضر بابن الحكومة •

فوا رحمتا لابن الحكومة قوسه ... قلوع ، وهل يرجى سداد قلوع

وأحمد محرم يصف فى أكثر من قصيدة بمشكلة الفقر والغنى، بشعور قوى يدل على شدة انفعاله ، وفرط حساسيته ٠

وخليل مطران يبكى المرأة وشقاءها فى قصته الرائعة ا« الجنين الشهيد » فى قوله :

وكم ضاجع الجوع الأثيم بهاءها
وقبلهـا حتى أجف دماءها
وكم ساعف الحر المذيب شقاءهـا
وكم نازع البرد الشديد نماءها
نوائب تأتى كالليالى وتشتعل

ويبين مغبة فقرها فى قوله :

على أنه ملهى رجال أســافل
مبغى نساء فاجرات عواطل
جديب خصـيب بالبطون الحوامل
وما تقذف الأمواج من كل ساحل
من الرمل ما يقـذفن فيه من النسـل
يعد بنيه للمهـانة والخنـا
ويلقى بهم فى البحر تحت يد الفنا
فيتخذون التيه فى الأرض موطنا
عراة حفـاة خائرين من العنـا
اذا نزلوا خصبا فبشره بالمحل
فتحترف الأزواج بغى نسائها
وتحترف الزوجات خلع حيائها
وولد خلت آباؤها عن ابائها
يتـاجر فى أعراضها وبهائها
وتنمو على خلق المفاسد والختل

وهكذا يضرب على هذا الوتر الحساس من القلوب الانسانية ٠

٢ ــ وتخلف المرأة مشكلة أخرى شغلت أذهان كثير من المفكرين والمصلحين •

فلقد نادى رفاعة الطهطاوى منذ زمن مبكر بتعليم البنات فى كتابه (المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين) كما صورت عائشة التيمورية فى ديوانها حلية الطراز فجر النهضة النسائية فى مرحلتها الأولى • غير أن هــذه محاولات محدودة لم تهيأ لها البيئة الصالحة بعد ، فلما جاء قاسم أمين ونادى بتحرير المــرأة من أسر الحجاب ، وباعطائها حق التربية والتعليم أثار بذلك الرأى المتنور فانقسم الى فريقين :

فريق ينكر دعوته ، ويرى أن فيها انحرافا بتقاليدنا وعاداتنا ويهاجم من أجل ذلك قاسم أمين ، وعلى رأسه عبد المطلب ، ومحرم ، والرافعى ، ورجال الدين والقصر •

وفريق آخــر يؤازره فى دعــوته ، وان كان يتريث فى بادىء الأمر ، ممالأة وتقية ، ثم يجهر برأيه بعد أن تخف حدة المعركة وعلى رأسه شوقى وحافظ ابراهيم •

وتستمر الدعوة الى اصلاح المرأة ، والعناية بأمرها ، وبخاصة فى ميدان التربية والتعليم ، ومنع زواج الشيب بالأبكار ، والتماس أساليب التربية الصحيحة لتقويمها والسير بها فى الطريق الصحيح•

٣ ــ وفتور الشعور الدينى ومحاربته والانحراف به عن طريقه السليم مشكلة أخرى شغلت أذهان المفكرين من أمثال جمال الدين ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، ومصطفى كامل ، وحزب الأمة ، كما شغلت أذهان كثير من الشعراء فى المواسم الدينية فى العام الهجرى، وفى الميلاد النبوى وفى الأعياد ، ولقد كان لكل ذلك أثره فى اعداد الرأى العام لانشاء كثير من الجمعيــات الدينية من أمثال الشــبان المسلمين والهداية الاســلامية ، والتعارف الاســـلامى ، والاخــوان

المسلمين ، وانشاء عدة جرائد ومجلات اسلامية مثل الزهراء والفتح للأستاذ محب الدين الخطيب ·

٤ ـ على أن الكتاب والشعراء لم يقصروا أدبهم وشعرهم على وصف الأدواء ومحاولة علاجها ، وانما كانوا يتجاوبون مع كل اصلاح ، وها هو ذا شوقي يعنى بمظاهر النهضة فيقول في الجامعة، وفي الصحافة ، وفي العلم والتعليم ، وفي بنك مصر ، وفي أول طيار مصرى ، وفي العمال ·

وحافظ يسجل في شعره كثيرا من نبضات المجتمع في معاهد البنات المختلفة وفي الدفاع عن اللغة العربية ، وفي زواج الشيخ على يوسف ببنت السيد عبد الخالق السادات · وهكذا يسهم الشعراء بدور فعال في تصوير المجتمع ، وتشخيص علله وأدوائه ، وعوامل نهوضه ، ومؤازرة خطواته في سبيل التقدم والبناء ·

وحسبنا هنا أن نعطي صورة واضحة وسريعة لحياة مصر الاجتماعية في هذه الفترة التي نهتم بدراستها ·

٣ ـ الحياة الثقافية :

(أ) التعليم

من الواضح أن الخديوى اسماعيل قد أحدث نهضة تعليمية حال دون اطرادها المستعمرون باسناد أمر وزارة المعارف الى المستر « دنلوب » ، فلقد وضع سياسة تعليمية جامدة ، بعيدة عن روح التربية والتعليم تهدف الى ايجاد طائفة من أنصاف المثقفين ·

وساعد مع كثير من العقول الرجعية على اتساع الهوة بين التعليم الديني ، والتعليم المدنى ، فأصبح كل منهما في واد ·

فالأزهر يدرس الكتب الدينية ، واللغوية ، وطرفا من الدراسات الأدبية لاتغني سبيلا ، ثم هو لا يهتم بالطالب وانما يلقى

عبأه كله على عاتقه من غير أن يحمل أحد أى عبء عنه ، فما عليه الا أن يسجل اسمه فى دفاتر الأزهر ثم يفعل ما يشاء ، فيحضر أولا يحضر ، ويجد أو يلعب ، ويفهم أولا يفهم ، كل هـذا متروك الى نفسه .

واستمرت هذه الروح فى الأزهر حتى بعد أن نظم فى معاهد وكليات فالدراسة فيه كانت جامدة تعتمد على الحواشي والمتون والاستظهار دون التذوق ، والمعرفة الناضجة ، ومسايرة روح العصر .

والتعليم المدنى قد خطط له المستعمرون ، واتجهوا به الى الاستظهار والحفظ ، وحشوا أدمغة التلاميذ بكثير من المعلومات دون غاية أو هدف ، وتدخلوا فى كل شىء حتى فى اختيار الجامعات والمعاهد الأوروبية لطلاب الدراسات العليا .

ولقد حدث تطور خطير فى ميدان التربية والتعليم جاء نتيجة حتمية لانشاء الجامعة ، والتوسع فى التعليم العام وبخاصة بعد الغاء المصروفات ووجود طائفة من المربين العلماء الذين عملوا باخلاص على تلافى هذا النقص ، واهتدوا بآراء المفكرين المدونة فى كثير من الكتب التقارير الرسمية مما ساعد على نمو نهضة تعليمية موفقة بالبلاد .

(ب) تصارع الثقافات

ولقد شهدت مصر منذ مطلع القرن الماضى صراعا عنيفا بين الثقافات العربية ، والفرنسية ، والانجليزية ، فلقد اتجه محمد على الى فرنسا ، فأرسل البعثات المتعددة اليها واستقدم كثيرا من الفرنسيين فى مصر ليساعدوه فى مشروعاته الانمائية ، فساعد بذلك بطريق غير مباشر على احياء اللغة العربية لأن المترجمين كثيرا ما كانوا

يضطرون الى البحث عن مقابل عربى لكثير من المصطلحات الأجنبية، ثم أتى سعيد الى الحكم فساعد البعثات الدينية الأجنبية على فتح مدارسها ، وسار فى نفس الاتجاه الخديوى اسماعيل الذى فتح الباب على مصراعيه للثقافة الأجنبية كما فتح الباب للمستعمرين الانجليز ٠

وهنا بدأ الصراع يأخذ دورا جادا بين الثقافة الفرنسية صاحبة السبق فى الديار المصرية والثقافة الانجليزية الوافدة مع الاحتلال ، وبطبيعة الحال استطاع الانجليز أن يفرضوا لغتهم على مدارس الدولة فأهملوا بذلك اللغة العربية والفرنسية ولم يتوانوا عن حربهما بشتى الوسائل ٠

ولقد وقف الزعماء الوطنيون والعلماء بجانب اللغة العربية ، ودعوا الى احيائها والاهتمام بها ، من أمثال الشيخ ابرهيم اليازجى، وأحمد فتحى زغلول ، والشيخ محمد الخضرى ، والشيخ على يوسف الذى دعا الى التدريس باللغة العربية فى مدارس الحكومة ، ودافع عن وجهة نظره دفاعا مستمرا ٠ ثم الزعيم الوطنى مصطفى كامل الذى هاجم سعد زغلول حينما اعترض على جعل التعليم فى المدارس الأميرية باللغة العربية ، وعارض طلب الجمعية العمومية من الحكومة ٠

(ج) الصحافة الأدبية

وشقت الصحافة طريقها فى أحلك فترة من فترات التاريخ المصرى الحديث ولقد كان المصريون عزلا من كل سلاح الا سلاح الصحافة أو سلاح الوعى القومى ، وأسلم الراية أحمد فارس الشدياق ، وعبد الله نديم ويعقوب صنوع الى ابراهيم المويلحى ، والشيخ على يوسف ، ومصطفى كامل ، وجرجى زيدان ، وأحمد لطفى السيد ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش ، ومحمد حسين هيكل ٠ ولقد كانت الصحافة والزعامة شيئا وحدا ٠

ومن المهم أن نفرق هنا بين صحافة الخبر ، وصحافة المقال ، ونوضح أننا نعنى هنـا صحافة المقـال ، صحافة الرأى والدرس والبحث والنظر فى كل مشكلة من مشكلات الأفراد والجماعات ، ثم الصحافة الأدبية ·

ولقد أخذ المقـال طابعه الحديث على أيدى هؤلاء الرواد من الصحفيين المويلحى فى مصباح الشرق استحدث لونا طريفـا من النقد لاعهد لأدب مصر به بل ولا عهد للأمم العربية جمعاء ، وهـذا النوع من النقد يقوم فى الجملة على التماس الجانب الضعيف فى أثر الرجل فيعرضه بالقلم فى صورة (كاريكاتورية) يزيد فى تشويهها ما يتوافى لذهنـه الدقيق من ألوان التشبيـه وما يحضر من فنون الاستشهاد والتمثيل ولا يبرح يمط الموضوع فى هـذه الناحية بالتوليد وطلب المناسبات القريبة والملابسـات الدانية ، تسندها النكتة البارعة ، ويسعفها التندر البديع حتى ينتهى الى مالا ينتهى اليه أحد من الناقدين ·

والسيد على يوسف وقف بقلمه فى ميدان السياسة وميدان الدين · ففى ميدان السياسة بعث حبا وعطفا فى قلوب المصرين على عباس حلمى الثانى بوصفه أنه الرجل الذى وقع فريسـة الاحتلال البريطانى لا لشىء الا أنه أراد أن يكون للشعب المصرى أكثر من أمير أو ملك · وفى ميدان الدين رد على الأوروبيين فى هذه الحرب الدعائية التى شنوها على الدين الاسلامى ، وأفهمهم قيمة هذا الدين ، وشرح لهم كثيرا من مبادئه بطريقة بارعة ، وكان هذا العمل متمما للعمل العظيم الذى بدأه محمد عبده ، وطالب بالدستور ، ودافع عن اللغة العربية ·

ومصطفى كامل اتخذت كلماته ومقالاته أسلوب العاطفة الحادة ووضـع أمامه هـدف ايقاظ المصريين من غفلتهم وبث الحيوية فى نفوسهم لكى يقفوا أمام تيار الاستعمار والتخلف والتردد واليأس ·

أما أحمد لطفى السـيد فكان أدبه هو الوليد الحى القوى المتمشى مع روح العصر الجديد ، فكل من كان يقرأ فصلا من فصول الأستاذ فى الجريدة كان يشعر بأن فى الأدب العربى شيئا جديدا فيصبو الى أن يتعرف هذا الجديد فاذا هو أمام شخصية قوية خلابة خصبة محببة الى النفس قد ملكت عليه عقله ، واستأثرت بهواه ، واذا هو يجد فى هذه الفصول لذة لا يستطيع أن ينصرف عنها ولا أن يسلوها لذة كلذة « الكيف » ان صح هذا التعبير ، ولكنها لذة تغذو وتفيد ، واذا هو يقرأ هذه الفصول ويقرؤها ، ويحاول أن يتخذ لفظها نموذجا للكتابة ، ومعناها نموذجا للتفكير ، واذا هو يتجاوز الأستاذ وفصوله الى الحياة الأوروبية الحديثة ، والتفكير الأوروبى الحديث ، واذا هو من أنصار الجديد فى قصد واعتدال واذا هو من الذين يدعون الى حرية الرأى ويذودون عنها ، واذا هو من الذين يريدون أن يزايلوا هذه الفروق التى كانت تقوم بين العقل الشرقى والعقل الغربى ، واذا هو يريد أن تكون مصر العقلية جزء من أوربا العقلية ، ولكن على أن تحتفظ مع ذلك بشخصيتها القومية واضحة قوية •

ولقد كان للأدب فى صحيفة السياسة اليومية أثر واضح فى بلورة كثير من النظريات الأدبية ، فلقد تناول ناقد السياسة الأدبى الدكتور طه حسين كثيرا من هذه النظريات بالتمحيص والنقد أو الارشاد والتوجيه ، وذلك فى رده على الرافعى ، أو فى نقده للعقاد وهيكل أو فى عتبه على الزيات •

واستطاع طه حسين بآرائه أن يؤدى رسالته الأدبية أحسن أداء •

كما استطاع محمد حسين هيكل رئيس التحرير أن يبسط رأيه فى الأدب القومى ذلك الذى يجب أن يعتمد على التاريخ المصرى وطبيعة وادى النيل •

ولصحيفه البلاغ الأسبوعى التى كان يسهم فى تحريرها العقاد ، نفس الدور لطليعى فى توجيه الأدب المعاصر .

ثم سلمت السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى الراية بعد ذلك الى المجلات الأدبية الخالصة : فمجلة أبوللو اهتمت بالشعر ونقده ، وكشفت عن كثير من المواهب الأدبية المطمورة التى تربعت على عرش الشعر والنقد المعاصرين ، ومجلة الرسالة اهتمت باحياء اللغة والدين ، وأسهمت فى نهضة الأدب الحديث وتبعتها مجلة الثقافة ، ثم مجلة الكاتب ذات الطابع العربى الرصين ، أما مجلة الكاتب المصرى فالأبحاث فيها كانت تميل الى الانطلاق والتحرر .

الدراسات الأدبية :

فى الأزهر والجامعة ودار العلوم

أما فى الأزهر فالأدب فى أواخر القرن الماضى كانت دروسه منتظمة فى حلقتى الشيخ محمد عبده ، والشيخ سيد بن على المرصفى ، فالشيخ محمد عبده كان يقرأ فى الأزهر أو ملحقاته دروسا فى البلاغة « لاعلى نمط البلاغة التى أفسدتها الفلسفة ، بل على النمط الذى يربى الذوق ويرقى الأسلوب ، ولقد قرأ كتابى دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ، وكان هو السبب فى نشرهما ، فقدم بهما معنى للبلاغة لم يكن مفهوما للناس من قبل .

وأما الشيخ سيد بن على المرصفى فلقد كان يدرس الأدب فى الأزهر ، وتتلخص منهجه فى ايثاره للبدوى الجزل على الحضرى السهل ، وكلفه بمناحى الأعراب فى فنون القول ، ونبوه عن تكلف المولدين لألوان الفلسفة والمنطق ، وبغضه الشديد لحكم الضرورة فى الشعر ، وللفظ السهل المهلهل يقع بين الألفاظ الجزلة الضخمة

الى غير ذلك مما هو الى مذهب القدماء ورواة الشعر أدنى منه الى مذهب المحدثين من الأدباء والنقاد ·

ولكن هذه الدروس لم تستمر ولم تتطور، بل لقد عاش الأزهر بعد ذلك عالة على كتاب الوسيط الذى ألفه أحمد الاسكندرى ومصطفى العنانى ، وكتاب السعد فى البلاغة للتفتازانى حتى صدور قانون اصلاح الأزهر الأخير فى عهد الثورة ·

وأما الجامعة المصرية فلقد عنيت بالمذهبين النافعين فى وقت واحد ، عهد الى المرحوم حفنى ناصف ثم الى المرحوم الشيخ مهدى بدرس الأدب ، وعهدت الى الأستاذ جويدى ثم الأستاذ نلينو ، ثم الأستاذ فييت بدرس تاريخ الأدب ·

وأما دار العلوم فكانت وسطا بين الأزهر والجامعة ، عملت جهد استطاعتها على احياء الأدب العربى القديم ، وبعثه فى حلل عربية زاهية ، كما عملت جهد استطاعتها أيضا على مسايرة العصر الحديث ·

وان كانت قد تعرضت لهجوم عنيف من الدكتور طه حسين فى نقده لمنهج الدراسات الأدبية بها فهو كما يرى لا يأخذ بحظ من أسلوب القدماء فى النقد ، ولا من أسلوب المحدثين فى البحث ، وانما يحاول أن يقلد الأوروبيين فيما يسمونه تاريخ الآداب ، فيعمد الى الكتاب والشعراء والفلاسفة فيترجم لهم ، أو يختلس لهم ترجمة من كتب الطبقات على اختلافها ··

ثم ينحى طه حسين باللائمة على الحكومة التى لم ترسل البعثات الى أوربا فى الآداب لتعود الى دار العلوم ·

وقد يشتد طه حسين فى هجومه فيطالب بالغاء دار العلوم والاعتماد على مدرسة المعلمين العليا ·

والحق أن دار العلوم قد أدت رسالتها ، وطورت مناهجها مع الزمن ، ففيها كان يحاضر الشيخ حسن المرصفى صاحب « الوسيلة

الأدبية لعلوم العربية » وفيها وضع أول كتاب فى تاريخ الأدب على الطريقة الحديثة ألفه الأستاذ حسن توفيق العدل متأثرا «ببروكلمان» وعلى نمطه سار كل من أتى بعده ·

وفيها تطورت الدراسات الأدبية يغذيها رافدان : الثقافة العربية الأصيلة ، والثقافة الغربية المستحدثة ·

(د) المعارك الأدبية :

الصراع بين القديم والجديد مستمر ودائم فى كل عصر وكل أمة ، ولقد بدأ الصراع بين القديم والجديد فى الأدب الحديث بصورة جادة فى أواخر القرن الماضى ، واستمر مع مطلع القرن العشرين الى الآن · بدأ على يد أحمد فارس الشدياق الذى أخذ يوازن بين الشعر الغربى والشعر العربى ، والشيخ نجيب الحداد الذى وازن بين اللغتين من حيث القافية واللفظ والمعنى ، ومن الواضح أن الموازنات وسيلة من وسائل التوجيه فى النقد الأدبى ، ثم تبعهما الزعيم الوطنى محمد فريد الذى أخذ يدعو الى الأغراض القومية فى مقدمة ديوان « وطنيتى » لعلى الغاياتى ، ويهاجم شعر المديح الذى يدبجه الشعراء فى أيام معلومة ومواسم معدودة وطلب منهم أن يستعملوا هذه المواهب الربانية العالية فى خدمة الأمة وتربيتها بدل أن يصرفوها فى خدمة الأغنياء ، وتملق الأمراء ، والتقرب من الوزراء ،

ثم أخذ الصراع يشتد ويعنف على يد :

١ ــ مدرسة الديوان

٢ ــ طه حسين والرافعى

٣ ــ جماعة أبوللو

٤ ــ شعراء المهجر

٥ ــ سلامة موسى

٦ ــ الشعراء التقليديين

أما مدرسة الديوان فلقد تأثرت بالأدب الرومانسى الانجليزى فى نتاجها الشعرى ، وفى نظراتهـا النقدية ، وكانت لها مع ذلك شخصيتها الواضحة ، كما كان من أقطابهـا شخصيته فى انتاجه الشعرى ٠

فعبد الرحمن شكرى فى ديوانه الخامس (الخطرات) تحدث عن وحدة القصيدة والحكم عليها بمجموعها لابيبت منها لأن البيت جزء مكمل وليس وحدة تامة ، وعن موضوعات الشعر التى تستلزم نوعا ومقدارا خاصا من التفكير ، وعن المعانى الشعرية وأجلها خواطر الشاعر وآراؤه وتجاربه النفسية وعن الخيال الشعرى ٠

ومن الواضح أنه بهذا يعرض بالشـعراء التقليديين الذين يترسمون خطى الجاهليين والعباسيين فى نظام قصائدهم ٠

والمازنى كان يرى أن الشـعر يجب أن يكون عليه « طابع ناظمه وميسمه وفيه روحه واحساساته وخواطره ، ومظاهر نفسه سواء أكانت جليلة أم دقيقة ، شريفة أم وضيعة ، وهل الشعر الا صورة للحياة ؟ وهل « كل » مظاهر الحياة والعيش جليلة شريفة حتى لا يتوخى الشاعر فى شـعره الا كل جليل من المعانى ورفيع من الأغراض ، وكيف يكون معنى شريف وآخر غير شريف ، أليس شرف المعنى وجلالته فى صدقه ؟ فكل معنى صادق شريف جليل ٠

وهو بذلك يهاجم شعراء التقليد الذين تذوب شخصياتهم فيما يحفظون من نماذج قديمة تطغى على احساساتهم ومظاهر أنفسهم ،

كما هاجم طه حسين فى نقده لحديث الأربعاء ، وهاجم حافظ ابراهيم فى ١٩١٣ ، ١٩١٤ وجمع مقالاته ونشرها ، وهاجم المنفلوطى أيضا .

أما العقاد فيرى أن القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما ، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه ، بحيث اذا اختلف الوضع ، أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها ، فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته .

١ – وعلى العموم فان مدرسة الديوان قد دعت الى مفاهيم جديدة من أهمها الصدق والاحساس ، والصدق فى التعبير عن ذلك الاحساس ، كما نادت بالوحدة العضوية . وهاجمت عباد الألفاظ من التقليديين .

٢ – وعلى صفحات السياسة الأسبوعية ومجلة الوادى تدور معارك حامية بين القديم والجديد ، يمثل التيار الأول مصطفى صادق الرافعى ، ويمثل التيار الثانى الدكتور طه حسين .

وتبدأ المعركة برسالة عتاب من الرافعى الى أديب من أدباء الشام وقد كتبها – على حد تعبير طه حسين – على النمط الذى هو فن من زينة البلاغة العربية يشبه بعض فنون الزخرف والتنسيق ، وهو حين يكون فى مثل هذه الرسالة لا يكون أبدع منه شىء من الأساليب الأخرى .

ثم يوضح الدكتور طه معنى الذوق الأدبى الذى تغير عن ذوق أهل القرن الخامس والسادس للهجرة ولا سيما فى مصر تغيرا شديدا ، وتستمر المعركة بين الرافعى وأنصار التجديد ، وتخرج من ميدان النقد المهذب الى ميدان الشتم والسباب ..

وتنتقل الى مجلة الهلال فيشترك فيها الأستاذ سلامة موسى ، ويرد عليه الرافعى ، كما يهاجم الأستاذ خليل سكاكينى الأمير شكيب أرسلان ٠

ومن جهة أخرى تقوم معركة حامية الوطيس بين العقاد والرافعى ويكون السفود بناره الحامية أداة شى لحصاد هذه المعركة، كما تنشب معركة ثالثة بين طه حسين وتوفيق الحكيم والزيات ، ولقد بدأت هذه المعركة بين الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور طه حسين على صفحات «الوادى» ثم لم يمض يومان حتى رد الأستاذ توفيق الحكيم بما أصلح الأمر ٠ ولكن الزيات نقل المعركة الى صفحات الرسالة ، وهنا يثور طه حسين « فقد كان يجب أن تعرض الرسالة لهذه الخصومة بينهما من طريق لاتفسد صالحا ولا تكدر صافيا ٠٠٠٠

٣ ـ وفى سبتمبر سنة ١٩٣٢ تولد جماعة أبوللو وتكون من شعراء الشباب وكهول الأدباء الساخطين على التقاليد الأدبية الجارية، المتمردين على شعراء التقليد ، وشعراء الفكرة (مدرسة الديوان) وعلى الزعامات الأدبية ، ومن بينهم كامل كيلانى ، ومحمود أبو الوفا، وعلى محمود طه ، ومحمود حسن اسماعيل ، وحسن كامل الصيرفى، والدكتور أحمد زكى أبو شادى رائد هذه الجماعة ، وهى وان لم يكن لها مذهب نقدى معين الا أن نتاجها الشعرى كان رائعا ، وكثير من شعرائها اتجهوا الى الرومانسية ٠

٤ ـ وفيما وراء البحار نجد شعراء المهجر ثائرين على الأدب العربى القديم ثورة جامحة ، ثائرين على العروض والتفاعيل والقوافى ، ثائرين على الأغراض من رثاء ومديح وفخر وتهنئة متأثرين بالأدب الانجليزى ، وبالشاعر الأمريكى « ولت وتمان » ٠

٥ ـ ويشاركهم فى هذه الثورة « سلامة موسى » حيث يعين الاتجاهات التجديدية للأدب فى ستة أهداف :

(أ) أن يكون لنا أدب عصرى لا يرتكن الى الأدب العربى القديم

(ب) أن يكون لنا أسلوب عصر فى التعبير لايمت الى الجاحظ أو غيره ٠

(ج) أن تأخذ بالأوزان والقيم الأوروبية فى النقد الأدبى دون أوزان الناقدين القدماء وفيهم الجرجانى وابن الأثير وابن رشيق ٠

(د) أن نجعل الأدب يتصل بالمجتمع ويعالج مشكلاته

(هـ) أن نوجد القصة والدراما المصريتين

(و) أن نجعل الأدب انسانى الغاية ، عالمى المشكلات ٠

٦ ــ وازاء كل هذه المدارس الأدبية نجد بعض النقاد يهاجمون بعض هذه المدارس كما نجد كثيرا من شعراء التقليد يردون الهجوم أيضا ، فالأستاذ أحمد الشايب يهاجم مدرسة الديوان وأحمد زكى أبى شادى رائد مدرسة أبوللو فيقول : ٠٠٠ وانما ألاحظ أن هذه الطبقة لا تمثل حتى الآن الدرجة المثالية للشعر الحديث،وأن شعرها لا يأسر نفوسنا بسحر قوى ، ولا بروعة رائعة ، وذلك فيما يبدو لى يرجع الى هاتين الناحيتين اللتين ذكرتهما قبل الآن ، الأساليب ، والمعانى ، والكلام فى الأساليب وقوتها ، والقدرة على تطويعها للموضوعات والصور الفكرية ، والخيال قد يطول ٠ ولكن سبب الضعف هو عدم التملؤ الكامل بالأساليب الأصيلة فى اللغة والشعر القديم ٠

أما الشعراء التقليديون فلم يقفوا مكممى الأفواه أمام هجوم المجددين عليهم وانما يردون هذا الهجوم بأشعار طريفة ، يزعمون فيها أنهم يفندون دعاواهم ٠

يقول الشاعر الهراوى مفندا دعاوى هؤلاء المجددين

يا قادة الرأى الجديد تحيـــة
ان صح زعمكمو وألف سـلام

وملاحـــم اليونان أهى جديدة
وحديثهـــا من قبل ألفى عام

أتعيد ثرثرة الحديث مجـــددا
وترده لخرافــة الأصـــنام

الفصل الثانى

حياة الشاعر

١٢٩٩   ١٣٦٨ هـ

١٨٨١   ١٩٤٩ م

بيئته الخاصة :

نشأ فى رشيد ، فى تلك المدينة التى تجثم على العدوة القصوى من الشاطىء الغربى للنيل ـ فرع رشيد ـ فتستمد منه ألوانا متعددة من الجمال والجلال والهيبة ، وتمزجها بحقائق التاريخ القريب أثناء الحملة الفرنسية على مصر فى سنة ١٧٩٨ والحملة الانجليزية ١٨٠٧ ميلادية ، وبخيالات التاريخ البعيد حيث يعتقد أهل رشيد أنهم من قريش نزحوا اليها بعد فتح العرب بقليل فيتكون من هذا الامتزاج طابع خاص يدعو الى المحافظة والتقليد أكثر مما يدعو الى البهرجة والتطور ، لأن هذه الأوهام ، والخيالات الكثيرة التى تتوارثها أسرة من الأسر ، أو شعب من الشعوب تترك فى نفس الأجيال الناشئة شيئا من الأثر يعمل غير قليل فى تكوين الاشخاص النابهين مشتركا مع غيره من المؤثرات التى يتكشف عنها الزمان ، كما يعمل أيضا على غرس ألوان من المحافظة فالتشبث بالماضى وبالمجد القديم هو المسيطر دائما على النفوس . وقد كان هذا الطابع ـ وما يزال ـ من أهم مميزات رشيد .

في هذه المدينة المحافظة ولد الشاعر في بيت مبنى على الطراز القديم ذى «مشربيات» عالية تحجب أنظار المارة ، وتضفى على آهليه لونا من المحافظة و «الارستقراطية» المتوارثة ، ولقد كان لهذا البيت شأن قبيل الحملة الفرنسية وفى أثنائها ٠

فقبيل الحملة كانت تتجه اليه الأنظار فتذهب الوفود الى الشيخ ابراهيم الجارم أحد علماء مسجد زغلول برشيد لتشكو اليه ظلم الوالى التركى عثمان خجا ، وتعسفه فى جميع الضرائب ، وان الجارم ليذكر ذلك فى شعره بفخر واعتزاز حيث يقول لصديقه وصهره محمد بدر الدين الرشيدى

عصر بجدى ثم جد ... ك كان بالعلياء زاهر
سهرا فنام البائسو ... ن محصنين من المخاطر
وتقاسما فضل الفخا ... ر وناديا هل من مفاخر
جدى بعلم ناصع ... يهدى وليل الشك عاكر
وبمقول يفرى الحد ... يد ويصرع الخصم المكابر

واتجهت اليه الأنظار أيضا فى أثناء الحملة الفرنسية حيث تطلع الجنرال منو حاكم رشيد الى بيت الشيخ ابراهيم الجارم ليتزوج من احدى ابنتيه رقية وآمنة ، ولكن الشيخ البعيد النظر يعقد على ابنتيه ـ قبل أن يصل اليه طلب الجنرال ـ للشيخ عثمان شبايك ، والشيخ حسين أبى السعود الطالبين الفقيرين بمسجد زغلول ، ثم يذهب الى الجنرال وقد ركب بغلته وهو يردد فى همس خافت استغاثته التى أغرم بترديدها :

نحن بالله عزنا ... والحبيب المقرب
بهما عز نصرنا ... لا بجاه ومنصب
والذى رام ذلنا ... من قريب وأجنبى
سيفنا فيه قولنا ... حسبنا الله والنبى

ثم يسخر من ذقن الجنرال فلا يجيبه الى طلبه ٠

فى هذا البيت حيث ما زالت أخبار هذين الحادثين تقص على مسامع الاطفال ، وفى هذه المدينة ذات الشوارع الضيقة الملتوية ، وصاحبة الامجاد التاريخية ، ومسجد زغلول ، والمسجد المحلى ، ومسجد أبى مندور ، وشارع البحر نشأ الجارم ، ومن المعروف أن بيئة الطفل لاتقتصر على الهواء الذى يتنفسه ، والطعام الذى يتناوله، والبيت الذى يسكنه ، بل انها تشمل أيضا نوع التدريب الذى يتلقاه ، والناس المحيطة به ، وأساليب تعامله معهم وشعوره نحوهم، وكذلك اللغة والعادات التى يتعلمها منهم ٠

نشأ فى أسرة متدينة فأبوه هو الشيخ محمد صالح بن عبدالفتاح الجارم أحد علماء الأزهر ، والقاضى الشرعى بمدينة دمنهور ، فمديرية الجيزة ، فمديرية الفيوم ، ثم القاضى الشرعى لمدينة دمنهور مرة ثانية ، فمدينة الزقازيق حيث توفى بها ونقل جثمانه الى مدافن الأسرة فى رشيد سنة ١٩١٠ ٠

ولقد تزوج الشيخ محمد صالح الجارم بثلاث نسوة ، أولاهن بنت وكيل محافظة رشيد ــ وهى تركية الأصل ــ غير أن أباها منعها من التنقل معه مما أثار الخلاف والمعارضة من جانب الشيخ ودفعه الى طلاقها بعد أن أنجب منها ولده البكر الذى مات وهو فى حضانة جده لأمه ٠

ثم تزوج ثانيا برشيدية من عائلة «السيسى» تدعى «سلومة» وكان أبوها تاجرا وأنجب منها على الترتيب الشيخ محمد مأمون الجارم ، فالشيخ عبد الفتاح الجارم ، فالشيخ عبد المحسن الجارم ، وكلهم لم يتموا التعليم بالأزهر بل تزوجوا وعاشوا برشيد ، ثم أنجب الشيخ محمد نعمان الجارم فالشاعر على الجارم ٠ ومن البنات

أنجب بنتين احداهما لا تزال حية ، واسمها «سلافة» وهى أكبر من شريفة التى توفيت من قبل بعد أن تزوجت بتاجر رشيدى .

وأخيرا تزوج الثالثة ، وأنجب منها عبد الحكيم الجارم ، فابراهيم الجارم فمحمد عبد المنعم الجارم ، وبنتا تزوجت تاجرا برشيد .

والشاعر ثمرة ناضجة لالتقاء عنصرين بعيدين ، عنصر العلماء الذى يتميز بالطيبة والمحافظة والاعتزاز بالنفس نتيجة لنظرة العامة، وعنصر التجار الذى يتميز بالحرص واليقظة وخفة الروح والمساومة من أجل الربح ، والطفل يحمل بعض الجينات التى كانت لأجداده لأبيه وبعض الجينات التى كانت لأجداده لأمه ، فمن ناحية الوراثة يعتبر الطفل ثمرة لا لأبويه فحسب بل ولسلسلة طويلة متصلة من الأسلاف أيضا . وحياته فيما بعد .

نشأته وتربيته :

نشأ كما ينشأ كثير من أبناء جيله فاختلف الى الكتاتيب حتى سن الحادية عشرة ، وكان ينتقل مع والده ، الا أن لرشيد انطباعات خاصة ظهر أثرها فى شعره ، فلقد نشأ فى ظل نخيلها ، ودرج أول ما درج على أرضها ، ولعب مع صبيانها ، ورتع على ضفاف النيل وبين الخمائل ، وفوق الرمال ، ولها كما تلهو الطيور ، وغرد كما تغرد :

صحبت فيها شبابى فما ذممت الصحابا
سقيا لملعب أنس شاب الزمان وشابا
ان يجر فى الوهم يوما جرت دموعى اكتئابا

لم يعرف فى رشيد للهموم معنى ، ولا ارتكب فيها اثما ، وانما كانت حياته تمثل السعادة الساذجة ، سعادة الصبى بصباه ، والشباب بشبابه ، فهو دائم التحنان اليها كثير التحدث عنها :

أرشيد يابلدى وياملهى الصبا ... بينى وبين مدى الصبا أعوام
أيام لى فى كل سرح نغمة ... وبكل ركن وقفة ولمام
أيام لا أمسى يجر وراءه ... أسفا ولا يومى على جهام
ألهو كما تلهو الطيور حديثها ... شدو ورف جناحها أنغام
متنقلات بين أزهار الربى ... الجو متن ، والنسيم زمام
ومطالبى لم تعد مدة ساعدى ... بعدا فما استعصى على مرام

ثم انها فوق ذلك بلد الأهل والأخوال والأعمام والأصهار ، والحب :

أرشيد فيك لبانتى وصبابتى ... والصهر والأخوال والأعمام

ولعل لجمال الطبيعة فى رشيد أثرا فى هذه الانطباعات ، فالنيل والنخيل والرمال وعذارى رشيد اللائى يبكرن الى النيل لغسل ثيابهن ، وملء جرارهن وقد انتثرن على شاطئه فى ثيابهن الزاهية الألوان كأنهن عقد قد اختلفت حباته حول جيد الحسناء ، وقد زاد جمال الصبح فى جمالهن ، وأمن نظرات العيون فكشفن عن سوق خدال ، ومعاصم رخصة صافية البياض ، ولولا ما يحبسها من حجول وأساور لسالت فى الماء كما يسيل الماء .

لعل لكل ذلك أثره فى تعميق انطباعاته عن رشيد .

ولعل بعض ذكريات الشقاوة التى تركت أثرها فى نفسه أثر تعميق هذه الانطباعات أيضا ، فلقد صعد مرة الى أعلى نخلة فى رشيد فرآه الناس. فذهبوا الى أبيه وأخبروه ، ولما حضر خاف عليه ولم يزعجه ، ولما نزل أعطى له علقة ساخنة . وصعد مرة أخرى

لانزال البلح ومعه سكين حادة طعن بها « السباطة » فأصابته فى أصبعه ، ولما كان أثر « العلقة » الماضية لا يزال يرن فى أذنيه أخفى الأمر عن والده وضمد جرحه بخرقة بالية حتى تلوث وتعفن ، وتقوس وذهب به أبوه الى الدكتور ولكن بعد فوات الأوان .

ثقافته :

فى الأزهر :

ثم انتقل الى القاهرة بعد الحادية عشرة مع شقيقة الشيخ محمد نعمان الجارم والتحقا بالأزهر ، وسكنا فى درب السلحدار بحى الأزهر فى غرفة بسطح أحد المنازل ، وكان من زملائه الدكتور طه حسين ، والأستاذ أحمد أمين ، ومن أساتذته الشيخ محمد عبده الذى مدحه بقصيدة تقليدية على عادة طلاب الأزهر فى مدح الشيخ، والشيخ سيد بن على المرصفى .

وكان الشيخ محمد عبده « يقرأ فى الأزهر أو ملحقاته درسا فى المنطق والفلسفة والتوحيد ، كما كان يقرأ على تلاميذه دروسا فى البلاغة » لاعلى نمط البلاغة التى أفسدتها الفلسفة بل على النمط الذى يربى الذوق ، ويرقى الأسلوب ولقد قرأ كتابى دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ، وكان هو السبب فى نشرهما فقدم بهما معنى للبلاغة لم يكن مفهوما للناس من قبل .

(ب) فى دار العلوم :

ومن الأزهر التحق بدار العلوم فى سنة ١٩٠٢ ودار العلوم كانت نواة لفكرة الدراسة الجامعية ، ومن اسمها نستطيع أن ندرك منهج الدراسة فيها ، فهى دار العلوم التى تضم بين أرجائها

العلوم المتعددة من دينية ولغوية وأدبية ومدنيـــة ، بالاضافة الى الاساتذة الاكفاء الذين يتميزون على أساتذة الازهر فى ذلك الوقت، والذين حاولوا مخلصين أن يوقظوا العربية من رقدتها بعد أن نامت مع أهل الكهف مئين من السنين :

رب شيخ أفنى سواد الليالى ساهد العين جـاهدا غير وانى
من بحوث الى كتابة نقـــد ثم من معجـــم الى ديـوان

ثم انها موئل العربية ففيها تحيا وفى غيرها تموت كما كان يقول الشيخ محمد عبده :

هى فى مصر كعبة بعث الشر ق اليهـــا طوائف الركبـان
قد أعادت عهد الاعاريب فى مصـ ـر الى ناعم من العيش هـــانى
وأظلت بنت الفدافد والبيـ ـــد بأفياء دوحها الفينان
درجت بين فتية وشـــيوخ كلهم ينتمى الى ســـحبان
وأطلت من الخبــــاء عليهم فسبتهم بســـحرها الفتـان
فتنوا بالعذيب والسفح والجز ع ووادى العقيق والصـــمان

وفى دار العـــلوم يصـاب الجارم بعقدة الأزهر ، فكثـــيرا ما كانت تصيبه الغصص والآلام حينما يذكر معهـــده العتيق ، وماضيه القريب ، لأنه كان يجد فى دار العلوم خيرة طلاب الازهر الذين يميلون الى الادب ويتذوقونه فى الوقت الذى كان يسخر فيه الازهريون من حلقة سيد بن على المرصفى فى الازهر .

لقد هام الجارم حبا بمعهـــده الجديد ، فأســـاتذة الدار ، والبيئة الجديدة ، والكتب والطلاب ، والقسم الداخلى وما فيه من عناية شاملة ، والمطعم غذاء المعدة ، والمكتبة غذاء العقول ، وهـــذه

الرفقة الطيبة من الزملاء الذين يميلون الى المرح الحلو البرىء ..

في حديث أحلى من الأمل الحلـ ـو وأصفى ديباجة من شراب
كل فصل كأنه صفحة الرو ض وعند العقار فصل الخطاب
ومجون يحوطه الادب الجم فما راعه اللسان بعاب
يتغنون بالنواسي حينا وبشعر الفتى أبى الخطاب
كلما هزت المدام يديهم قهقهت ثلة من الأكواب

كل ذلك جعله يهيم حبا بمعهده الجديد .

ولقد ترك الجارم حبله على هواه فاستمتع مع زملائه الطلاب في غير تبذل ولا استهتار :

ان دعانا الهوى لغير سديد سددتنا كرائم الأحساب

فهو تارة يقود جحفلا من الطلاب ليثب ويلعب ، وتارة أخرى يحمل الكتب وللآمال في صدره نتيج العباب ، لا يرهب في الدار شيئا غير امتحان يوم الحساب .

فكأنى أرى الزمان وقد دا ر وعاد الصبا نضير الاهاب
وأرى الجارم الفتى يقود الحشد في جحفل من الطلاب
واثبا لاهيا لعوبا ضحوكا غير ما واجل ولا هياب
فهو كالطائر الطليق فحينا في وهاد ومرة في هضاب
عابث بالغصون في ظل روض حاك أفوافه ملث الرباب
يحمل الكتب في الصباح وللآ مال في صدره نتيج العباب
رأسه رأس ماله وامتلاء الرأ س خير من امتلاء الوطاب
كل يوم في الامتحانات هين خطبه غير خطب يوم الحساب

ولقد كان لتقدير أساتذته لعلمه وأدبه أثر فى نمـــو شخصيته العلمية ، يحدثنا الأستاذ أحمد العوامرى أستاذه وزميله فى المجمع اللغوى عن الجارم فى دار العلوم فيقول :

كان على الجارم زعيم الفصل علما وذكاء ولســنا حاضر البديهة ، قوى المنطق حتى لقد كنت أعهد اليه أحيانا وأنا مطمئن النفس فى أن يلقى بعض دروسى وأنا حاضر بعد أن أكون قد دفعتها اليه من قبل مذكرات مكتوبة على عجل ، فكان يعدها اعداد الفطن ، ويلقيها القاء من درب بالتدريس ..

... وبهرنى من الجارم أول ما بهرنى شـــباب رائع كأتم ما يكون الشباب بهاء وروعة ثم حيوية فائقة يزينها مرح ، ودعابة هذبتها طبيعة سليمة ، حتى لقد كان يبعث فى مجلســـه ، وبين اقرانه ، بل فى الدرس نفسه من فكاهات ، ومداعبات ما يجلو عن النفس صدأ الملل ، وغريب أن يلازمه هذا المرح طول عمره ... وغريب أيضا أن المرض نفسه لم ينـــل من تلك الروح المتفائلة المستبشرة .

وظفر بالشهادة من دار العلوم فى سنة ١٩٠٨ وكان أول دفعته ، وفى نفس العام وقع الاختيار عليه ليكون عضـــوا فى بعثة علمية الى انجلترا ليدرس هناك التربية وعلم النفس .

(ج) فى البعثة :

وكان معه فى البعثة الاستاذ حســـن فايق وكيل وزارة المعارف السابق ، والأستاذ المرحوم محمد أمين لطفى الوكيل المساعد السابق بوزارة المعارف أيضا الذى توفى ســـنة ١٩٣٦ ورثـاه الجارم ، والمرحوم محمود فهمى النقراشى الذى ظفر من الجارم بآخر قصيدة رثاء له ألقيت والشاعر يموت فكأنه كان يرثى بهـــا نفســـه :

تلفت الناس للأبيات ينشرها وفوجىء الناس بالأبيات تطويه

والاستاذ محمد توفيق دياب الذى كان يدرس فن الالقاء ·

وكانت دراسة الجارم فى جامعة « نوتنجهام » بانجلترا حيث كان يسكن فى ضاحية قريبة يقطع المسافة بينها وبين الجامعة على « عجلة حديدية » ·

واشتهر عنه اجادته لفن الالقاء ، دعته سيدة انجليزية صاحبة مسرح ليؤدى بعض الادوار التمثيلية من مسرحيات شكسبير فلبى الدعوة ، واعتلى خشبة المسرح وأدى ما عهد اليه خير أداء أثار اعجاب المشاهدين ·

ثم عاد الى مصر بعد أن ظفر بدبلوم فى التربية وعلم النفس من كلية اكستر الجامعية فى سنة ١٩١٢ أى فى العام الذى عاد فيه الشاعر شكرى من انجلترا ·

وفتن الشاعر ببلاد الانجليز وما فيها من جمال وهدوء · وعلى الرغم من أن ذكرياته عنها غائمة نظرا لطبيعة الجو ، فكثرة الغيوم واحتجاب الشمس كان لها أثر فى هذه الضبابية التى حجبت ذكرياته عن هذه البلاد ، إلا أننا قد عثرنا له على ما يوضح لنا شيئا من هذه البيئة التى عاش فيها مدى أربع سنوات ·

لقد كان همه الأول تحقيق ما بعث من أجله الى الجامعة ، وكان هو وزميله المرحوم أمين لطفى مثالين للمثابرة والدأب والشغف بالعلم أو الفن ، مع روح مرحة وطموح ، ونشوة شباب :

يغالبنى شوق الى الفن رائع ويجذبه ميل الى العلم أروع
نروح ونغدو لاهين ولم نكن نخاف رزايا الدهر أو نتوقع

ونضحك للدنيا اللعوب وزورها ونمرح فى زهو الشباب ونرتع
وكنا نرى الأيام أحلام نائم فأيقظنا منها الأليم المروع

وانه ليقص علينا قصة ذهابه الى الجامعة ، والشمس غائمة ، والضباب كثيف ، والمصابيح تشبه سيوف بشار تلك التى كانت تلمع فى ظلمة النقع ، والثلج يتناثر فوق رأسه ورأس زميله فنراه ينقلنا الى جو الانجليز فى بلادهم بشىء من الخفة والعطف ·

أتذكر اذ نمشى الدرس بكرة
« بنوتنجهام » تستحث فأسرع

وقد حجب الشمس الضباب كأنما
تلا الليل ليل عاكر اللون أسفع

بلاد كأن الشمس ماتت بأفقها
فظلت عليها أعين السحب تدمع

كأن المصابيح الخوافق حولنا
سيوف وغى فى ظلمة الليل تلمع

كما يقص علينا بعض ذكرياته فى لندن ، فنرى الجارم الظريف يلتقط من الشارع صورة طريفة ، صورة الأعمى الذى يهدى المبصرين لأنه يعرف طريقه دائما ، أما هؤلاء فنظرا الى كثرة الضباب ، وتكاثفه قد ضلوا الطريق ·

أبصرت أعمى فى الضباب بلندن
يمشى فلا يشكو ولا يتأوه

فأتاه يسأله الهداية مبصر
حيران يخبط فى الظلام ويعمه

فاقتاده الأعمى فسار وراءه
أنى توجه خطـوة يتـوجه

وهنا بدا القـدر المعربد ضـاحكا
ومضى الضـــباب وما يزال يقهقه

وهذه الصورة وان كنا نلحظ فيها أثر الصنعة نظرا لما قرأناه عن بشار هذا الذى أتى مبصر يسأله عن منزل فلان فوصفه له فضل طريقه ، ولماعاد أخذه بشار الأعمى من يده وهو يقول بصوته الأجش:

أعمى يقـــود بصيرا لا أبالكم
قد ضل من كانت العميان تهديه

الا اننا نلحظ فيها ظرف الجـــارم وخفة روحه حيث يقول : ومضى الضباب وما يزال يقهقه ..

أما يـوم الخميس ذلك اليـوم العبوس فى سنة ١٩٠٩ فلقد اشتد فيه البرد ، وتحاربت فيه الرياح ، وخافت الشمس فاستترت بالتروس واتجه هو الى بيته فجلس أمام النـــار كأنه مجوسى يؤيد معتقد المجوس .

والطريف هنا ربطه معارك الرياح بمعارك البسوس ، وذكره للتروس فى انجلترا وفى مطلع القرن العشرين مع ان تروس الحرب قد انتهت ولكنه الجارم الذى يشبه ذاك الذى تغزل بعيون المها فى باريس :

ويلاه من يـوم الخميـــس فانه يـوم عبوس
فيه تحـــاربت الريا .. ح فلا تقـــل حرب البسوس
خافت غوائله الغـــزا لة فالغمام لهـــا تروس

يـــوم أحطنا باللظى فيه ، ونكســـنا الرءوس
فكأننا قمنـــا نؤيـــد فيه معتقد المجوس ٠

وعلى الرغم من هذا الجو البارد المظلم فى انجلترا فان الشاعر قد أعجب ببلاد الانجليز الى غير حد ، أعجب بحدائقها ، وخضرتها ، وبدائع الحسن فيها الى درجة تمنى معها أن تكون طينته من طينتها٠

أرض كأن اله الارض أودعهـا بدائع الحسن من عون وأبكار
القوا خدود العذارى فى حدائقها ولقبوها بأثمـــار وأزهار
وجردوا كل حسن من قـلائده فصرن حصباء فى سلسالها الجارى
لو كان فى عنصرى صلصال طينتها ماراعنى الدهر فى يوم بأكدار
أو كنت أظفر فى الاخرى بجنتها غسلت بالدمع آثامى وأوزارى

على الرغم من تكبر الانجليز وغطرستهم على طلاب المستعمرات، وبالرغم من التفرقة العنصرية التى لاقى منها الشاعر على ما أعتقد ، فلقد لوحته شمس النيل قبـل ذهابه بالطبع ، وكثيرا ما كان يثور طلابنا على هذه المعاملة(١) ٠

الا ان الظاهر أن بعض العـــلاقات الطيبة استطاعت أن توطد أواصرها فتربط الشاعر ببعض الشخصيات الانجليزية وتستولى على اعجابه ، وبخاصة حينما ندرك أن للانجليز فى بلادهم طباعا سامية تدعو الى التقدير والاعجاب ، والا فما باله يحدثنا عن هؤلاء الناس حديث الاعجاب والتقدير ٠

ينسى بهـا كل نائى الدار موطنه
وما تجشم من بين واســفار

---

(١) عمر الدسوقى : الرسالة العدد ٢٨٩ ـ غريب من ذكريات لنـــدن ١٦ يناير سنة ١٩٣٩ ٠

يلقى بهـــا اينما القى عصاه بها
أهلا بأهل أصهـــارا بأصـــهار

ثم ما باله يصـــف فتيان الانجليز بما كان يصف به العرب الأوائل فتيانهم الشجعان المغاوير :

وفتية كرماح الخـــط ان خطروا
فديت بالنفس منهم كل خطـــار

بيض الوجوه مســاميح الاكف منا
جيـــد الصريخ سراة غـــير أغرار

لا ينزل الضيف صبحا عقر دارهم
الا ويمسى عشـــاء صاحب الدار

هذا بالاضافة الى ارتيـــاح نفسية الشـــاعر فى بلاد الانجليز وبخـــاصة حينما ندرك انه تربى فى الازهر ودار العـــلوم وكلاهما محافظ ٠٠ أما فى البعثة فقد انتقل بعيدا حيث وجد قوما غير القوم، وفهما يختلف عن الفهم ، واندمج فى الجو الجـــديد ، فلبس القبعة بعد العمامة :

لبســـت الآن قبعـــة بعيدا عن الاوطان معتـــاد الشجون
فان هى غـــيرت شـــكلى فانى متى أضـــع العمامة تعرفونى

واعتلى خشبة المسرح ، وكانت ديار الغرب بالنسبة له :

كانت مجال صبابات لهوت بها ومستراض لبانات وأوطار

كما كانت ديار حبيبة اخلصت له ، فبنى معها انعش، وتعرض من أجلها للحسد ، وظن انه سيعيش معها ، ولكن كف الزمان كانت أقوى ، فرمت بالعش ، فكأن العش لم يكن :

قد بنينا العش من مهج غسلت من حوبة الدرن
من لدنه الود اخلصه والوفا والطهر من لدنى
كانت الاطيار تحسده جنة المأوى وتحسدنى
وظننا أن نعيش به عيشة المستعصم الأمن
فرمت كف الزمان به فكأن العش لم يكن ٠٠

بعد البعثة :

(أ) فى الوظيفة :

يعود الى أرض الوطن فيعمل فى ميدان التدريس ، يقوم بتدريس اللغة العربية في مدرستين فى وقت واحد ، مدرسة التجارة بالظاهر ومدرسة الزراعة بمشتهر ثم ينتقل سريعا الى التدريس بدار العلوم فى سنة ١٩١٤ ، ثم يعود الى وزارة المعارف فى سنة ١٩١٧ فيعمل مفتشاً للغة العربية حيث يجعل من نفسه نموذجا ممتازا للمفتش » فهو أول من نبه المعلمين على المراجعة والبحث فى دواوين اللغة ، ومعجماتها وكانت مهملة منسية ، وكان السجع ومحسنات البديع لا تزال تجد سبيلها الى كراسات التلاميذ فنهض ـ رحمه الله ـ باللغة نهضة قوية بما أسداه للمعلمين من ارشاد موقنا أن ذلك هو مبدأ الاصلاح ، وأن المدارس هى الحقل الاول بعد المنزل الصالح لاستنبات اللغة الصحيحة التى لا تقوم حضارة الا عليها ٠ وهو أول من خطا خطوات سليمة وجادة فى تبسيط قواعد اللغة العربية وتقريبها الى أذهان التلاميذ بتأليفه هو والاستاذ مصطفى أمين كتاب النحو الواضح ٠ وقد كان بأيدى الطلاب حينذاك (كتاب قواعد اللغة العربية) الذى ألفه حفنى ناصف مع آخرين ، وهو كتاب جيد التأليف ، ولكنه مجمل ، فى حاجة شديدة الى تفصيل وتبسيط ، والى أمثلة مما يسيغه التلميذ ، ويدخل فى معلوماته وتجاربه ثم

خطا فى مجال التذوق الادبى خطوات أخرى موفقة فى تأليفه للبلاغة الواضحة ٠

وبهذا المجهود أرتقى على الجارم الى مفتش أول للغة العربية وكان يشاركه فى هذا المنصب محمد أحمد جاد المولى ، وكانت هذه هى المرة الاولى التى يعين فيها مفتشان أولان للغة العربية ٠ ويعلل الجارم لذلك بأن رجال وزارة المعارف قدموا جاد المولى لاقدميته ورشحوا على الجارم لعلمه ، وكاد يكون اشكال انتهى بتعيين الاثنين ٠

ومن وظيفة مفتش أول للغة العربية انتقل الى عميد دار العلوم بالنيابة نظرا لمرض العميد المرحوم الحسينى مصطفى ، ثم أصبح عميدا للدار الى أن أحيل الى المعاش فى سنة ١٩٤٢ ٠

وفى دار العلوم يعود الطائر الى عشه ، فيأنس اليه ، وتهدأ نفسه ٠ ومن يوميات الدكتور عبد الرحمن أيوب الطالب فى ذلك الحين نراه يقول : مما يلتصق بذاكرتى بكل وضوح ليلة قمرية ، انطلقت فيها صفارة الانذار ٠ اطفأنا أنوار القسم الداخلى ، ونزلنا جميعا أمام المخبأ الذى تحول بعد الحرب الى حديقة تزين صدر الدار ، وخرج العميد المرحوم الاستاذ على الجارم من مخبئه الذى يعج بالكتب الى مخبأ آخر يعج بالطلاب ، وكان الرجل حلو الحديث، كنت أستمع اليه يتحدث عن كل شىء بنفس الشغف واللهفة ، وكان يسرد فى ذكرياته التى طافت به من جبال لبنان الى قاعات المجمع اللغوى وما بها من اضابير ، ويبدو ان كباب لبنان أو «كبيبته» قد ترك فى نفسه رحمه الله أثرا لاينسى ، والشاعر اذا انفعل استرسل، فاذا كان من طراز الجارم اطرى وامتدح وبالغ بما يعيد الى ذاكرتك العصر العباسى الزاهر ــ وقد كان ــ فاسترسل الجارم فى أبيات مرتجلة ــ امتزج فيها طابع الشعر الرصين بلذعات عامية القاهرة ، ونفحات كباب لبنان ٠

واعتقد اننى لست فى حاجة الى ابراز خفة روح الرجل ، ولا كيفية معاملته لأبنائه الطلاب فهى بارزة فى هذه اليوميات ٠

(ب) فى المجمع اللغوى :

يقول العقاد فى رثائه للجارم

علم فى الديار صناجة فى الحفل ركن فى المجمع اللغوى

ولقد كان كذلك ، فهو فى الصف الأول من الذين اختيروا لعضوية المجمع ، وتحقيق رسالته ، وهنا تجلت موهبته ومقدرته ، واشترك فى أكثر الاعمال به ٠

وتمثل سيرته كتابا مبسوطا من تاريخ المجمع لا نستطيع الا الاشارة لبعض عناوينه وفصوله :

كان من أعماله أن اشترك فى لجنة الاصول فأعد أبحاثا واسعة قيمة فى النحو والصرف واللغة والاملاء والخط ٠

بحث فى الترادف ، وفى التضمين ، وفى الاشتقاق والتعريب، وفى المطاوعة ، وفى نحت اسم الآلة مطردا ، وفى جمع التكسير واستدل لحقنا فى استكمال مادة لغوية ذكرت ولم تستكمل فى المعجمات ٠

وشارك فى رسم الطريق العلمى لاخراج المعجم الوسيط ، وساهم فى عمله وأشرف عليه الى نهاية مراحله ، وبحثه فى اصلاح الخط مشروع كامل مفصل الدليل ٠

وكذلك بحثه فى اصلاح الاملاء يكاد يكون علما مجموع الاطراف ، ويظهر من أسلوب بحثه انه يرمى الى تطويع اللغة وتوسيعها فى حدود قواعدها ونظمها ، وبما ينبغى من الحيطة والتحفظ لقوم يعملون فى لغة ليست من سابقتهم ٠

وحينما وضع عضو المجمع عبد العزيز فهمى مشروعا لاصلاح الحروف العربية يتضمن استبدال الحروف اللاتينية بهـا ، تصدى له الجارم وعارض مقترحه بمقترح آخر فى التيسير كانت له فيه دراسة سابقة ، وقد أبقى فيه على الحروف العربية كما هى ، وعلى ما لها من اتصال وانفصال فى الكتابة ، الا انه أضاف اليها علامات متصلة بها تقوم مقام الشكل ، وهى طريقة سهلة المتناول ، قريبة المأخذ ، لا تبعد كثيرا عن الكتابة الحاضرة .

وفى أخريات أيامه اشـــتغل « كاتب سر للجنـة الالفـاظ والاساليب» سنة ١٩٤٨ ، أما الرئيس فكان الاســتاذ أحمد أمين ، ولقد حددت اللجنة أغراضها بما يرد بالصحف والمؤلفات الحديثة ، وما يجرى على ألسنة المثقفين من ألفاظ وأساليب لمعرفة الصحيح من غيره ، وتعديل ما ليس بصحيح ووضع صـحيح بدلا مما لا يمكن تعديله ، على أن تعرض ما تنتهى اليه على مجلس المجمع ، ثم تذاع قراراته فيها بعد ذلك على الجمهور فى الصحف .

ومن أطرف البحوث التى ألقـاها الجـارم فى أيامه الاخيرة بالمجمع بحث عنوانه (الجملة الفعلية أساس التعبير) وقد استظهر فيما استظهر ان ميل العرب الى البداءة بالفعل انما كان لما يكتنفهم من التوجس ، والمفاجآت والمخاوف فكانوا يندفعون لذلك الى ذكر الحدث قبل من وقع منه الحدث .

ولقد كان يعارض دراسة اللهجات العامية لأنهـا تنافس عمل المجمع « فعمل المجمـع انمــا هو تثبيت الفصحى ، فان قام بتلك الدراسة فانه يعطى العامية بذلك اعتبارا فى أعين الناس يعرضون به عما نعلمهم من الفصيح .

قـد يكون بحث اللهجات مفيدا لأولئـك الغربيين المستعمرين الذين ينزلون بالبلاد العربية المختلفة ذات اللهجات المختلفة ليشتغلوا

بالتجارة ، أو ليسعوا بالفتنة ، أما اشتغالنا نحن بهذا العمل فحرام حرام ٠

أسفاره :

كانت الدولة تنظر اليه نظرة التقدير والاحترام وبخاصة بعد وفاة شوقي وحافظ ، وخلو الميدان من شاعر فحل من نفس المدرسة التي كان ينتمي اليها الفقيدان ، ومن ثم فاننا نرى الجارم الشاعر ينتدب في كثير من المؤتمرات العربية فيسافر الى أغلب العواصم العربية ٠

سافر الى بغداد أربع مرات : في رثاء الزهاوي في فبراير سنة ١٩٣٧ ٠ وفي افتتاح المؤتمر الطبي العربي سنة ١٩٣٨ ، وفي تأبين الملك غازي سنة ١٩٣٩ كما أسهم في الصلح بين قبيلتي شمر والعبيد في نفس العام ٠

وسافر الى لبنان أكثر من مرة ، في سنة ١٩٤٣ وفي افتتاح المؤتمر الطبي ببيروت سنة ١٩٤٤ ، ومؤتمر الثقافة ببيروت سنة ١٩٤٧ ٠

وسافر الى السودان كثيرا للاشراف على امتحانات المدارس المصرية ولقد كان له جمهور ، ومعجبون ، ومعارضون لشعره ، وعلى رأسهم الشاعر السوداني السيد / أحمد محمد صالح عضو مجلس السيادة السوداني السابق ، ومن أشهر زياراته للسودان زيارته الاولى سنة ١٩٣٧ وزيارته في سنة ١٩٤١

حياته العامة :

في الفيوم توطدت أواصر الصداقة بين « الشيخ محمد صالح الجارم » القاضي الشرعي والاستاذ « محمود خيرت » المحامي المدني ،

والفنان الموسـيقار مترجم الروايات التى صاغها بأسلوبه الناعم الرشيق مصطفى لطفى المنفلوطى ، والى هذا الفنان ينسب شارع خيرت بالسيدة زينب ، وكانت زوجته يونانية ويظهر أن لالتقاء الدماء العربية بالدماء اليونانية أثرا لا ينكر فى خلق الفنان الاصيل ، وقد كان معظم أنجال الاستاذ محمود خيرت فنانين بالمعنى العميق لمفهوم الفن · فمنهم الدكتور « عمر خيرت » الاستاذ بجـامعة الاسكندرية والفنان المصور ، والمهندس أبو بكر خيرت الفنان الموسيقار المشهور، وعميد معهد « الكونسيرفاتوار السابق ، ومنهم الاستاذ على خيرت ، وعثمان خيرت ، وكان منزل خيرت بالسيدة زينب منتدى لأهل الفن يلتقى فيه الشعراء بالموسيقيين بالمطربين ، وكان الجـارم من رواد هذا المنتدى الدائمين الى درجة انه استأجر مسكنه الاول بعد عودته من البعثة فى ٣٠ شارع خيرت ، وكانت له مـع أسرة الفنان الكبير زيارات عائلية بعد ذلك ·

ولقد اتصل أيضا بشوقى أمير الشعراء ، وحافظ ابراهيم ، وكان يحرص أشد الحرص على زيارة شوقى ، والى الجلوس معه فى كرمة ابن هانى الى درجة انه كان يمشى من مسكنه بالسلحدار الى منزل شوقى بالجيزة أيام ان كان طالبا بالازهر · ولقـد لمس فيه شوقى حسن الالقاء ·

يقول الاستاذ توفيق الحكيم :

ذكر لى المرحوم «خليل مطران» حادثة فى هذا الصدد · قال : كنت مدعوا لالقاء قصيدة فى حفل بأحد مسارح «القاهرة» وكان معى حافظ ابراهيم وقد أعد هو الآخر قصيدة لتلقى ، كما دفع شـوقى بقصيدة له هو أيضا لتلقى فى الحفل ، فألقيت قصيدة شوقى على الجمهور المحتشد فى المسرح فقوبلت بالاستحسان المصطنع ثم نهض حافظ وألقى قصيدته فصفق له الناس مجاملين·· ثم نهضت وألقيت قصيدتى فصفق لى الناس فاترين واذا شـــاب ينهض ملقيا قصيدة

ذات عبارات حماسية ، وجمل طنانة بصـــوت مجلجل ، ونبرات مؤثرة ، واذا المسرح يهتز اهتزازا بتصفيق الناس والهتاف يتصاعد كالرعد من الحناجر · فمال حافظ ابراهيم على أذنى يبثنى امتعاضه وسخطه فهمست له قائلا : انتظر الى الغد حين تنشر القصائد فى الصحف ، وكان ونشرت فى الغد القصائد ·· وقرأ الناس على مهل تلك المعانى الرائعة والصور البارعة ، والافكار العـالية ، والبلاغة السامية فى شعر شوقى وحافظ ·

وقد استغل فيه شوقى هذه الموهبة فعهد اليه بالقاء قصائده ، ففى سنة ١٩٢٢ أقيم احتفال لرثاء « اسماعيل صبرى » فى مبنى دار المعلمين العليا بالمنيرة فأرسل اليه شوقى وقال له : أريد القاء قصيدتى ، فاعتذر الجارم لان له قصيدة ستلقى فى الحفل ، فماكان من شوقى الا ان قال : تلقى القصـــيدتين معـــا ·· وكان ترتيب القصائد على هذا الأساس ، شوقى بالقاء الجارم ، فحافظ فالجارم ·

ولقد استقبل الجمهـور قصيدة الجـــارم استقبالا حافلا ، واستعادوا أبياتها وكان أغلب الحاضرين معممين فتضايق حافظ وقال له : « يا واد يا على أنت جايب لى غيط قطن يصفق لك » ·

وقد كان له معجبون · فوجىء مرة بزيارة «طلعت حرب» له فى مسكنه بالسلحدار ، ففرش له « ملاية » على « الدكة » وأجلسه عليها وكانت هذه الزيارة بداية الصلة ·

هذا هو المحيط الذى كان يضطرب فيه الجارم الى جانب عمله الرسمى وصلاته الشخصية برجال الحـــكم فى مصر ، واتصالاته العائلية مع أفراد أسرته وأسرة اصهاره آل بدر الدين برشيد ·

علاقته برجال الحكم والقصر وغيرهما :

كان يكره السياسة ولا يحسنها ، وكان ذلك عن اقتناع لأنه

كان فقيرا ، ولم يكن عنده ايراد خارجي يكفيه عندما تجر عليه السياسة ويلاتها فيفقد وظيفته مثلا ٠

لم يشترك فى حزب من الاحزاب ، ولم يتصل بزعيم مؤيدا أو معارضا ، طلب منه أن ينضم الى حزب الوفد فأبى ، واتصل به مكرم عبيد لينضم الى حزب الكتلة فامتنع ، ولم يجبه حتى الى قصيدة ٠

مدح النحاس ثم انحرف النحاس فى نظره فأرسل الى عامل المطبعة وأحضر القصيدة وأعدمها ٠

أما علاقاته برجال القصر فكانت مبنية على اكتساب الوجاهة والظفر برتبة شأنه فى ذلك شأن الجيل الصاعد الطموح من أقرانه ، وكانت المدائح الملكية وشائج القربى والصلة بينه وبين رجال القصر ، فلقد كانوا يطلبون منه ذلك ، وأحيانا كانوا يأمرون ٠

أما الملك فكان لا يتذوق الشعر ، ولا يثيب عليه ، ولقد وقف الجارم موقفا حازما حينما طلب منه رجال القصر قصيدة فى مدح الملكين فاروق وعبد العزيز آل سعود حين زيارة الاخير لمصر سنة ١٩٤٧ فاعتذر ٠

أما علاقاته بغير هاتين الجهتين فكانت تدور مع أصدقائه وزملائه واترابه كما بينا ٠

مكانته الاجتماعية :

ولقد تمتع الرجل فى حياته بمكانة يحسده عليها الكثيرون ، وطن اسمه فى كثير من الآذان وبخاصة فى ميدان التربية والتعليم ، فى البلاغة الواضحة ، والنحو الواضح ، وفى المجمع اللغوى ودار العلوم ويرجع كل ذلك الى اخلاص الرجل ، وتفانيه فى عمله ، وحبه لقومه ولغته ٠

أما شعره فكان له محبـــوه والمعجبون به من أنصار المدرسة العربية الخالصة وبخـــاصة الدرعميين والازهريين ، كما كان له ناقدوه ، ومهاجموه ، وبخاصة أنصار المدرسة المجــددة فى الشعر الحديث ٠

وظل الرجل يتمتع بتقدير واحترام كعالم وشاعر وانسان ذى علاقات اجتماعية اضفت عليه كثيرا من الهيبة والتقدير الى ان وافاه الأجل المحتوم ٠

أخلاقه :

فى بيته :

كان مثالا لرب الاسرة المرح العطوف ، وكان يستخدم معرفته لعلم النفس والتربية فى تنشئة أبنائه ، فكان يترك كلا منهم ليكتسب خبرته من تجاربه الخاصة حتى يكون أشد اقتناعا بالطريقة التى سيسير عليها فى حياته ، وكان يعتمد أحيانا على الايحـــاء ، وكان يرى « أن من أنجح وســـائل الايحاء اليهم (الى الاطفال) الا يدور بخلدهم ان ما يوجه اليهم انما صنع قصدا للاحتيال لارشادهم ٠

أعطى لابنه بدر الدين بقايا سيجارة ليلقيها بعد اطفائها فى القمامة ، فاختفى الطفل وجذب منها نفسا عميقا كاد يخنقه، وانتابته نوبة سعال حادة ، وأبوه فى الحجرة المجاورة يسمع ولا يتحرك ، ولما خرج الطفل لم يسأله ولم يعاقبه ٠ ومن يومها وبدر الدين يتقزز حتى من رائحة السجائر ٠

كان مرح الروح، سريع النكتة الى درجة تلفت نظر الجالس معه٠

وفى رشيد حينما كانوا يجدون فى دار الجارم حركة وانتعاشا كانوا يقولون : « مال دار الجارم هايصة » ؟ ٠ لازم الشـــيخ على وصل من مصر ٠٠

تجلس اليه فتسمع ما شئت من نادرة أدبية ، أو ملحمة اجتماعية ، أو شاهد من شواهد اللغة ، أو نكتة من نكت الفكاهة ، ولا تدرى كلما تهيأ للكلام ماذا أنت سامع بعد هنيهة .. فقد تترقب النكتة فتسمع الفائدة وقد تسأل عن الشاهد فتسمع «القافية» التى لا تعذر كما يقول أبناء البلد كلما عرضت المناسبة « لقفشة » من «القفشات» لا تهمل فى سياقها ولكنك واثق فى النهاية انك خارج بفصل ممتع من طراز العقد أو الكامل أو نفح الطيب ، وانك لو اخترت الحديث واقترحته لما ظفرت بخير مما استوفيته عفو الخاطر بغير سؤال .

اما نظامه فى بيته فكان يفطر على القهوة واللبن ، ثم يتناول طعام الغداء وينام ، ويشرب القهوة بعد أن يقوم من نومه مع سيجارة ، وكنت لا تستطيع التحدث معه قبل أن يتناول القهوة .

وحينما يؤلف قصيدة يغلق على نفسه باب حجرته بعد أن يرخى الليل سدوله ، ويظل فى الليل ، وقد يطلع عليه الصباح بعد أن تكون أعقاب السجائر لا حصر لها .

وقد ينظم الشعر وهو فى الترام ، وقد ينفعل فيهز رأسه ، ويهز يديه الى درجة تلفت نظر الجالس معه .

ويسجل شعره أحيانا على ظهر علبة السجائر .

شغفه بشبابه وتعلقه به

ويظهر ذلك فى أمرين :

(أ) كثرة بكائه على شبابه المولى

(ب) خوفه من الطبيب .

اما كثرة البكاء فكان رد فعل لذهاب أيام الشباب دون أن يتمتع بها لانه كما يقول فوجىء بتقدم السن • اما الفترة التى يقال عنها فترة الشباب فقد قتلها بالوقار شأنه فى ذلك شأن اقرانه ممن نشأوا هذه النشأة الوقورة :

قد بكيناه حين زال لانا ... قد جهلنا من حقه ما يؤدى
وقتلناه بالوقار ضلالا ... وهو ما جار مرة أو تعدى
ما عليهم ان هام عمرو بهند ... أو شدا بأيام سعدى

والواقع أن الشاعر كما يبدو من شعره وبخاصة فى فترة دار العلوم وفى البعثة قد تمتع بشبابه ، فلم يكن عنده من الغباء الاجتماعى ما يجعله ينطوى على نفسه •

فكأنى أرى الجمال وقد دا ... ر وعاد الصبا نضير الاهاب
وأرى الجارم الفتى يقود الحشـ ... ـد فى جحفل من الطلاب
واثبا لاهيا لعوبا ضحوكا ... غير ما واجل ولا هياب

واعتقد ان تمتعه بشبابه فى حدود نشأته وتربيته هو السر فى بكائه الكثير عليه ، بل ان ذلك هو الدافع له فى ان يصرخ من اعماقه متمنيا ان يعود اليه عهد الشباب •

أما الأمر الثانى وهو خوفه من الطبيب ، فكان مترتبا على أمر آخر وهو الوهم ، وخوفه من ان ينكشف له على يد الطبيب مرض آخر لم يكن يعرف عنه شيئا •

كان يكتب قصة عن شجرة الدر « قتيلة القباقيب » وبعد كتابة نصفها مرض بالملاريا ، فأراد أبناؤه عرضه على الطبيب سنة ١٩٤٣ فلم يوافق ولما عاودته الحمى احضروا له الدكتور «سيد عفت» ثم الدكتور « اذرينو » ولما دخل عليه الطبيب اليونانى تصيب وجهه

عرقا وارتفع ضغطه ، ولكن الطبيب ادرك ذلك فجلس معه يحدثه عن كل شيء ما عدا المرض الى أن هدأ فقاس الضغط فكان طبيعيا وكان ذلك من خوف الطبيب .

وفاته :

وانه ليصيح بالموت ان يمهله لكى يرسل انفاسه فى كتاباته .

أيها الموت : امهل الكاتب المسكين يرسل أنفاسه فى كتابه

آه لو يشترى الزمان قريضى	بسنين تعد لى فى حسابه
ما حياتى ؟ والكون بعد جهاد	لم أزل واقفا على أبوابه
تظمأ النفس فى حياة هى القفـ	ـر فترضى بنهلة من سرابه
انا قلبى من الشباب وجسمى	اثخن الشيب رأسه بحرابه
أمل هذه الحياة فهل يعـ	ـثر بى الموت دون وشك طلابه
كلما رمت لمحة من سناه	هالنى بعده وطول شعابه
ما الذى تبتغى يد الدهر منى .	ودمى لا يزال ملء لعابه

وما يزال الشاعر فى صراع بين ذكريات الشباب ، وقسوة المشيب ، وطعنات الموت لا يجد من يشترى قريضه بالسنين التى يتمناها ، ولا يدلف من الباب الى الداخل ، ولا يصل الى تحقيق غاياته .

وانما يرسل انفاسه الأخيرة فجأة ، وابنه بدر الدين يلقى قصيدة أبيه فى رثاء صديقه محمود فهمى النقراشى فى مساء ٨ فبراير سنة ١٩٤٩ عن ثمان وستين سنة ، يرسلها لا على صفحات الكتاب، وانما يرسلها مع الهواء ، فلا تعود اليه مرة أخرى .

الفصل الثالث

آثاره

١ ـ ديوان شعره :

وديوان الجارم يقع فى أربعة أجزاء ، كل جزء يحتوى على مائة وستين صحيفة فى المتوسط ، ويضم الديوان بأكمله اثنتين وعشرين ومائة قصيدة أكثرها يطول حتى يكاد يصل الى المائة ، وأقلها يقصر حتى لا يتعدى حدود المقطوعة ، وقليل من هذه القصائد يقع بين الاثنين .

وكل جزء من أجزاء الديوان يضم كثيرا من القصائد التى تتناول موضوعات مختلفة ، وأغراضا متعددة .

فنجد المدح ، والرثاء ، والحب ، والفخر الى جانب ذلك الشعر الذى يتحدث فيه عن العروبة ، أو يمجد فيه وزارة المعارف ، ودار العلوم ، والمجمع اللغوى، أو يصف فيه الشريد ، والأعمى، والوباء. الى كثير من هذه الأغراض التى تناولها الشعراء من قبل ، وتعرض لها الجارم فى شعره .

ولقد رتب الجارم قصائد ديوانه ترتيبا خاصا ، فهو يبدأ كل جزء من أجزاء الديوان الثلاثة الأولى بالملكيات .

أما الجزء الأخير فيبدأه بقصيدة « محمد رسول الله ، ثم تتلوها ملكياته .

وبعد هذه الافتتاحية يتناول أغراض شعره المختلفة أى أن الجارم كان يحرص فى ديوانه على هذه الافتتاحية فقط ثم يرتب قصائده بعدها كيفما اتفق ٠

وهو حريص أيضا على أن ينشر قصائده الأولى المقلدة فى كل جزء من أجزاء ديوانه ، فبينما نرى فى الجزء الأول قصائد ومقطوعات قالها فى سنة ١٩٠٠ ، ١٩٠١ فى مدح الأستاذ الأمام أو فى الفخر، اذا بنا نرى فى الجزء الثانى قصيدة عن الوباء ترجع الى سنة ١٨٩٥، وفى الجزء الرابع قصائد ومقطوعات ترجع الى سنة ١٩٠٠ ٠ ومعنى هذا أن الجارم اهتم بكل شعره حتى ما كان منه موغلا فى التقليد ٠

والجزء الرابع يتميز على الأجزاء الأخرى باشتماله على القصائد التى أنشأها فى العشر السنين الأخيرة من حياته ، وان كان قد ند منها بعض قصائد فى المدح أو الرثاء كقصيدته فى ذكرى « ابراهيم باشا » وقصيدته فى رثاء النقراشى وفى مدح النحاس ، لأن هذه القصائد قد أنشئت بعد طبع الجزء الرابع ثم عاجلته منيته ٠

والجارم يهتم بديوانه غاية الاهتمام

فلقد شرح الأجزاء الثلاثة الأولى الأساتذة ابراهيم الابيارى ومحمد شفيق معروف ، وحسنين مخلوف ، ولقد رتب مع هؤلاء الشراح فهارس الأجزاء الثلاثة ترتيبا يدل على العناية والاهتمام ٠

فهذا فهرس للقصائد ، وذاك فهرس يشتمل على أهم موضوعات الديوان مرتبة على حسب حروف الهجاء ٠

أما الفهرسان الآخران فأحدهما للأعلام على حسب الحروف الهجائية ، والآخر للقوافى على حسب الحروف الهجائية وعلى حسب تاريخ النظم ٠

ومن هنا يتبين مدى اهتمام الشاعر بديوانه ، وعنايته بشعره ، ولقد جمع ابنه «بدر الدين» بعد وفاته منتخبات من قصائد الديوان فى ديوان صغير عنوانه (سبحات الخيال) يتمشى على حسب رأيه مع روح العصر ، مع مقدمة للأستاذ « عباس محمود العقاد » وأضاف اليه قصيدة ليست موجودة بالديوان فى مدح الرسول عليه السلام، ثم قصيدة عن فلسطين .

٢ ـ نثره وقصصه :

ومحصوله فيهما كثير ، وأسلوبه فيهما معجب ، والحق أن الجارم قد بلغ الذروة فى النثر الأدبى ، وبخاصة فى ميدان المقال والقصة .

ففى ميدان المقال كان ينشر مقالاته وأبحاثه الأدبية فى مجلة الكتاب ، وله فيها بحثان طريفان أحدهما عن « المعارضات فى الشعر العربى » تحدث فيه عن معارضة السابقين من المجيدين ، ثم عن المعارضات الترسمية ، فمعارضة التحدى ، فالمعارضة لاستجداء المديح ، فالمعارضة الموضوعية ، فمعارضة التراسل ، والمعارضة التشبيهية ، والثانى عن « الذين قتلتهم أشعارهم » منذ طرفة الجاهلى حتى وضاح اليمن العباسى .

وفى ميدان القصة التاريخية نراه يسهم بجهد مشكور ، فهو بغير شك من الرواد الأوائل لهذا الفن الأدبى الجديد ، ولقد تتبع فيها البيئات العربية فى فترات تاريخية معينة ، وبث فيها دفقات من الحياة أعادتها الى الوجود ، فكانت شخصياته التاريخية مرتدية بحق ثوب العصر التى خلقت فيه ، مصورة لما فيه من صراع واضطراب ، وتحليل لخبايا النفس البشرية .

ولقد ظفرت المكتبة العربية من الجارم بثمانى روائع من

قصصه التاريخية نعرضها فيما يلى بايجاز على حسب الترتيب التاريخى فى المشرق ثم فى الأندلس :

(أ) مرح الوليد :

والوليد هو ابن يزيد بن عبد الملك أحد الخلفاء الأمويين فى المشرق ولقد ورث الخلافة عن عمه هشام بن عبد الملك الذى حاول خلعه عن ولاية العهد وتولية ابنه مسلمة ٠

والقصة تحكى لنا عن هذا الوليد وتصور مرحه ، واستهتاره وتكشف الحجب عن نفسه المتناقضة التى لعبت بها الأهواء ، وعبثت بها السياسة ، وانتهت بقتله ، واعتلاء يزيد بن الوليد بن عبد الملك كرسى الخلافة ٠

لقد تتبع الجارم فى قصته عوامل الضعف الكامنة التى أودت بحكم الأمويين فى دمشق ، وبرع فى تصوير الفتنة بخراسان ، كما برع فى تصوير عشق الوليد لسلمى بنت سعيد بن خالد ، وتطليقه لأختها سعدة من أجل أن يظفر بها ، ثم افتن فصور حرمان الوليد منها بموتها بعد أسبوع واحد من البناء بها ، ثم حرمانه هو نفسه من الحياة على يد يزيد بن عنبسة منافسه فى حب سلمى والثائرين ٠

لقد اختار الجارم لتصوير أحداث قصتهفترة اهتزت فيها أعواد حكم بنى أمية فكانت مجالا خصبا لتصوير النفسيات والأحداث، وهو فى هذا شبيه بشوقى فى رواياته التاريخية الشعرية ٠

ان مرح الوليد بالرغم من قصرها ــ اذ أنها لا تزيد على ثلاثين ومائة صفحة من مطبوعات « اقرأ » تسد نقصا فى الرواية التاريخية فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ الأمويين ٠

(ب) الشاعر الطموح :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى الشاعر الذى ملأ سمع الدنيا وشغل الناس ، وشغل الجارم أيضا فأسهم بنصيبه فى ذلك وكتب عنه قصتى « الشاعر الطموح » و « خاتمة المطاف » ·

والجارم حينما يكتب عن شاعر فانما يكتب بأحاسيس وانفعالات صادقة لأنهما كثيرا ما يتلاقيان ، ويتجاذبان أطراف الحـــديث ، ورسولهما الى ذلك الشعر والفن وصفحات التاريخ ·

وقصة الشاعر الطموح تسير مع المتنبى فى حلب ، وتسجل حياته ، وتصور ما كان يحيط به من دسائس ومكائد كما تصـــور بلاط سيف الدولة ، وما حفل به من النقاد والشـــعراء واللغويين ، وما لقى المتنبى من دسائسهم وكيدهم حتى أرغموه على مفارقة حلب كنه الذى وجد فيه الالهام والشعر والتقدير ليفر الى مصر فيقع فى حبائل كافور الذى لعب بمطامحه وأحلامه ، واقتسر منه مدائح خلدته ، كما منى بأهاج جعلته سخرية الزمن ، وأضحوكة الأجيال ·

والجارم يبرع فى تصوير مصر (الفســـــطاط) كما برع فى تصـــوير حلب من قبل فلقد صـــــور طلاب العلم فى جامع عمرو واختلافهم فى شعر المتنبى مع أبى بكر الكندى الذى كان يلقب بسيبويه مع مابه من لوثة وجنون ، وصور مجلس كافور وابن الفرات والمكائد التى كانت تحاك للشاعر الطموح ·

كل ذلك يسير مع هـــذا التحليل النفسى الذى يصـــور حياة المتنبى وشقاءه فى سبيل أطماعه ، والذى لا يترك خلجة من خلجات هذه النفس دون أن يشير اليها ، وأن يهتم بابرازها ولا سيما حينما يصاب المتنبى بالحمى ويهذى وتبرز مكنونات صدره ودخيلة نفسه ·

ولا ينسى الجارم شعر المتنبى ولا تحليله أو رأى النقاد فيه حسب ما يوحى به السياق ، ويتناسب مع فنه القصصى ٠

ان الجارم يجمع خطوط الحدث وينميها ويجعلها متشابكة دائما ومرتبطة بالمتنبى ، ومسيطرة على عواطف القارىء ، وما يزال بها حية رائعة جذابة حتى يسلمها الى خاتمة المطاف ٠

(ج) خاتمة المطاف :

وخاتمة المطاف تصور الأيام الأخيرة من حياة المتنبى ، تصور هربه من مصر ليلة العيد هو وعبد العزيز الخزاعى زعيم العرب فى بلبيس ، كما تصور الطريق الصحراوى الذى قطعه فى رحلته الى الكوفه بما فيه من قسوة وخطورة ، ويسير مع المتنبى فى رحلته المخفقة الى العراق حيث أئتمر به الوزير المهلبى ومعز الدولة وأغروا شعراء بغداد بهجائه ٠ ثم خروجه منها كما دخل اليها صفر اليد ، خالى الوفاض قد أضاف الى أعدائه بكبريائه واعتداده بنفسه أعداء آخرين ، كما أضاف الى المعجبين به عددا ليس باليسير ٠

وكانت خاتمة رحلاته الى ابن العميد وزير عضد الدولة « بأرجان » ، ثم الى عضد الدولة بشيراز حيث بلغ المتنبى قمة شهرته ، وطبق ذكره الخافقين ، وأصبح رجل الدنيا وواحدها ، وآن له بعد ذلك أن يلقى عصا التسيار ، فيسكت هذا الصوت الهادر المعجب ، وتهدأ هذه النفس الطموح الوثابة على يد لصوص الصحراء وقطاع الطريق من القرامطة من أمثال فاتك الأسدى ، وضبة ابن زيد ٠

ان الجارم فى كتابته عن المتنبى كان شاعرا وفنانا ، فلقد لمس بأسلوبه أوتار القلوب ، وحرك بخياله أحداثا عفى عليها الزمن فاذا بها تسهم بنصيب كبير فى تخليد حياة المتنبى بعد ألف عام ٠

ولم يقتصر الرجل على سرد الأحداث بل تعمق شعر المتنبى وعرض نماذج كثيرة أثناء قصه الجميل ، ووفق الى أن يستغل هذا الشعر فى ربطه بحياة الرجل كما وفق الى ابراز كثير من آراء النقاد فيه ٠

(د) فارس بنى حمدان

تحكى قصة أبى فراس الحمدانى شاعر حلب وفارسها ومنافس أبى الطبب المتنبى فيها أيام سيف الدولة الحمدانى ٠

والقصة تتبع نشأة أبى فراس فى « منبج » بعد مقتل أبيه ، وتسجل كثيرا من مظاهر البيئة التى نشأ فيها ، وكثيرا من مظاهر الثقافة التى أسهمت فى تكوينه ٠

كما تعرض فى أسلوب قصصى بديع يعتمد على الحوار المشرق الفنـان حكاية قلبه مع نجـلاء الخالدية ، وظفره بها بعد أن دفع منافسيه عنها ، وانتصر عليهم بقلبه المحب ، وفنه ، وشبابه ، وبنى بها ، وأنجب منها ابنته فوز ٠

وتصور بجانب ذلك شجاعة أبى فراس فى حروبه مع الروم ، وأسره وهربه فى المرة الأولى ، واستنجاده بسيف الدولة فى المرة الثانية ، وارساله من القسطنطينية أشعاره التى يستعطفه بهـا ، ويطلب منه فى يأسه أن يسرع فيفتديه !!

وسيف الدولة سـاكن لا يتحرك بعد أن لعب الوشـاة والحاسـدون أخطر دور فى التفريق بين البطلين العربيين ، وأخيرا تفتديه زوجته نجلاء الخالدية بجوهرة لها حكاية كان قد أهداها لها أبو فراس ٠

وفى النهاية يموت أبو فراس بحراب بنى أبيه وهو خارج

على ابن أخته سعد الدولة بن سيف الدولة فى ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وثلثمائة على مرأى من أمه وزوجته وابنته فوز ٠

ان قصة فارس بنى حمدان لتكمل الحلقة التى بدأها الجارم بالشاعر الطموح لتصوير بلاط سيف الدولة بحلب ، ودور هذه الولاية العربية المخلصة على الحدود العربية الرومية ٠

هـ ـ سيدة القصور :

آخر أيام الدولة الفاطمية بمصر

وتدور أحداثها بين عدن وزبيد فى أرض اليمن ، وبين مكة والقاهرة وتتناول بتفصيل وأسهاب الصراع بين المذهب الفاطمى ، والمذهب السنى ابتداء من سنة تسع وأربعين وخمسمائة هجرية ـ أى فى أخريات أيام الدولة الفاطمية بمصر ٠

أما شخصيات القصة فكثيرة ومتعددة من أهمها شخصية محمد ابن سبأ صاحب عدن الفاطمى المذهب ، والملك فاتك صاحب زبيد السنى العقيدة ، وعلى ابن مهدى من كبار دعاة الفاطميين بعدن ، وأبو كاظم الحرانى ، والفقيه أبو الحسن النيلى ، وأسامة الحضرمى ، ثم عمارة بن زيدان اليمنى الشاعر ، وسيدة القصور وطلائع بن رزيك ، وشاور ، وضرغام ٠

والقصة رغم امتداد البيئة المكانية ، والزمانية ، ورغم كثرة الشخصيات تعتبر ناجحة من الناحية الفنية ، ففيها تتسلسل الأحداث التاريخية ، وتنمو وتتعقد ثم تحل فى غير تكلف أو اضطراب ٠

وعلى عادة الجارم الفنية فى كتابة القصة يسير فى كتابة سيدة القصور ، فالشخصية الأولى التى يتتبع خط سيرها من عدن الى

زبيد الى مكة الى القاهرة شخصية عمارة بن زيدان اليمنى الشاعر ، وهو هنا لم يخرج عما اختطه فى غير سيدة القصور من الكتابة عن الشعراء ! والشخصية الثانية شخصية سيدة القصـــور التى من أجلها كتبت القصة ٠

وحول هاتين الشخصيتين نسجت أحداث القصة فى تناسق وانسجام مع أحداث التاريخ الكبرى التى انتهت بالقضاء على الدولة الفاطمية على يد صـــلاح الدين الأيوبى قائد نور الدين زنكى فى مصر ٠

ولقد برع الجارم فى تصـــوير الفوضى التى كانت تضرب أطنابها فى أرض اليمن كما برع أيضا فى تصوير حياة القصـــور ودسائسها ، والمخاطر التي كانت تحيط بسيدة القصور ، وبمصر فى هذه الفترة ٠

أما كفاح الشـــعب المصرى ضد حكامه : طـــلائع بن رزيك ، وشاور وضرغام ، ثم جنود الافرنج الذين استعان بهم شاور ضد الغزو من جنود الشام ، فقد احتل مكانه البطولى بتفصيل واسهاب ، فالشيخ عبد الحكيم الغفـــارى المدرس بجامع الحاكم يقود ثورة الشعب الأصيل ليقضى على مؤامرات الحكام والغزاة ٠

وللجارم باع طويل فى تحليل الشخصيات ، فعمارة بن زيدان اليمنى شاب طامح يريد أن يكون زبيبـــا قبـــل أن يـــكون حصرما ، وأبو كاظم الحرانى عدو عمارة بعوضة لاتنال باليد ولكنهـــا تطن وتلسع ، فاذا حاول من لسعته قتلها لطم خديه ٠ والملك فاتك شهم أبى يسد أذنيه عن الوشاة والنمامين حتى يتأكد له الخبر ٠

وسيدة القصور آمالها أبعد مما تناله يدها ، ولوا استطاعت لأعادت أيام المعز والحاكم ، ولكن الطريق وعرة ، والمرمى بعيد ٠

والدولة الفاطمية كانت تقوم على هاتين الكلمتين التى نطق بمعناهما المعز : فى مصر الذهب لمن أطاع وأصلح ، والسيف لمن عصى وأفسد ·

والقصة على طولها ، وكثرة أحداثها ، وتعدد شخصياتها تمتاز بعنصر التشويق ، ولقد لعب الحب دورا كبيرا فى تسلسل أحداثها ،كما لعب الحقد دورا آخر فى نمو هذه الأحداث وتشابكها·

ان سيدة القصور تعتبر من الناحية الفنية قصة تاريخية محكمة استطاعت أن توقظ أحداث عصرها ، بأسلوب جزل ، وتحليل عميق ·

و ـ قتيلة القباقيب :

تحكى عن شجرة الدر وحالة مصر أيام المماليك ، وانتصار المصريين على الفرنسيين ، وقد ضاعت بعد كتابة نصفها وبذل الجارم محاولات يائسة فى العثور عليها ·

ز ـ نفيسة المرادية :

زوجة مراد بك ، وموقفها من الحملة الفرنسية وموقف الشعب وكفاحه ·· الى آخره ·

ح ـ غادة رشيد :

كتبها وفاء بحق بلدته رشيد ، وتخليدا لبطولات عاشها الشعب المصرى وهو يكافح الفرنسيين أثناء الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت فى سنة ١٧٩٨ وما بعدها ·

ولم تمنعه كثرة الأحداث من أن يهتبل الفرصة فيجعل من

زواج « زبيدة بنت البواب » الرشيدية بالجنرال الفرنسى مينو لحمة القصة وسداها .

ولقد إستطاع بعاطفته الجياشة ، وأسلوبه القوى ، وقصة البديع ، أن يمزج بين أحداث القصة فيربط نكبة زبيدة وأسرتها فى زواجها بنكبة الوطن باحتلال الفرنسيين ، ويصل من وراء ذلك الى تسلسل مطرد يبلغ بالقصة الى قمة الحدث ويصل بالمأساة الى غايتها دون أى اضطراب أو تفكك أو افتعال .

لقد استشف روح التاريخ فى غادة رشيد .

والجارم هنا ـ بربطه هذا الحدث الخاص بأحداث الأمة ـ يصل بفنه القصصى الى غاية بعيدة ، ويسهم بدور ايجابى فى بلورة مفهوم القصة العاطفية ويعطى نموذجا لأخلاقية العمل الفنى دون هبوط الى مستوى الأخلاق المريضة التى دأب على تصويرها فى القصة بعض الكتاب المحدثين .

لقد صور الجارم حياة مصر أيام الحملة الفرنسية ، وما قبلها بقليل ، واتخذ من مدينة رشيد نموذجا لما كانت عليه حال البلاد من الفوضى على يد الأتراك والمماليك كما اتخذ من مدينة القاهرة صورة حية للشعب الثائر العنيد الذى يضحى بكل ما يملك فى سبيل المحافظة على حريته واستقلال بلاده .

وبين رشيد والقاهرة تسير احداث القصة حيث يعطى لكل حدث نصيبه الفنى فى غير ملل ولا اسراف .

فهناك رشيد الوادعة الهادئة القابعة على النيل تتملى من جماله ومحاسنه ، وهناك رشيد البائسة المرهقة من ظلم الوالى التركى وضرائبه ، وهناك رشيد العلماء ، ورشيد المستسلمة لمدافع

الفرنسيين وظلمهم ، المستسلمة فى أعز ما تملك ، فى زبيدة بنت البواب ، وهناك رشيد الثائرة التى تقهر الانجليز فى حملة «فريزر» سنة ١٨٠٧ .

وهناك القاهرة المنهزمة بقيادة المماليك ، والقاهرة الثائرة ، والقاهرة التى تتحدى الفرنسيين بسلاح ضعفها رغم أسلحتهم ومدافعهم الحديثة ، وترغمهم على الجلاء .

وهناك المواقف العاطفية القومية التى تتمثل فى حب محمود العسال لبنت خالته « زبيدة بنت البواب » تاجر الأرز برشيد ، وفى حب « لورا نيكلسون » ابنة التاجر الانجليزى برشيد لمحمود العسال ، ثم زواج « زبيدة بمينو » حاكم رشيد .

وهناك أحاديث النفس للمحبين ، والثائرين ، والانتهازيين ، وحديث العرافة (رابحة) الذى ينمو فيعقد الحدث لأنها تنبأت « لزبيدة » بأنها ستحكم مصر فهى لذلك تقتل كل عاطفة لها نحو حبيبها محمود لتتزوج آخر الأمر بمينو الفرنسى حاكم رشيد .

وحديث « الشيخ على سريط » المجذوب ورمزيته لما سيأتى به الغيب .

كل ذلك يسير به الجارم فى تناسق فنى ، واطراد طبيعى ، ويمزجه بأحداث الوطن الكبرى ، ويصوغه بأسلوبه الرائع ، حتى يوفى على غايته ، ويقدمه الينا فى قصته التاريخية عملا فنيا ناجحا .

ط ـ هاتف من الأندلس :

قصة طويلة تبلغ الأربعين ومائتى صحيفة ، طبع دار المعارف

تحكى قصة ولادة وابن زيدون أيام أن كان يحكم قرطبة أبو الحزم جهور ، زمن ملوك الطوائف الأول الذى أعقب سقوط الحكم الأموى .

وتبدأ أحداث القصة فى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة هجرية ،وفيها يمتلك الجارم زمام فنه ، ويغوص بعمق الى تحليل نفسيات أبطاله ، ويوفق فى ذلك كل التوفيق .

فابن زيدون الشاعر ، وولادة الأديبة الظريفة سليلة الخلفاء ، ونائلة الدمشقية سيدة الظرف والرقة الأندلسية العربية ، وعائشة بنت غالب ، أو « روزالى » جاسوسة الأسبان ، وطالب الطب الأسبانى الفقير « اسبيوتو » تلميذ ابن زهر والجاسوس الأسبانى، وأبو الحزم بن جهور ، وابن حمدوس ، وابن المكرى ، وابن حيان المؤرخ ، والمعتضد بن عباد ملك أشبيلية ، وملك الافرنجة الاسبانى « فى برغش » كل هؤلاء قد غاص الى نفوسهم وأبرزها فى حواره المشرق الفنان ، فاذا بالقارىء يضع بصره ويده على صور من التحليل النفسى ، والطموح الشخصى الذى كان يغلب على حكام الأندلس من المسلمين .

هذا مع محافظته على فنه القصصى ، وبلوغه به الغاية ، وعنايته بحقائق التاريخ .

والقارىء لقصة الجارم « هاتف من الاندلس » يشعر بمدى توفيقه فى رسم البيئة الأندلسية ، وما فيها من اضطراب ومطامح وأحقاد ، ويشعر أيضا بروعته فى تصوير مجالس العلماء ، وندوات الشعراء التى كانت تعقد فى دار عائشة بنت غالب أو ولادة ، كما يشعر بمدى احاطته بالأدب الأندلسى فى استشهاداته الكثيرة التى تعمل على نمو الحدث فى اطار القصة العام ، كما يرى كثيرا من الدراسات النقدية التي يحرك بها ألسنة أبطاله من رواد الندوات الشعرية أو من الشعراء .

كل ذلك مع أسلوب الجارم الرائع ، وصوره الجميلة ، واستعاراته الطريفة واحيائه لبعض المفردات اللغوية التى طال عليها الأمد فاذا بها فى ظل سياقه رائعة خلابة ، كأنها الجوهرة مسح عنها ما علق بها من غبار فعاد اليها رونقها وبهاؤها .

ى ـ شاعر ملك :

قصة المعتمد بن عباد الأندلسى ، وأحداثها تكاد تكون معاصرة لقصة هاتف من الأندلس .

لا تزيد صفحاتها على ثمان وعشرين ومائة ، نشرتها دار المعارف فى سلسلة « اقرأ » .

وهى تحكى قصة آل « عباد » فى أشبيلية وتخص منهم المعتمد بن عباد بالنصيب الأوفر ، وتنتقل بالأحداث مسرعة من ولادة المعتمد الى استعانته « بابن تاشفين » زعيم المرابطين فى شمال افريقية لقهر الفونسو ملك الشمال (الأذفونش) ثم انقلاب ابن تاشفين عليه وقهره له فى اشبيلية ، وقتل أولاده فى « قرطبة ورندة » وأسره فى « أغمات » هو وزوجته (الرميكية) وبناته اللائى كن يعشن فى السجن من غزل أيديهن فى فقر وكفاف عيش .

يطأن فى الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

والجارم قد اعتمد فى قصته هذه على السرد التاريخى فليس فيها من التحليل النفسى مثلما كان فى « هاتف من الأندلس » ويظهر أن لافتتان الجارم بابن زيدون أثرا فى ذلك !

كما اعتمد أيضا على سرد كثير من شعر المعتمد لملء صفحات القصة من ناحية ، ولمحاولة تصوير حالته ونفسيته من ناحية أخرى مما أفسد خط السير الفنى فى القصة .

ان قصة شاعر ملك كانت فيما يبدو من أول محاولات الجارم فى السيطرة على هذا الفن ، ولذلك نرى فيهـا كثيرا من النقدات الفنية التى ليس لها مجال فى هذا العرض السريع ، ولنا اليها عودة فى دراسة مستقلة بمشيئة الله ٠

٣ ـ كتبه المترجمة :

العرب فى أسبانيا :

ترجمه بتصريح خاص من الناشر بلندن وقال فى المقدمة التى كتبها عنه : « ان استانلى لين بول يحب العرب ويتغنى بمجدهم ، ويؤلف لأبناء أمته فى تاريخهم كتابا أو قل قصيدة طويلة الذيول كلها ثناء ، واطراء وحب واعجاب ، وعطف وحنان ، ولوعة ، وبكاء ٠ فهل كان يصح فى حكم البر بالعربية أن يبقى أبناؤها محجوبين عن هذا الكتاب دهرا طويلا ٠

أما طريقة « لين بول » فى التأليف فجامعة بين التحقيق العلمى وربط الحوادث بعضها ببعض ، وتأدية قصة الأندلس كاملة متصلة الأواصر فى أسلوب شائق ، وسياق رائع ، فانه بعد أن قرأ تاريخ الأندلس فى مراجع شتى ٠٠ اسـتطاع أن يخرج للأدب والتاريخ قصة بديعة الأسلوب ، متماسكة الحلقات ، لها ـ مع صدق حقائقها ـ كل ما للقصص الخيالية من فتنة وسحر ٠٠

وقد قصدت فى ترجمة هـــذا الكتاب الى ترجمة المعانى مع الحرص على الروح التى أملته ، فان لكل لغة بيانا ، وحسب النقل أن يدرك الغاية ويصيب اللباب ٠ أ ٠ هـ ٠

والحق مع الجارم فى كل ما قاله عن الكاتب وأضفاه عليه فى مقدمته الرائعة ٠

والحق معنا أيضا حينما نقول : ان الجارم كان خير من يترجم عن العرب فى اسبانيا ، فالروح المحبة المخلصة هى التى أملت على المؤلف كتابه ، وعلى المترجم ترجمته ·

والأسلوب الرائع المعجب الذى يترجم عن تاريخ العرب فى أسـبانيا مع الحرص على روح النص هو الذى عمـل بالتأكيد على نجاح الترجمة ·

واختيار الجارم لترجمة هـذا الكتاب بالذات مع غنى المكتبة الانجليزية دليل واضح على شدة تفانيه فى سبيل فكرته التى يهدف من ورائها الى خدمة تاريخ أمته ، ودليل أيضا على نجاح الترجمـة ·

كتاب « العرب فى أسـبانيا » لا يزيد على ست عشرة ومائتى صفحة لفترة تزيد على ثمانية قرون ، وهو كتـاب تاريخ يسير مع العرب فى أسبانيا مسرعا بأسلوبه الممتع المختصر من عصر الى عصر ، ومن حكاية الى حكاية حيث ينتهى الى عام (١٦١٠ م ١٠١٩ هـ) حين حكم فى هذا العام بالنفي على نحو نصف مليون عربى « أن الارض لله يورثها من يشاء من عباده » ·

والقارىء لهذا الكتاب لا يملك الا أن يعيش بوجدانه مدى هذه القرون الثمانية مع العرب ، ولا يملك أيضا الا أن يملأ بخصب خياله هذه الفجوات التى مر عليها الكاتب مسرعا فى زحمة أحداثه دون أن يسلط عليها كثيرا من الأضواء ·

ولا يملك أخيرا الا أن يحس بالأسى والحسرة حينما يرى النهاية الأليمة التى منى بها العرب فى الأندلس !!

ثم هو بعد ذلك كله لا يملك الا أن يعجب بالجارم ·

لا من جهة أنه ترجم الكتاب ونجح فى الترجمة فحسب، وانما

لأن تعليقاته فى الهامش تدل على اطلاع واسع على التاريخ والأدب الأندلسى ٠

كما تدل على عمق فهمه لمناحى الأدب الأوربى ورجاله ٠ وتدل أخيرا على عمق التحقيقات العلمية المختصرة التى قام بها فى الهامش وان خالف المؤلف فى قليل منها ٠

ان الجارم بترجمته لهذا الكتاب ، وبكتابته لقصتى هاتف من الأندلس وشاعر ملك ، قد قام بجهد مشكور فى تصوير الحياة الأندلسية ، وما كان يعتمل فيها من نهضة وازدهار ، وتخلخل واضطراب ، وهو بذلك يعطى للعرب بتصويره هذا أمثلة حية لما يجب عليهم أن يفعلوه ازاء ما يتهددهم من الفرقة والانقسام ٠

فهو من أجل هذا يعتبر داعية من أجل الوحدة ، وتوحيد الصفوف ٠

٤ ــ تحقيقاته العلمية :

لقد قام الجارم بكثير من التحقيقات والشروح العلمية :

(أ) فحقق وشرح مع الاستاذ أحمد أمين كتاب المكافأة لأبى جعفر أحمد بن أبى يعقوب يوسف بن ابراهيم الكاتب المشهور باسم « ابن الداية » ٠

وحقق مع الأستاذ محمد عوض ابراهيم كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية (لابن طباطبا)

(ب) وأخرج مع الأستاذ أحمد العوامرى كتاب « البخلاء » للجاحظ وحققه وشرحه وضبطه ٠

(ج) واشترك معه الأستاذ شفيق معروف فى شرح ديوان البارودى، وقد أنجزا منه جزءين ٠

(د) وقد كان يوشك أن يشرح ديوان ابن سناء الملك ويحققه وينشره .

وهو بهذا يسهم اسهاما جديا في تحقيق التراث واخراجه في صورة عصرية متقنة .

غير أن الانصاف يدعونا الى أن نقر أن بعض هذه التحقيقات العلمية لم تكن في مستواها اللائق من ناحية المقابلات النصية بين النسخ وتمحيصها . ويظهر ذلك بوضوح في كتاب الفخرى في الآداب السلطانية ، كما يظهر أيضا في كتاب البخلاء .

٥ ـ كتبه المدرسية :

(أ) النحو الواضح

ألفه بالاشتراك مع الأستاذ مصطفى أمين المفتش السابق بوزارة المعارف في سبعة أجزاء ثلاثة للمدارس الابتدائية ، ثم أربعة للمدارس الثانوية . وقد أقرته وزارة المعارف فعلا في سنة ١٩٢٥ .

والكتاب بأجزائه يشتمل على كل أبواب النحو العربي تقريبا ، ولقد اتبع فيه المؤلفان الطريقة الحديثة في التربية ، وهي التي يسير على منوالها كل مؤلفي النحو العربي للمدارس الى الآن . بل لا أبالغ اذا قلت انه بمقارنة بعض كتب النحو التي تدرس الآن في وزارة التربية والتعليم وجد أن هناك أبوابا كاملة قد انتزعت من النحو الواضح بلا شفقة ولا رحمة ولا خوف من القانون لأن الرجل قد مات !!

وقد يلتمس لمؤلفيها العذر في ذلك لأن الجارم ومصطفى أمين قد ابتكرا بتأليف النحو الواضح طريقة فذة رائدة في هذا المجال . طريقة تبدأ بتقسيم الباب الى جزئيات يتناول كل جزء دقائق تتحد مع دقائق الجزء الآخر لتكون في النهاية قواعد الباب النحوية .

وهما يبدءان فى كل جزء من هذه الأجزاء بأمثلة مفردة بعيدة عن ظل النص الكامل ، تخدم القاعدة النحوية التى يريدان شرحها، ثم يلى ذلك الشرح فى عنوان جانبى باسم «البحث» ويستعرضان على ضوء الأمثلة السابقة دقائق هذا الجزء مع استنباط القاعدة ، وأخيرا ينصان على القاعدة فى ترقيم متتابع ، وصل فى نهاية الجزء الرابع للمدارس الثانوية الى ٢٤٤ قاعدة .

ويتبعان ذلك بنموذج مشروح ثم بتمرينات عامة مسلسلة قد تصل الى عشرين تمرينا فى نهاية هذا الجزء لتدريب الطلاب على تثبيت القاعدة ، هذا مع التمرينات العامة الكثيرة على كل باب ، وقد يتبعان ذلك كله بأسئلة على الباب ، وفى نهاية الجزء الرابع من النحو الواضح للمدارس الثانوية يضعان نماذج فى « الشرح والاعراب الموجزين » ، ثم أبياتا مفردة للشرح والاعراب كتدريب للطلاب ، ثم أبياتا للشرح فقط .

وفى نهاية ذلك كله يضعان نماذج من أسئلة امتحان شهادة الدراسة الثانوية فى القواعد والتطبيق ابتداء من عام ١٩٢٥ الى ١٩٣٠ .

وفى الحق أن هذا الكتاب قد أفاد العربية والنحو العربى فائدة عظيمة فالمؤلفان بأسلوبهما العلمي المتأدب ، وفهمهما العميق لقواعد اللغة وتفانيهما فى سبيل خدمة العربية يعتبران أول رائدين فى هذا المجال ، اذا استثنينا « كتاب قواعد اللغة العربية» الذى ألفه حفنى ناصف مع آخرين مجملا ، وكان فى حاجة شديدة الى البسط والتفصيل .

غير أن بعض النقاد من المفتشين بوزارة التربية يرى أن الأمثلة المبتورة عن ظل النص تعد عيبا .

ومهما يكن فلقد أراحت كتب النحو الواضح ـ كما يقول

الأستاذ ابراهيم مصطفى _ مئات من المعلمين ؛ ويسرت على ألوف من المتعلمين ، وأزاحت عن هذا العلم سحبا من النفور والكراهية كانت تحيط به ، وتصد المتعلمين ، ثم شاعت فى البلاد العربية ، وصارت كالمنهاج لتعليم النحو ، وأحدث أسلوبها فى الشرح والتأليف مدرسة أخذ المعلمون يتبعونها ، ويؤلفون على مثالها محاكين أو مقلدين ٠

وستبقى هذه الكتب بأسلوبها التأليفى مسجلة خطوة تاريخية من جهد العلماء فى تيسير النحو ٠

وما تزال كتب النحو الواضح تدرس الى الآن فى المدارس الافريقية التى تسير فى فلك جامعة كمبردج أو اكسفورد البريطانيتين ٠

فلا يظفر طالب المرحلة الثانوية فى السودان مثلا بشهادة كمبردج الا اذا أتقن كتب النحو الواضح ٠

(ب) البلاغة الواضحة

ألفها بالاشتراك مع الأستاذ مصطفى أمين أيضا ، وسار فى تبويبها على منهج كتب البلاغة العربية القديمة من أمثال السعد للتفتازانى وان اختلف فى طريقة العرض !!

بدأها بمقدمة رائعة عن الفصاحة والبلاغة ، تحدث فيها عن فصاحة الكلمة ، وفصاحة الأسلوب ، وفصاحة المتكلم ، وعن بلاغة الاسلوب وبلاغة المتكلم ٠

واستعرض بأسلوبه الرائع نماذج كثيرة لشعراء ممتازين من أمثال البحترى والمتنبى وغيرهما للدلالة على ما يصبو اليه من توجيه أدبى وفنى ٠

ثم اتبع ذلك بفنون البلاغة الثلاثة ، فن البيان ، وفن المعانى وفن البديع ·

وسار على طريقته الفذة من التعرض للجزئيات بذكر أمثلة كثيرة متنوعة من الشعر الرائع والآيات القرآنية ، ثم شرحها شرحا أدبيا ، واستنبط القاعدة منها ، وأتبع ذلك بنموذج مشروح ، ثم بتمرينات كثيرة متنوعة على كل فصل وعلى كل باب ·

وهكذا حتى ينتهى من فنون البلاغة الثلاثة ·

والبلاغة الواضحة أسعد حظا من النحو الواضح فما تزال مرجع الاساتذة فى دراسة البلاغة العربية بالمدارس الثانوية ، وما يزالون يعترفون للجارم وصاحبه بالسبق فى هذا المضمار ·

غير أن البلاغة الواضحة قد أصابها ما أصاب النحو الواضح من اغارة وسلب ونهب ، وشتان بين الأصل والصورة !!

فالجارم وصاحبه قد بلغا القمة ، ومن منا لا يعترف للبلاغة الواضحة بهذا الفضل الذى حل عقدة السعد للتفتازانى وأمثاله · ومن منا لم يشعر بهذه الهزة القوية التى سيطرت على انفعالاته وهو يدرس البلاغة الواضحة فيتذوق بلاغة العرب وفنون البلاغة الثلاثة ويتقنها ·

بل من منا لم يشعر بالاعجاب حينما التمس فى «دليل البلاغة الواضحة» شرح التمرينات التى امتلأت بها البلاغة الواضحة ·

ولقد طبعت البلاغة الواضحة طبعات متعددة ، واهتمت بها أيضا جامعة كمبردج فقررتها على طلابها فى المدارس الثانوية ، فأفادت بذلك فائدة عظيمة ·

(جـ) تاريخ الأدب العربى لتلاميذ المدارس الثانوية

ألفه بالاشتراك مع الاساتذة أحمد الاسكندرى ، أحمد أمين، عبد العزيز البشرى ، الدكتور أحمد ضيف ٠

والكتاب يقع فى أربعة أجزاء صغيرة ، ويبدأ بالعصر الحديث، وينتهى بالعصر الجاهلى ، وقد أقرته وزارة المعارف فى سنة ١٩٣٠ على طلاب المدارس الثانوية ، فالجزء الأول للسنة الأولى ، والثانى للثانية وهكذا ٠٠

وفى كل جزء من الأجزاء الأربعة نرى المؤلفين يصورون العصر تصويرا موجزا واضحا ، حيث يتناولون بدراستهم شيئا عن القوى البشرية المكونة للمجتمع ، عن أصلها ، وعلاقتها بغيرها من الأمم ، ثم يتبعون ذلك بدراسة عن الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية بشىء من التركيز يتناسب مع حجم الكتاب ٠

كما يتناولون فى دراسة موجزة فنون الشعر وخصائصه وألفاظه ومعانيه ، ويترجمون لأشهر شعراء العصر ، وخطبائه وكتابه ، مع ذكر نماذج لكل شاعر أو خطيب أو كاتب تناولته الدراسة ، تصور حياته مع قليل من التحليل ، وقليل من مناقشة آراء العلماء ٠

والكتاب بصفة عامة خفيف الروح ، صغير الحجم ، يتناسب مع طلاب المرحلة الثانوية ، وان كانت الكتب المدرسية الحديثة فى الأدب والنصوص للمدارس الثانوية قد سبقت فى هذا المضمار بأسلوبها المشرق وتبويبها الممتاز ، وعرضها الرائع، وطبعها الأنيق٠

(د) المنتخب من أدب العرب :

ألفه أيضا بالاشتراك مع الدكتور طه حسين والأساتذة أحمد الاسكندرى ، أحمد أمين ، عبد العزيز البشرى ، الدكتور أحمد ضيف ٠

وسار على خطى الكتاب السابق من تقسيمه للعصور، وانفصال أجزائه ، وابتدائه بالعصر الحديث ، وتقريره على المدارس الثانوية على النظام السابق لتاريخ الأدب العربى .

وان كان قد طبع أخيرا فى مجلد واحد وابتدأ بالعصر الجاهلى مع اختصار غير مخل لكثير من نماذجه .

والكتاب يشتمل على نماذج شـــعرية ونثرية لكل عصر من عصور الأدب .

انتخب له المؤلفون مجموعة رائعة من النصوص العربية لكبار الشعراء ، والكتاب العرب ، واعتمدوا فى الواقع على ذوقهم الأدبي الخالص فى هذا الاختيار وراعوا روح العصر ومقتضياته .

والمؤلفون يعرضون النصوص دون مقـــدمات أو تعليقات أو دراسة موجزة عن روح العصر ، وانما يبدءون بمختاراتهم ، ويعلقون على الكلمات الصعبة بشرحها فى الهـامش ، وينتقلون من نص الى نص حتى ينتهوا من الكتاب .

وكأنهم يعتمـدون فى ذلك على كتـــاب تاريخ الادب العربى السابق ذكره فكلاهما مكمل لصاحبه .

والمنتخب من أدب العرب فى هذا الكتاب يربو على ثلاثة آلاف بيت ، بينما لا يتعدى المختصر ثمانمائة وألفا .

والنماذج النثرية قليلة نسبيا وان اشتملت على نماذج مختلفة للخطب والرسائل والتوقيعات .

(هـ) فى ميدان التربية وعلم النفس :

علم النفس وآثاره فى التربية والتعليم

ألفه بالاشتراك مع الاستاذ مصطفى أمين فى سنة ١٣٣٣هـ ـ

١٩١٥ م ، حينما صدر هذا الكتاب لم يكن للتربية وعلم النفس كتب بالعربية غير كتاب كان قد وضعه عالم من أبناء دار العلوم هو حسن توفيــق العدل ، وغــير كتــاب وجيز فى التربية وحدها للشيخ عبد العزيز جاويش ٠

ومن هنا يتضح أهمية الكتاب

ولقد سار فيه المؤلفان على طريقة تتمشى مـع أصول التأليف فى علم النفس التربوى حيث مزجا علم النفس بفن التعليم ، وهذا فى حد ذاته ، وفى هذا الوقت المبكر يدل على وعى ونضج واستعداد لتنمية هذا العلم ٠

أما الموضوعات التى تناولها فى أبواب كاملة وبشىء من التفصيل فهى دراسة العقــل ومعرفة أسراره ــ العزيزة ــ تداعى المعانى ــ الحافظة والذاكرة ــ الخيال ــ الفكر ــ اللغة ــ الارادة ــ العادة ــ الخلق ٠

وهذا من غير شك يدل على سعة آفاقه ، وتعدد اتجاهاته ٠

الباب الثاني

شعر الجارم

الفصل الأول

الشاعر ومفهوم الشعر

١ ـ مفهوم الشعر عند الجارم على ضوء النقد الحديث :

يقول الجارم في مقـدمة الجزء الأول من ديوانه : وبعد فانى لا أريد أن أسهب فى الكلام على معنى الشعر وخصائصه ، ومبعث الروحانية فيه ، ذلك لأن هذا البحث طرقه الباحثون كثيرا فاخفقوا، وأطالوا فيه فكانت اطالتهم أول دليل على العى والحصر ، ومن العى اطالة الكلام ، وتكرار تاء التمتام ٠

أرادوا أن يحدوا روحانيته بالالفاظ ، فعجزت الالف ، وضلت الباء وكيف يحيط المحدود بغير المحدود ؟ وكيف تكشف ظلمة المادة توهج النور ؟

ان شرح آثار الاحســاس الجسمى من أبعـــد الامور تأتيا ، وادخلها فى باب الاستحالة ٠ أرأيت لو أنك ذقت سكرا أو ملحا ، ثم سألك سائل متعنت أن تشرح له طعم الســكر أو الملح ، أكنت مستطيعا ؟ أرأيت لو شــممت وردا أو نرجســا ، ثم بدهك انسان يفقد حاسة الشم أن تبين له في وضوح ودقة ذلك الأثر الذىشعرت به ، أكنت قادرا على أن تجد له اللفظ ان وجدت المعنى ؟ ٠

فاذا كان هذا الشأن ، وتلك الحال فى احســاس الاجسام ، فكيف فى احســاس العقول ؟ واذا كانت الالفاظ عاجزة عن وصف

اثر المادة الجامدة فى الاجسام • فكيف تكون اذا همت بوصف اثر الروح النورانية فى النفوس والارواح ؟ ١٠•هـ

وواضح من هذه المقدمة ان الجارم يدرك تماما قيمة التذوق الفنى • كما يدرك عجز التعبير عن اماطة اللثـــام عن سر الفن ، وروعته وسحره ، ان الشعر شيء فـــوق الشرح واللفظ والمعنى • فليس الشعر الوزن وحده ، ولا القافية وحدها ، ولا الكلمات التى تملأ فراغ التفاعيل ، وأن عذبت ولطفت ، وانما الشعر ما وراء كل بيت من ضوء روحانى ، وجد له بين ألفاظه منفـذا ، ومن ســـحر سماوى زحزح البيت دونه طرف الستار •

فاذا ما تحدث الجارم بعد ذلك عن الشعر ، فانما يتحدث فى الواقع عن مقومات الشعر ، وعن رسالته •

ومقومات الشعر فى رأيه عاطفة وفكرة ، عاطفة قوية مؤثرة فى عواطف الآخرين ، وفكرة جلية واضحة اذا قورنت بغيرها من الأفكار يقول :

الشعر عاطفة تقتاد عاطفة
وفكرة تتـــجلى بين أفكار

الشـــعر ان لامس الارواح الهبها
كما تقـــابل تيـــار بتيار

الشـــعر مصباح أقوام اذا التمسوا
نـــور الحيـــاة وزند الامة الوارى

الشعر انشودة الفنان يرسلها
الى القلوب فتحيا بعد اقفار

الشعر همس غصون الدوح مائسة
ودمعة الطل فى اجفان أزهار

أما ان الشعر عاطفة قوية فهذا ـ من غير شك ـ عنصر الشعر الأول والأهم ، ولكن مع تقييده بالفكرة ٠ ان التقييد هنا مهم « حقا ان كل شعر لا بد أن تتوفر له مقوماته من العاطفية ، ولكن العاطفة ليست القول الفصل فى أمر الشعر عامة ، ان نفث المصدور لكل ما اضطرب فى صدره من عواطف قوية ليس شعرا جيدا ، بل هو «عاطفية» أو ضعف عاطفى » لا فن ، والشاعر الذى يتلذذ بما يجيش فى صدره من عواطف ولا يشغل نفسه بالتأمل والخلق يصبح انسانا منخوبا مائع العواطف ٠

والفكرة عنصر مهم فى الشعر وفى الفن ، والشاعر الممتاز هو ذلك الذى يستطيع الغوص فى أعماق الواقع ليستخرج حقائق الأشياء ٠

لقد كانت كلمة الشاعر تعنى دائما انه خالق ، وكان الشاعر خالق صور حتى الآن ، وسيظل كذلك الى الابد ، ولكن يمكن أن يصبح الشاعر الى جانب ذلك خالق أفكار ، أو موقظ أفكار ، وخالق عواطف عن طريق هذه الافكار ٠

رأما ان الشعر عاطفة قوية مؤثرة فى عواطف الآخرين فهذا هو الدليل الواضح على نجاح التجربة الشعرية ، ان الشاعر لا يصوغ أحلامه وآماله وآلامه فحسب ، وانما هو فى الواقع يصوغ أحلام البشرية وآمالها وآلامها من خلال تجربته الخاصة التى يشترك معه فيها الآخرون ، وفى هذا معنى خلود الادب ووجوده ، والا فما قيمة شعر يؤلف أو ينشد فلا يهز القلوب ، ولا يحرك الوجدان ؟

ان الشاعر الانجليزى ت اس اليوت قد عبر عن هذا المعنى بالمصطلح الذى أطلق عليه «المعادل الموضوعى» ويعنى به تلك الصورة التى يعبر بها الشاعر عن عاطفته لكى تثير هذه الصورة عاطفة مشابهة عند القارىء ، والعاطفة ليست هى المشاعر ، بل هى

تحويل للمشاعر الى صـورة أخرى اذ ان الشـعر ليس تعبيرا عن المشاعر بل هربا منها ، هو مجهود الشاعر ليحول آلامه الخاصة الى شيء خصب غريب • شيء كوني عام ، يستجيب له الكون كله •• »

وأما انه مصباح يكشف ظلمة الحيـاة ، ويبـدد الغياهب ، ويسبق خطى الامم ويدفع الى التطور ، فهذا ما كان يفهمه القدماء، وعلى أساسه نظروا الى الشعراء نظرة التقديس والاعجاب ، وهو ما يفهمه كثير من المحدثين •

استمع الى الشاعر الانجليزى شيلى حينما يقول: ليس الشعراء محدثى اللغات ، ومبتدعى فنون الموسيقى والرقص والتصوير فقط ، بل هم أيضا واضعوا الشرائع ، ومؤسسوا المدنيات ، ومبتكروا فنون الحياة ، وهم الاساتذة الذين يصلون ما بين الجمال والحق ، وبين عوامل هذا العالم المستتر الذى يدعوه الناس الدين •

ولقد كان الشعراء فى العصور الاولى التى مرت بهذه الدنيا يسمون تارة مشرعين وطورا أنبياء حسب العصور التى ظهروا فيها، والامم التى نبغوا منها • صدق الاولون فان الشاعر جامع أبدا بين هذين فى نفسه لأنه لا يقتصر على رؤية الحاضر كما هو ولا يجترىء باستطلاع القوانين والانظمة التى ينبغى أن ينزل على أمورها هذا الحاضر ، بل يستشف المسـتقبل من ورائه ، فليست خواطره الا بذور الزهرة التى يجنيها الزمن الاخير ونوارته •

وما الشعر الا موقظ الامم ، وباعث الشـعور ، ورسـول الانقلابات فى الآراء والتقاليد والشعراء هم قساوسة التنزيل الالهى ورسل الوحى القدسى ، وشراح الحكمة الربانية وهم المرايا التى تتراءى فى صقالها اظلال المستقبل الضخمة الكثيفة الملقـاة على الحاضر •

وهم اللفظ الناطق بما لا يفهمون ، المعبر عما لا يدركون ، وهم قبل وبعد المشرعون الذين لا يعترف بهم الناس .

ومن هنا يتبين لنا ان مفهوم الجارم عن مقومات الشعر لم يخرج كثيرا عما تحدث به كثير من النقاد والشعراء والفنانين .

وبموازنة سريعة بين مفهـــوم الجـــارم وبين رأى المدرسة المجددة فى الشعر العربى – ونعنى بها مدرسة الديوان – يتضـــح لنا مدى الاتفاق والاختلاف . فالعقاد يرد على من يقولون بأن الشعر وجدان فقط بقوله :

ومن الكلمات التى تلاك ولا تفهم ، قول القـــائلين ان الشـــعر وجدان ، وان الشاعر لا يتأمل ولا يفكر .. والحقيقة التى ينبغى أن نحفرها فى أخـــلادنا هى ان الادب الرفيع لم يخل قط من عنصر التفكير ، وان الشاهد على ذلك أدب الفحول بين شعراء الامم العالميين ومنهم أمثال شكسبير وجيتـــــه والخيـــام ، وأبو الطيب ، ونخص الشعراء بالذكر لان صدق هذه الملاحظة عليهم يجعلها اقمن بالصدق على الادباء الناثرين .

٢ – رسالته :

(أ) والجارم فى حديثه عن مفهوم الشعر لم يستطع ان يجرد هذا المفهوم عن غايته لأن الشعر عنده ذو رسالة سامية عليه أن يؤديها : ففى قوله : الشعر عاطفة تقتاد عاطفة ، وفى تشـــبيهه للشعر بتيار الكهرباء الذى يلتقى بتيار آخر فيولد الحرارة والضوء والنور ، ويكشف ظلمة الحياة ، ويبدد الغياهب . معنى التأثير ، التأثير الموجه المفيد من جانب المنشىء ، فالعاطفة المؤثرة فى عواطف الآخرين ، والفكرة الواضحة ، والتيار الملهب ، والمصباح المنير ،

والانشودة الباعثة كلها وسائل ايقاظ ، ورسل توجيه وكلها من لوازم الشعر كما يرى الشاعر .

(ب) وكما ان من غاية الشعر التأثير من جانب المنشىء فمن غايته أيضا ان يساعد المتلقى على تفريغ ما عنده من انفعالات ضارة ، وعواطف ضاغطة ، فينتشى بخمره ويرتفع بروحه عن أوضار الجسد واكداره وكأنه يترجم هنا عن ارسطو رأيه الذى يقول فيه : ان النفس لا تضطرب بامثال هذه الأغانى الا لتهدأ فى عاقبة الأمر كأنها صادفت طبا وتطهيرا ، ويقول : والأغانى التطهيرية تسبب للناس السرور بدون ايلام ولا ضرر .

استمع الى الجارم حينما يقول :

كم ثملنا برشفة منك يا شعـ ـــر فصرنا روحا بلا اشـباح
كم عناء كشفت بعد نضـــال وجبين مســـحت بعد كفـــاح

(جـ) ومن غايته أيضا ابراز الحقائق البعيدة المنال ، وتفسير ما ينطوى عليه الـكون من بدائع ورموز ، ورسم اللوحات الرائعـة لهذا الكون الرائع المعجب ، وفهم لغى الطيور ، والاصـــغاء لهمس الغصون ، وكشف الستار عن هذه الصلة الوثيقة بين تفتح اقاصى الروض فى الأرض ، وضحك البروق فى السماء :

ورأينا من الحقائق ما عز على كـــل باحث كـــداح
وقرأنا فى كل شيء رمـــوزا فوق طوق البيان والايضاح
ورسمنا بدائع الكون فى لوح تعـــالى عن جفوة الالواح
وفهمنا لغى الطيور وأصغينـا لهمس الغصـــون فى الادواح
ورأينا البروق تضحك فى الرو ض فتهفو لهـا ثغور الاقاحى

(د) ثم ان هناك غاية مهمة ، بل لعلها غاية الغايات فى نظر الشاعر تلك هى ايقاظ الأمة ، والدفاع عن مجدها فالشعر جيش قوى يغزو وينتصر دون خسائر فى الأرواح والعتاد ، والشـاعر وحده جيش قوى ... لقد كان حسان جيشا فى قصائده ناصر رسول الله ودافع عنه ، ولقد ازدهى ملك بنى مروان بهذه الجيوش من الشعراء ، كما ازدهت دولة بنى العباس بأمثال حماد وبشار .

الشعر للملك جيش لا يصاوله ... جلاد مرهفة أو فتك بتـار
يغزو وينصر لا اشـلاء معركة ... ترى ولا وثبات حول اسـوار
اذا تخطر فى الافواه تنشـده ... غض الجفون حياء كل خطـار
وان اغار تنادى كل ذى هلع ... الى الفرار ، وأودى كل مغوار
قد كان حسان جيشا فى قصا ... ئده أشد من كل زحاف وجرار
وكان ملك بنى مروان فى اطم ... عال من الشعر يرمى الشهب بالنار
وهل زهت ببنى العباس دولتهم ... الا بأمثال حماد وبشـار

***

رب جيش من الحـديد تولى ... واجف القلب من حديد اللسان

***

الشـعر للأملاك خيـ ... ـر ذخيرة واعز بنـد
صـاغت سرائره لهـم ... تاجين من مجـد وخلـد
ولرب قافيـة بهـا ... ما شـئت من خيل وجند
تسرى فلا صعب يصعـ ... ـب لا ولا بعد ببعـد
تثب الجبـال ومالهـا ... بين الكواكب من مصـد
الشـعر زند للقـوى ... وعدة للمسـتعد ......
كم زان من ملك كمـا از ... دان المهنـد بالفرنـد

وهنا لا نستطيع ان نغفل رأى الفنان الأسبانى المعاصر بيكاسو فانه يكاد يتفق مع رأى الجارم حيث يقول : ماذا يظنون الفنان ؟ وماذا يطلبون منه ؟ هل يريدونه اذا كان مصورا ان يتحول الى عينين فقط، وان يتحول الى اذنين فقط اذا كان موسيقيا ... ؟ !الفنان أكبر من هذا بكثير ... الفنان كيان سياسى متيقظ لكل ما يدور فى العالم من حوله ولا يستطيع الا ان يتأثر به ، بل ويتشكل به .... لا ... لم يخلق الفن أبدا لتزيين الحوائط ... انما هو اداة حرب للهجوم على العدو وللدفاع عن الانسانية ، وفى أعماق الخيال يلتقى الواقع بالخيال .

(هـ) وأخيرا يرى ان الشعر يسجل مفاخر الأمم ، ويخلد فضائل الناس فرب قصيد

.... بنى لصاحبه الخلد مطلا من قمة الازمان

***

وما الشعر الا ترجمان مخلد يقص على الأجيال مجدا مخلدا

***

يغرد للخلود بكل أرض وما عرفت له الآفاق حدا

***

يصعد الشعر حيث لا تصل الشمس، ويبقى على مدى الآناء

***

هو خط الجمال فى صفحة الكو ن فهل للجمال من قراء

ومن الواضح ان مفهوم الجارم عن رسالة الشعر لم يخرج كثيرا عن طبيعة الشعر العربى ، ولا عن طبيعة آراء كثير من النقاد

العرب ، لقد كان الشعر العربى غالبا فى خدمة القبيلة ، وفى خدمة الدولة ، وفى خدمة المذهب السياسى ، وفى خدمة الممدوح ، وقليلا ما كان يهتم بما يسمونه الفن للفن ٠

كما لم يبتعد هذا المفهوم عن آراء كثير من النقاد وفلاسفة الجمال المحدثين الذين لا يهتمون بالفن والشعر كفن وشعر فقط بل كوسيلة لتحقيق الأغراض التى يستخدمان من أجلها ، ويمثل رأيهم الشاعر الروسى نيكراسوف ٠

فى قصيدته الانتقام والاسى حيث نسمع المواطن ينشد وهو يخاطب الشاعر فيقول :

وأنت ايهــــا الشـــاعر	يامن اصطفته السمـــــاء
انت صـــوت الحق الابـــدى	لا تفكر فى عويل الجيــــاع
المكتوب عليهم الفنــــاء	فليست لهم أناشـيد الانبيـاء
ولا تفكر فى الصرعى الساقطين	فان الله حى فى كل انســـان
وبكـــاء القلب المؤمـــن	يصـــل دائما الى الاعمـــاق
كن مواطنــــا واخدم الفن	وعش لخير بنى الانســــان
ســخر العبقريات والمواهب	لتبعث أحاسيس الســـلام

كما يدافع عن هذا الرأى الناقد الفرنسى « ج ٠ م جويو » فى كتابه (مسائل فلسفة الفن المعاصرة) خير دفاع ٠ لقد أخذ يرد على أصحاب مذهب الفن للفن ، ويدلل على انه لا تعارض بين لذة الجمال، ولذة اللعب ، وعلى ان الفن ليس لعبا ، وعلى انه لا تعارض بين لذة الجمال والشعور بالمنفعة ، والحاجة والرغبة ، كما انه لا تعارض بين لذة الجمال وبين العمل والشعور بالواجب ٠

ومن الذين آزروا هذا المفهوم المعلم الأول « ارسطو » ، ودانتى الايطالى وجديو الفرنسى وباوند الانجليزى ونيكراسوف الروسى وبيكاسو الأسبانى ، وابراهيم عبد القادر المازنى — وعباس محمود العقاد ، ومحمد حسين هيكل ، وأحمد الشايب ، والدكتور محمد مندور ، والدكتور عز الدين اسماعيل ، من النقاد العرب .

وما دمنا قد وصلنا الى هذا الرأى فمن الواجب أن نشير الى الرأى المقابل الذى يقول بأن الفن بعامة والشعر بخاصة ، لا غاية له لأنه غاية فى ذاته فالتعبير الجميل والصورة الرائعة ، يجب أن يقفا عند حدود الجمال المحض دون قصد الى شرف المعنى فى ذاته ، لا سيما وان من نادوا به كبار فلاسفة الجمال من أمثال الفيلسوف كانت وسبنسر ، وجرانت آلن ، وكروتشه ، وبودلير ، فلوبير ، وكثير من الرومانتيكيين ، والبارناسيين ، وعبد القاهر الجرجانى من النقاد العرب ، والقاضى عبد العزيز الجرجانى ، وطه حسين .

فكروتشه فى أثناء تعريفه للفن بأنه رؤيا أو حدس يعد من الانكارات التى ينطوى عليها تعريفه لبعض المفهومات العالقة بالفن خطأ قولهم : ان غاية الفن ان يوجه الناس نحو الخير ، ويبث فيهم كره الشر ، ويصلح من عاداتهم ويقوم اخلاقهم ، وان على الفنانين أن يسهموا فى تربية الجماهير ، وتقوية الروح القومى ، أو الحزبى فى الشعب ، أو اذاعة المثل الأعلى الذى يفرض على المرء أن يعيش حياة بسيطة جاهدة وما الى ذلك .

والحق ان هذه أمور لا يستطيع الفن ان يقوم بها أكثر مما تستطيع الهندسة فهل عجز الهندسة هذا يجردها من حقها فى الاحترام ؟ فليت شعرى لم يجردون الفن من مثل هذا الحق فى مثل هذه الحال .

وهنا يكاد يلتقى عبد القاهر الجرجانى مع كروتشة . فلقد نعى عبد القاهر على من يرون الحسن فى الحكمة السائرة ، والخلق السائد ، لا يتجاوزون هذه الحدود ولم يذكر سوى الصورة الأدبية أساسا للحسن ، وهى التى يتوافر فيها حسن النظم سواء اشتملت على حكمة أم لا ، ولا يشترط عبد القاهر غاية اجتماعية أو خلقية للكاتب ، ومتى حسنت الصورة الأدبية باستكمال حسن النظم ، وحسن الألفاظ فى مواقعها فقد حسن الكلام .

الا أننا نرى الأمر يأخذ وضعا آخر على يد « سارتر » الذى لا يقر الالتزام فى الشعر فهو بذلك يوافق رأى كروتشة وعبد القاهر ، وان أقره فى النثر ، ذلك ان لغة الشعر كثيفة ،ولغة النثر شفافة ، فالشاعر يعتمد فى جلاء مشاعره على الصور لا على الشخصيات والأحداث ، وتعتمد الصور على قوتها الايحائية فى الألفاظ والجمل ... وبذلك تصبح الكلمات فى التصوير أشبه بالألوان فى الرسم ، أو الأنغام فى الموسيقى فتسيطر على العواطف وتنفذ فيها ، وتصبح بذلك لها كثافة الأشياء كلوحة الرسام ، فاللغة الشعرية ليست أداة للوصول الى حقيقة ما .

٢ - موقف الجارم من الصراع بين القديم والحديث

ويبدو أن مفهوم الجارم عن الشعر كان نتيجة الدراسة ، لا نتيجة الاستعداد والفطرة ، اذ الواقع ان الجارم كان ينحاز دائما الى جانب الشعراء التقليديين الذين لم ينتفعوا بالثقافة الأوروبية ، على الرغم من معرفته بها ، ودراسته لها ، وعلى الرغم من هجوم كثير من النقاد عليه ، ومحاولتهم الخروج به من عزلة التقليد الى خصوبة الابتكار والافتنان .

يقول الأستاذ أحمد الشايب فى عام ١٩٢٩ موجها حديثه الى

الجارم فى صحيفة كوكب الشرق: مهما يكن من شيء فما رأى الأستاذ الجارم اذا قلت له : انك مقصر فى الانتفاع بالأدب الغربى ، والشعر خاصة ما دمت تجيد اللغة الانجليزية ، نعم مقصر على رغم انتفاعه بذلك ، فكان المنتظر من مثله وهو يتقن الأدب العربى أن يهضم فيه من أدب الغرب ما يلائم حياتنا الأدبية الحديثة التى ترتكز الى درجة قوية على الثقافة الأجنبية ، ومنه وحده كنا نحصل على تلك الروح الجديدة تختال فى حلل عربية جميلة ، فيريحنا من تلك الطائفة التى تحاول نقل الروح الانجليزية أو الفرنسية فاذا بهـــا تتعثر فى أساليب خاطئة ، وتتسـكع فى ألوان من اللفظ تنبو عن الذوق الصافى والطبع السليم ، وعلى كل ، فللجارم شعر فى فنون شتى تقوى فيه الروح العربية ، وتتوارى الروح الانجليزية .

ولكن الجارم يصم اذنيه ، أو قد لا يواتيه طبعه فيمضى فى طريقه التقليدى غير آبه بكلام النقاد ، ولا ملتفت اليه .. والأدهى من ذلك هجومه على المجددين من الشـعراء فى أخريات حياته . ففى سنة ١٩٤٧ يقول فى ذكرى حافظ وشوقى :

سكت العندليب فى وحشة الدو ... ح ، وغنت نواعق الغربـــان

فسمعنا من النشـوز افانيـــ ... ن يروعن صادح الأفنـــان

اسمعونا برغمنا فصبرنـــا ... ثم ثرنا غيظـــا على الآذان

جلبوا للقريض ثوبا من الغر ... ب ولم يجلبوا سوى الأكفـان

ثم قالوا مجددون فأهلا ... بصناديد أخريات الزمـــان

لا تثوروا على تراث امرىء القيـ ... ـس وصونوا ديباجة الذبيانى

واتركوا هذه المعاول باللـــ ... ـــه ، فانى اخشى على البنيان

واحفظوا اللفظ والأساليب والذو ... ق ، وهاتوا ما شئتم من معان

ما لسـان القريض من عربى ... كلسان القريض من طمطمانى

انما الشعر قطعة منك ليست — من دمـاء اللاتين واليونـان
كل فن له مكـان وأهـل — ان غدا العلم مـاله من مكان
ان رأيتم اخوة العود للجـز — بند فابكوا سـلالة العيدان
لا يهز النخيل الا حنان النـ — ـاى فى صمت ليلة من حنان
وجهة الشرق غير وجهة الغـ — ـرب فأنى وكيف يلتقيان

« .... ولكن الواقع أن احدا من أنصار التجديد فى مصر لم يجلب للقريض ثوبا من الغـرب ، وقد احتفظوا جميعا باللفظ والأساليب والذوق ، وبخاصة فى مصر التى تختلف فيها حركة التجديد الشعرى والأدبى عنها عند شعراء المهجر الذين قد يمكن مؤاخذة بعضهم بالتهاون فى الصياغة اللفظية ، وفى فصاحة اللغة . كما ان انصار التجديد لم ينكروا أن الشـعر قطعة منهم ومن مجتمعهم ، وليس من دماء اللاتين واليونان ، ولكنهم اختلفوا مع المقلدين انصار عمود الشعر فى مادة الشعر ذاتها ، وطالبوا بالا تظل تلك المادة حبيسة فى نطاق مالاكته السنة القدماء ، والا تظل صياغتها خاضعة للقوالب القديمة ، كما طالبوا بالا يظل الشـعر صناعة زخرفية لا تسـتند الا الى المهارة اللفظية ، أو التوليدات المتعفنة ، وقد هدتهم ثقافتهم الواسعة التى أخذوها عن الغرب الى ان هناك اغوارا فى النفس البشرية وأسرارا فى الطبيعة ، كما ان هناك من مواضع الجمال ومثيرات الشجون والآلام والآمال ما لم يقع عليه قدماء العرب بينما نفذ اليه الغربيون، وذلك فضلا عما استنبطه الغرب من اسرار الصياغة الشعرية ، ووسائل التصوير والايحاء ، وهم لا يريدون استعارة الأثواب من الغرب ، ولا اسـتعارة مادة الشعر من حياة اليونان أو الفرنسيس وانما يريدون أن يسلكوا فى الشعر العربي الحديث المسـالك والاتجاهات التى سـلكها

الغربيون ، وذلك ليستخرجوا من حياتهم ومن طبيعة بلادهم اسرارها المماثلة لما استخرجه الغربيون من حياتهم وطبيعة بلادهم ، ومجتمعهم ، وان يستعينوا بنفس المبادىء والأصول اللغوية التى طبقها الغربيون على لغاتهم ٠

٣ ـ أثر البيئة والنشأة فى تشكيل شعره ، وتحديد اغراضه :

وبطبيعة الحال لن نستطيع أن نحمل الجارم وحده وزر هذا الاتجاه المحافظ فان للبيئة والتربية والثقافة وأسلوب الحياة الذى فرض عليه أثرها فى تشكيل شعره ، وطبعه بهذا الطابع ، ومن العبث أن نطلب من الجارم أن يجدد ويثور ، فلن يثور الجارم حتى لو اراد لانه ابن بيئته وتربيته وثقافته التى طبعته بطابعها ٠

لقد نشأ فى رشيد فى بيت علم ودين ، ورشيد بلده تمثل جلال التاريخ على الأقل فى نظر ابنائها ، وبيت الجارم فى رشيد يمثل على الأقل فى نظر ابنائه موقفا معينا اتجهت اليه فيه الانظار أثناء الحملة الفرنسية وقبلها بقليل ٠ وآباء الجارم علماء ، وأجداده لامه تجار ، وتربيته فى بادىء حياته اتجهت الى الكتاب ثم الى الأزهر ، والأزهر يمثل الى حد كبير بمبانيه التاريخية الأثرية ، وكتبه الصفراء القديمة ، وأساتذته المقلدين أكثر من اللازم أكبر معقل للمحافظة استطاع ان يمتد داخل القرن العشرين بأفكار ما قبل القرن العشرين ، ثم دار العلوم وحيرتها بين التجديد والتقليد وميلها فى حقيقة الأمر الى التقليد لعدم معرفتها باللغات فاساتذة دار العلوم ٠

فتنوا بالعذيب والسفح والجزع ووادى العقيق والصمان

كل ذلك طبع الجارم بهذا الطابع المحافظ المقلد ، الذى تعذر عليه التخلص منه حتى بعد ان سافر الى البعثة ، ومكث فى انجلترا

أربع سنوات درس فيها اللغة الانجليزية واتقنها ، ونال بها دبلوما فى التربية وعلم النفس لان الرواسب القديمة كانت تشده دائما الى المحافظة فبعد الثلاثين لن يستطيع الانســـان ان يتخلص من طبيعته التى نشأ عليها ..

والأديب الدرعمى بخاصة حينما كان يسافر عضوا فى البعثة فى مطلع هذا القرن كان يضع نصب عينيه دائما ما قاله الأستاذ « عادل الغضبان » وهو يودع صديقه « محمد عبد الغنى حسن » عضو البعثة لانجلترة .

وكن هنالك شرقيا يجول به دم العروبة من بدو ومن حضر

يقدس اللغة الفصحى وينصرها شأن امرىء فى سبيل الحق منتصر

ولقد كان محمد عبد الغنى حسن يقدس اللغة الفصحى كما اراد صديقه ، وكان الجارم قبله يقدسها الى درجة أعمت كليهما عن أن يريا غيرها ، لقد كان كلاهما يعيش فى انجلترا ولا يشعر الا بلهيب صحراء البادية ..

كان الجارم دائما ينعت اللغة العربية بأنها اللغة الشريفـــة ، ويعلل أزدهار الأدب فى العصر العباسى بأن الأعاجم الذين قذفت بهم أمواج الفتوح الى الشاطىء العربى ، والذين توثبوا بعد ذلك الى الملك لم تكن لهم لغة جديرة بالاحياء والانتعاش وكان يحس أنه اذا مات فستندبه الفصحى .

ستندبنى الفصحى اذا مت قبلها ومات الذى فى الناس ليس له ند

لقد كان الجارم وأمثاله يشعر بشعور «محسن» ويفكر بتفكيره فى كتاب « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ، يوم ذهب بعـد الحرب العالمية الأولى الى الغرب فهم يهيمون مثله باحثين هناك عن

الروح ••• وتسيطر على تفكيرهم مثله فكرة واحدة : هى روحانية الشرق وعظمتها ومواضعها ومنابعها • ثم يسيرون خلف « محسن » الآخر فى كتاب « عودة الروح » ينقبون كما نقب عن منبع ميراثهم الثقافى والروحى فى رواسب الآلاف من السنين الكامنة فى ضمير مصر وريفها وأهلها الصادقين •• ويعتزون مثله بأصالة الشعب المصرى ••• ويرددون الفاظه المباهية بعراقته وحضارته ••• من الخير بالطبع أن ندع هذا الشاب يعيش فى مثل هـذه المشـاعر والأفكار ، لكن من الخير أيضا أن نقول له : قدس ماضيك دون ان تذهب فى ذلك التقديس الى الحد الذى يجعلك توصد روحك دون تلقى كل جديد ينفعك ولو كان ذرة من أشعة • اغترف بشجاعة من كل منبع ، وخذ من كل ميراث لتثرى نفسك ، ويتسع أفقك •

ولقد اتصل الجارم بالأدب الغربى واستوى له ، وكان يملك فى مكتبته دائرة المعارف البريطانية كلها ، ويقرأ كثيرا فى الأدب الانجليزى ولكنه كان يحس من أعماقه بحاجة ملحة الى التبحر فى اللغة العربية ، وفى الشعر العربى بخاصة لكى يجد فيه حاجته من غذاء متصل لموسيقى النظم مما لا سبيل الى ابتغاء العوض عنه فى غيره ، ولقد نضجت اللغة فى نفسه ولكن لم يقف من نواحى البحث عند هذا الحد ، بل اندفع فى هذه الناحية الى درجة التأثر بالشعر القديم ، وأخذ كل شىء عنه •

ولقد ساعده على ذلك اتصاله بالمجمع اللغوى ، وفى المجمع وجد الشاعر بيئته فكان مهيا لما خلق له « ان الارستقراطية حتى لو كانت عقلية محضة كصفوة مختارة ، أو مجمع علمى ، أميل فى الغالب الى المحافظة فاذا سلمنا بأنها تضم أقدر العقول على فهم الفن فى المرحلة التى وصل اليها العصر فانها لا تضم دائما أقدر الناس على فهم فن النقد ، والعبقرى لا ينصاع لذوق عصر من العصور ، اذا

كان هذا الذوق فاسدا بل يحاول أن يصلحه ، واصلاح ذوق عصر من العصور ، أسهل فى الغالب من اصـــــلاح ذوق مجمع علمى ـ أكاديميا .

٤ ـ حديث الجارم عن شعره :

والجارم كثير الحديث عن شعره ، كثير الافتتان به ، والمدح له، ولقد فكرت فى ذلك ، وأخذت أبحث عن سر هذه الظاهرة ، وأستوحى أبياته وقصائده وأتساءل : لم ينتهز الجارم الفرصة دائما فيعرج فى أثناء قصائده على شعره ليصفه ويؤكد روعته ؟

ومما زاد فى محاولتى للاجابة على هذا السؤال وجود عـــدد كثير من الشعراء الذين عاصروا الجارم ، وكانت لهم روائع خالدة كفيلة بأن تحد من هذا الاطراء المبالغ فيه بالتأكيد .

وعندى ان ذلك يرجع الى :

(أ) حالة نفسية .

(ب) ظاهرة أدبية تقليدية .

(أ) أما الحالة النفسية فلقد سيطرت على الشاعر فأعمته عن رؤية هذه الكثرة النابغة من الشعراء المعاصرين ، وبخاصة بعد موت شوقى وحافظ . لقد كان يدرك عن عقيدة ان الشعر العربى انمـــا يتمثل فى أمثال حسان والبحترى ، والمتنبى ، والبارودى ، وشوقى

أما هؤلاء الذين ينتمون الى مدرسة الديوان فليسوا بأمثـلة رائعة فى الشعر الحديث لأنهم لم يعطوا لنا النماذج القـــوية التى تستطيع أن تقف أمام شعراء العربية العظام الذين يحترمهم ويعجب بفنهم ، لقد طغت المعانى ، وطغى التحليل العقلى ، والاتجاه الواقعى على هذه المدرسة التى لم تفتن الجماهير ، ولم تسيطر على عواطفهم .

وكذلك الشعراء الذين يلتفون حول مجلة « أبوللو » لأنهم فى نظره يترسمون خطى الغربيين ويقلدونهم ، فهم خارجون على امارة الشعر متمردون على تراث الآباء والأجداد ٠

ولقد مات شوقى وحافظ ، وخلا الميدان من فارسيه ، والجارم شاعر كبير ، يسير على منوال الامير الراحل ، ويتتبع خطاه ، ويقول الشعر عن موهبة وفطرة ٠

والطير ان صدحت بلا بلد صدحن بغير كد

فلم لا يكون أميرا للشعراء ؟ لقد أصبح وحده فى الميدان ٠

ان القصر الملكى لينتظر منه الكثير فى كل مناسبة ، والمجمع اللغوى يعده من أقطابه ، ومنصبه فى وظائف الحكومة ، وانتدابه فى كثير من المؤتمرات الأدبية كشاعر رسمى للدولة ، كل ذلك يؤهله لامارة الشعر ٠

ولقد تتبعت نماء هذه الحالة فى شعره فوجدته يقول مادحا:

غناك شعرى فاستمع لغنائه ان البلابل فى الخميلة نـدر

ما كل من عرك المزاهر معبد يوما ، ولا كل المواضع عبقـر

ان الرماح حدائد منبوذة حتى يثقف جانبيها سمهر

وفى هذا اعتراف بأن هناك بلابل غيره ، ولكنها نادرة ٠

ثم يقول بعد ذلك فى المدح :

شدوت باسمك حتى صرت من طرب
أظنني ذا جناح بين أطيار

فان سمعت رنينا كله عجب
فالعود عودى والأوتار أوتارى

وفى هذا اعتداد بنفسه ، وبشاعريته الى درجة طغت على غيره من الشعراء لأن الرنين المعجب انما هو من عود الجارم وأوتاره ٠

وتظل الحالة تنمو الى أن يوجه خطابه فى سنة ١٩٣٧ الى أحد الأعياد الرسمية فيقول :

أصبحت وحدك فى الزمـــا ن وصرت فى الشعراء وحدى

عندى لك الدرر الحســـا ن وأين ان لم تلف عنـدى

وفى تعبيره بصرت دليل واضح على نماء هذه الحالة فى نفسه لأن الصيرورة تدل على انتقاله من حالة الى أخرى ٠ فلقد صار فى الميدان وحيدا ٠ فاذا ما عدنا الى ما قبل وفاة الشاعرين وجدنا هذه الظاهرة غير ظاهرة اطلاقا ، وذلك باستقراء شعره طيلة أربعين حسنة من حياته ٠

(ب) وأما كونها ظاهرة أدبية تقليدية فالأدلة عليها كثيرة فى شعر كبار الشعراء العرب ، فصعوبة الخلق الفنى ، وسـيطرة الشاعر عليه ، وامتلاكه لناصيته قد دفع بكثير من شعراءالعربية الى التغنى بجمال أشعارهم وروعتها اليس المتنبى هو القائل :

وما الدهر الا من رواة قصائدى
اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشـدا

فسار به من لا يسـير مشـمرا
وغنى بـه من لا يغنى مغـردا ٠٠

أجزنى اذا أنشدت شـعرا فانما
بشـعرى اتاك المادحون مرددا

ودع كل صـوت غـير صوتى فاننى
أنا الطائر المحكى والآخـر الصـدى

ثم ألم يقل شوقى فى كارثة دمشق سنة ١٩٢٦ ونكبتها بالاحتلال ، والمقام هنا مقام حسرة وحزن ، ولكن أمير الشعراء لم ينس نفسه ، ولا روح الدعاية لفنه :

وحولى فتية غر صباح — لهم فى الفضل غايات وسبق
على لهواتهم شعراء لسن — وفى اعطافهم خطباء شدق
رواة قصائدى فاعجب لشعر — بكل محلة يرويه .. خلق

ولعل من النادر ألا نجد شاعرا حدثنا عن شعره ، ودواوين الشعراء مملوءة والجارم بعد هذا ليس بدعا حينما يقول مخاطبا بلدته رشيد :

غنى لك القلم الذى أرهفته — أرأيت كيف تغرد الأقلام ؟
هذا وليدك جاء ينشد شعره — ما كل ما تحوى الخيوط نظام
اصغى له الوادى وغنت باسمه — بغداد واهتزت اليه الشام
ان قال مال له الوجود بسمعه — ورنت له الأسماع والافهام
ملك العصى من القريض بسحره — طوعا فما استعصى عليه خطام

وأخيرا لا بد أن نعرض للنواحى التى لفتت ذهن الشاعر فتحدث عنها مفتخرا بها ، أو مؤكدا لمعناها .

وأهم هذه النواحى :

(أ) عملية الخلق الفنى .
(ب) مقومات شعره من ناحية الشكل والمضمون .
(ج) الوحدة الشعرية .
(د) قصور شعره أحيانا .

(أ) أما عملية الخلق فلقد تحدث عنها فى أكثر من موضع ، وحديثه لم يخرج عن ان عملية الخلق تتم فى هدوء الليل حيث كان يجلس فى احدى حجرات داره وفى يده قلم يخط به كلمات يثبتها حينا ، ويشطب فوقها حينا ، ثم يقف مفكرا حينا ، وعيناه ذاهلتان فى السقف ، وفى أرجاء الحجرة كأنه يتلقف الخيال الطائر ، أو يستهوى الوحى الحائر ، ثم يستعين بهذا الهدوء على استهواء عرائس خياله المراوغة ، بالضراعة حينا ، وبالتغريد بالشعر أحيانا فتلين له ، وتنثنى عائدة اليه، فيمسك بالقادمتين بعد أن تكون قد وقعت فى شركه :

كم ليلة سامرت شعرى لاهيا   والنجم يلحظنا بعين حسود
حينا يراوغنى فأنظر ضارعا   فيلين بعد تنكر وجحود
ولقد أغرد بالقريض فانثنى   فأنال قادمتيه بالتغريد

وعرائس خياله هنا ذلولة ، لطيفة ، سهلة القياد .

(ب) مقومات شعره :

وأما مقومات شعره ، فلقد تحدث عنها كثيرا ، تحدث عن الشكل والمضمون كما يتحدث كثير من نقاد العرب وشعرائهم ، وأوهمنا انه من هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يفرقوا بين الشكل والمضمون لأن العمل الادبى الممتاز لا بد أن يخلق بالكيفية التى خرج بها الى الوجود فالألفاظ والمعانى من هذه الناحية ممتزجتان لأنهما يمثلان الخلق الأدبى فى وحدة تامة « ان جمال الشعر فى نظمه وجرسه ، ورنينه ، وفى انتقاء الفاظه وتجانسها ، وفى ترتيب هذه الألفاظ ترتيبا يبرز المعنى فى أروع صورة وأبدعها ، وفى اختيار الاسلوب الذى يليق بالمعنى ويليق به فمرة يكون اخبارا ، ومرة يكون استفهاما ومرة يكون

استنكارا ومرة يكون نفيا ، ومرة يكون تعجبا ، كل ذلك يكون مع المحافظة على الأسلوب العربى الصميم ·

ثم فى المعانى وابتكارها أو توليدها من القديم فى صورة جديدة رائعة ثم فى الخيال وحسن تصويره ، والتزام الذوق العربى فيه ، ثم فى احكام القافية والتمهيد اليها ، ثم فى انتقاء البحر الذى يلائم موضوع القصيد ثم فى التنقل فى القصيدة فى فنون شتى من القول مع المحافظة على الوحدة الشعرية ، ثم فى روح الشاعر وخفة ظله ، وانسياقه مع الطبع وتعمده لمس مواطن الشعور ·

ولا يكون جمال الشعر دائما بالمجاز والتشبيه وضروب التزويق اللفظى وانما جماله فى استعداده للنفاذ الى النفس ، والوصول الى القلب على أى صورة كان ، وفى أى ثوب يكون ، ولأمر ما كان لبعض الشعر الجاهلى منزلته التى لا تسامى ، ومحله الذى لا ينازع ولأمر ما هوى الشعر صريعا يلهث حينما أثقله المتأخرون بنفائس الحلى وأنواع الحلل ·

هذه هى نظرية الجارم فى الشعر ، وهى كما ترى واضحة غير أن ترتيبها على هذه الصورة يفيد ترجيح جانب اللفظ على جانب المعنى ويفضل الشكل على المضمون ، وان كان قد حاول مرارا أن يوهمنا بأنه لا يستطيع أن يفرق بين الشكل والمضمون ·

لقد بدأ بالنظم والجرس والرنين وانتقاء الالفاظ وتجانسها وترتيبها ثم ذكر المعانى وابتكارها أو توليدها من القديم ، وفى الاتيان « بثم » التى تفيد الترتيب ما يدل على ذلك ، وبنفس التعليل نستطيع أن نقول ان الخيال يحتل المرتبة الثالثة ، ثم البحر الذى يلائم موضوع القصيدة ثم الوحدة الشعرية ·

ولا يدخل فى روعنا ما ذكره الجارم فى ثنايا شعره عن انه

المعانى العظيمة لا بد أن تخرج فى أثواب تناسبها فى العظمة والجلال والا فالعيب كله فى الثوب الذى لا يتناسب ، أما لأن المعنى فيه قزم فهو فضفاض ، وأما لأن المعنى عظيم فهو قصير غير مستوعب ٠

واذا جلت المعـــانى تسـامت عن قيود الافعــال والأســماء
يتـــأبى الســـيل الذى يصـــدع الاجيال أن يحتويه جوف اناء
واذا لم تع المعـــانى فنقب تجد العيب كله فى الوعـــاء
بين معنى قزم يجـــر رداءه ، ومعنى ضـخم قصير الرداء
رب فكر فى النفس وهو مضىء أخمدته فهـــاهة الفأفــاء

وبقليل من التتبع نجد ان الشاعر يتغنى بالصناعة بل لعلى لا أكون مبالغا حينما أقول ان افتنان الجارم بشعره كان يتجه دائما الى جمال اللفظ ورنينه أكثر مما يرجع الى عمق المعنى وابتكاره ٠

لقد قطفنا لك الأزهار باسمة وفى عقود من الفصحى نظمناها
وقد جمعنا من الالحان أغنيـــة لو يفهم الطير معناها لغناهـــا
ولم ندع من فنون السحر سانحة طافت بمعنى العلا الا لمحناهـــا

***

والجارم يعيش حياته للفن بين الظلال وبين السلسل الجارى يشدو فيفتن الطير حتى ترق يراعه وقد حسبته سن منقار :

وعشت للفن أحيـــا فى بدائعـه
بين الظلال وبين السلسل الجـــارى
اشدو فان شئت أن تصغى لساجعـــة
من الخلود فأنصـــت تحت أوكارى

كادت تزق يراعى الطير تحسبه
وقد تغنى بشعرى سن منقــار

قد علمته التغـــنى فوق ايكتــه
ففاقهـا فى التغنى فوق اسطـــار

كأن داود القى عنـد بريتـه
اثـــارة من ترانيـــم وأســـرار

ومالنا نذهب بعيدا والشاعر قد صرح بأن المعانى عبيد للألفاظ حينما يقول :

قد نقدنا لك القوافى صحاحـا مثلما ينقد الشحيح النقـــودا
وجمعنا حر الكلام الذى عـــز فأضحت له المعانى عبيـــدا
وحشدنا الألفاظ أنقى من الما ء وأشهى مســاغة وورودا
وبعثنا الخيال سحرا من السحـ ر ونهجا من البيان ســـديدا
طار فى الجو ما يمل رفيقـــا وطوى الأرض ما يمل وخيـــدا

والجارم هنا يتمشى مع طبيعة المذهب الكلاسيكى الذى يفضـل الشكل على المضمون سواء أكان فى الأدب العـــربى أو فى الأدب الأوروبى ٠

وهو هنا يسير مع الجاحظ فى رأيه الذى يقول فيه : ان المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها كل أحد ، وانما الفضل للصياغة ، ومع أبى هلال الذى يقول : وليس الشعر فى ايراد المعانى لأن المعـــانى يعرفها العربى ، والعجمى ، والقروى ، والبدوى، وانما هو فى جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب ولا يطلب من المعنى الا أن يكون صوابا ٠

وهذا شبيه بقول « جيرودو » الكاتب الفرنسى (١٨٨٢ — ١٩٤٤) المسألة أولا مسألة أسلوب وتأتى بعد ذلك الفكرة ٠

ولست أدرى لم لم يلتفت الجارم الى نظرية عبد القاهر فى النظم مع انه قد قرأ كتابيه « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز »

كما لم يلتفت الى ابن رشيق الذى يقول : ان اللفظ جسم روحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ

مع أن هذا هو الرأى الاصوب فى مشكلة « الشكل والمضمون» وهو يتمشى مع نظرية كبار النقاد وفلاسفة الجمال يقول«بندكروتشة» فسيان اذن أن نعد الفن مضمونا أو صورة شريطة أن يكون المفهوم دائما أن المضمون قد برز فى صورة وأن الصورة ممتلئة بالمضمون أى أن الشعور المصور ، وأن الصورة هى الصورة المشعور بها ٠

فاذا ما اتجهنا الى المقومات المعنوية نراه يكاد يحصرها فى أمور محددة وواضحة ٠

أولها : الاتجاه الخلقى فى شعره ، فهو يكثر من الحديث عن الأخلاق والدين ، ويقول عن شعره :

طهرته من كل ما تأبى النهى ويعافه سمع الحسان الخود

وبعثت فيه تجاربا مذخورة هى كل أموالى وكل رصيدى

ويقصد بالتجارب هنا الحكم التى كان يجيدها كثير من أمثاله ولا شك أن للنشأة والتربية أثرها فى هذا الاتجاه فهو يقول :

ان دعاتا الهوى لغير سديد سددتنا كرائم الأحساب

والقائل :

قد ولجنا الحياة فى كل باب فرأينا الأخلاق باب النجاة

أما الدين فهو طب النفس ، وسلوة الحزين ، وكثيرا ما تخلل رثاؤه ذكرى الدين كآية على عظمة المرئى ، كما تخلل مدحه ذكرى الدين كآية على عظمة الممدوح :

الدين طب النفس من آلامها وهداية الحيران فى بيدائه

الدين سلوى النفس فى آلامها وطبيبها من أدمع وجراح

أودعته حزنى فلم تعبث به شكوى ولا صدع الدجى بنواح

* * *

لا تضل الشعوب مصباحها العلم يؤاخيه راسخ الايمان

ولعل هذا الاتجاه الأخلاقى الدينى عنده هو الذى جعله يقف فى طريق « نجيب محفوظ » حينما تقدم بثلاث من رواياته الىمسابقة الرواية التى يقيمها المجمع اللغوى ، وكانت الروايات « القاهرة الجديدة » و « خان الخليلى » و « زقاق المدق » واستقر رأى أغلبية أعضاء اللجنة على أن تكون الجائزة لرواية « زقاق المدق » ما عدا عضوا واحدا رفضها رفضا باتا ، بل هدد بالاستقالة ، كان ذلكالعضو هو المرحوم الأستاذ « على الجارم » وكان رفضه مبنيا على أن رواية ، « زقاق المدق » تضم عددا كبيرا من الشخصيات ذات الاخلاقالفاسدة وأنها لا يمكن أن تحظى بجائزة من هيئة موقرة كالمجمع اللغوى ،وأن كاتبها يستحق العقاب أكثر مما يستحق التقدير ٠

ولقد وقع أعضاء اللجنة فى معركة بين العقل والعاطفة ،فالعقل يقول : لا يجوز الحكم على عمل فنى على ضوء الاعتبارات الخلقية ، والعاطفة تقول : لا ينبغى أن يستقيل الجارم !

وأخيرا تمكن المرحوم « عبد القادر المازنى » من حل المشكلة ، فاقترح اعطاء الجائزة على روايـــــة غير زقاق المدق حتى لا يغضب الجارم .

والواضح من هذه الحادثة أن الجارم كان يرى أن غاية الفن يجب أن تكون أخلاقية اجتماعية ، وهو على ضوء الدراسات السابقة المتقدمة يوافق أغلبية النقاد الذين يرون فى الأدب والفن هـــذه الغاية .

ومن المقومات المعنوية التى تحدث عنها الجارم هذه الرســالة التى حملها اباؤه فلقد كان شعره صدى لروحه ، وخفقة لنفسه ، ثم أهداه الى مصر وأبناء مصر ، وأشاد فيه بالشرق ، وأبناء الشرق ، وشدا بالبطولة والابطال ، وحفز به شباب العروبة الى الاعتزازبقومهم والتغنى بالشرف التالد والمجد القديم .

أعددته قيســا يذكى توقــده عزم الشباب ويهدى ليلةالسارى
ويكشف الأمل المحجوبساطعه واليأس يغشىبأسداف وأستار

شعر نصر الفصحى فنصرته ، وصان لها ديباجتها فصانته ، وخط للناشئين مثالا فيه نبل القديم ، وجدة الحديث ، وأبان أن العربية تستطيع أن تقول فى كل شيء دون أن يمسها من آفات الضحمة شيء .

ضننت به فلم يهتف لعمـــرو ولم تستهوه بسمات ســعدى
وصنت لهاته عن كل لغو له خد الفتى العربى ينـــدى
تلثم بالاباء فعــاش حــرا ولو عرف الرياء لمـات عبــدا
يهز حمية الفتيان نصـــلا ويحشد رابض العزمات جندا
ويشعل فى القلوب وميض نار كنيران الكليم هوى ورشــدا
ويشـــدو بالمروءة ان تراءت وبالصنع الجميل اذا تبــدى

وهو بذلك يضع الخطوط العريضة لأغراض شعره ومعانيه ٠

(جـ) الوحدة الشعرية

يحدثنا عن الوحدة الشعرية فيقول : « ان جمال الشعر يكون أيضا فى احكام القافية ، والتمهيد اليها ، ثم فى انتقاء البحر الذى الذى يلائم موضوع القصيد ، ثم فى التنقل فى القصيدة فى فنون شتى من القول مع المحافظة على الوحدة الشعرية ٠

ولست أدرى أين هى الوحدة الشعرية فى هذه القصيدة التى ينتقل فيها الشاعر فى فنون شتى من القول

أهى وحدة الموضوع ؟! أهى وحدة العنوان ؟!

أما الجارم فلقد سمع من غير شك عن هذه الوحدة للقصيدة التى نادت بها مدرسة الديوان ، ولكنه لم يتأثر بها ، أو تستطع هذه الوحدة ان تطغى على ثقافته العربية الأصيلة ٠

فاذا أخذنا مثلا « قصيدته الطويلة التى ألقاها فى المؤتمر الطبى الذى عقد ببيروت سنة ١٩٤٤ ، وجدناه يستهلها بالغزل فيقول :

ألقيت للغيد الملاح سلاحى ورجعت أغسل بالدموع جراحى

ثم ينتقل الى وصف الرحلة الذى يبدأه بقوله :

سر يا قطار ففى فؤادى مرجل يزجيك بين متالع وبطاح

وان يكن من الحق أن نلاحظ أنه لم يقل سر يا بعير !! ثم ينتقل الى وصف لبنان ومفاتنها ، وفى النهاية يصل الى المؤتمر ، ما يرجى منه من خدمة للعلم وللانسانية ، مثيرا همة العرب ، مسديا اليهم غالى النصح ، وفى النهاية يعود الى لبنان ليطربه ويطرى ضيافته ٠

(د) هذا الشعر الرائع العظيم ـ كما يقول الجارم ـ لا يعجزه شيء الا وصف مناقب ممدوحه ،ولعل الجارم هنا كان مقلدا أيضا ، فكثير من الشعراء عجزوا عن وصف مناقب ممدوحيهم ٠

يقول أبو فراس الحمدانى لسيف الدولة :

ألا قل لسيف الدولة القرم   أننى على كل شيء غير وصفك قادر

ويتضاءل حافظ ابراهيم أمام الخديوى عباس وشاعره فيقول :

لم يبق أحمد من قول أحاوله   فى مدح ذاتك فاعذرنى ولا تعب

ويذيع الشيخ عبد العزيز البشرى سنة ١٩٣٣ بمناسبة عيد ميلاد فؤاد فيقول : ان من الغرور وشدة الذهاب بالنفس أن أزعم أو يزعم غيرى أنه يستطيع فى كلمات أو فى خطبه مهما أسبغها وأضفاها أن يلم بمناقب صاحب الجلالة وآثاره الضخام فذلك ما ينبغى أن تحفل به الكتب ويرتصد لنظمة التاريخ الطويل ٠

ولهذا لا نعجب أن يقول الجارم مثل :

عجز الشعر أن ينال مداكم   وكبت دون وصفكم أمدا حى

كن كما شئت أيها الشعر فنا   نا فلن تستطيع لمح صفاته

ومثل :

أجهد الشعر أن يرى عزمات   يعجز الوصف دونها وجهودا

ومعانيك لا تحد فماذا   يعمل الشعر قاصدا مجهودا

واذا ما البيان عق لبيدا!   فى المقام المهيب فاعذر لبيدا

ومثل :

حوت ريشة الرسام بعض صفاته   وعزت على ريش القريض مناقبه

ومثل :

حار القريض وكيف أبلغ غــاية هى فوقطوق براعتى وجهودى؟
أعددت أيامى لأرسم صـــورة أين السها من ساعدى المكدود؟

وبعد :

فى هذه الدراسة نرى أن الجارم يرسم لشعره رسالة انسانية كبرى ، وينظر الى الحياة نظرة عميقة نافذة ٠

وليت شعرى هل استطاع أن يؤدى رسالته الشعرية كما تحدث عنها وكما تناولناها بالتوضيح والتمليق آنفا ، أم أنها فقط خيالات شاعر استطاع أن يتصل لحظة بالعالم الكبير ليستلهم ربة الشعرمقدمة لديوانه ورحلة ممتعة لخياله ؟

أما أنا فأرى أن الاجابة على هذا السؤال ستتولاها الفصول الآتية ، وسوف نحاسب الجارم على أساس ما قدمه فى هذا الفصل من نظرات !!

الفصل الثاني

أغراض شعره

المــدح :

١ ـ منزلة المديح فى العصر الحديث :

لقد هاجم كثير من النقاد فن المديح فى النصف الأول من القرن العشرين ، وبنوا هذا الهجوم على أن الحياة فى العصر الحديث ، عصر الشعوب ، تختلف اختلافا بينا عن الحياة فى العصور السابقة ـ عصر الخلفاء ، والسلاطين ، والملوك !

ولونوا هذا الهجوم بأساليب وبراهين وحجج تدل على الصدق والاخلاص فى الرغبة فى القضاء على هذا اللون الأدبى الذى غمر الشعر العربى فى تياره وحال بينه وبين الانطـلاق فى أجواء فنية أروع وأعظم من شعر المديح ٠

ومن ثم فلقد أعلنوها حربا شعواء على شعر المناسبات ، وعلى الشعراء التقليديين وأثاروا معارك فيها كثير من العنف ، وكثير من القسوة ولكنها لم تسفر عن نتيجة واضحة لأن هؤلاء المهاجمين قد انتقلوا دون أن يشعروا الى صفوف خصومهم ، ووقعوا فيما أرادوا أن يمنعوا غيرهم من الوقوع فيه !

ومن العجيب أنهم لم يشعروا بذلك ، ولم يسألوا أنفسهم أين يقفون من الميدان ٠ ولا الى أى طريق يسيرون !

وانما اندفعوا وراء هذه النظريات المستحدثة ، والأفكار الرائعة والرغبة المخلصة فى الخروج بالأدب العربى من عزلته ، وانفراديته الى أجواء فسيحة من الحرية والانطلاق ·

ان أدبنا كان يجب منذ عام ١٨٨٢ أن يكون شعبيا ثوريا يكافح بالفكرة والكلمة هؤلاء المستعمرين، والمستبدين، وكان يجب أن يكون على الدوام مع الشعب يقف الى صف الفلاح الذى يحمل الفأس ، والحوذى الذى يسوق فرسيه ، والصانع الذى يصوغ الأساس ، والطالب الذى يعجز عن أداء المصروفات ، والموظف الذى يعمل طول النهار لقاء جنيهات لا تكفى طعام أولاده ·

هذا صحيح ، ولكنهم نسوا روح هذه الفترة التى شنوا فيها هذا الهجوم لقد كانت روحا فردية بحتة ، فالمليك فرد يتمتع بسلطة شبه مطلقة ، والوزراء وكبار الحزبيين أفراد يتمتعون فى وزاراتهم وفى مقاطعاتهم بروح فردية شبه مطلقة أيضا ، والصحافة حزبية وفردية تعيش على الاستجداء والنفاق ومعونات الحزبيين وكل شىء يدل على الفرد الحاكم صاحب الصولة والدولة والجاه ··

ومن هنا كان الكلام عن الشعب ، وروح الشعب ، وعن الحياة الديمقراطية السليمة كلاما لا يمثل الواقع تمام التمثيل ·

والا لقضى على شعر المديح ، دون هذه الضجة المفتعلة التى أثارها كثير من النقاد لأن الفن بعامة والشعر بخاصة يذبل حينما لا يجد القارىء الذى يستمتع به ، ويضعه فى موضعه اللائق من التكريم ··

ولكن القارىء (والمستهلك) فى هذه الفترة كان على استعداد لقبول شعر المديح · والأدب ينمو حيث يجد غذاءه من المستمعين · ولعل هذا هو ما جعل كثيرا من النقاد يتناقض مع نفسه ،

فبينما نرى هذا الهجوم المنظم على شعر المناسبات بعامة ، وشعر المديح بخاصة نجد كثيرا من هؤلاء النقاد يقعون فى جاذبية فن المديح فينسون ما قالوه ، ويدرون فى فلكه دورات قد تقل وقد تكثر ولكنها تدل على شىء من التناقض بين النظريات والتطبيق العلمى .

ومن المهم أن نعرض لموقف بعض النقاد ، ولشىء من هذا التناقض الذى أوقعهم فيه من غير شك اخلاصهم ، ثم اندفاعهم دون أن يشعروا مع التيار العام للفترة الزمنية التى نتحدث عنها من جهة أخرى .

ففى مطلع هذا القرن نجد للزعيم الوطنى محمد فريد فى مقدمة ديوان وطنيتى لعلى الغاياتى لفتة طريفة يحمل فيها على شعر المديح الذى يدبجه الشعراء فى أيام معلومة ، ومواسم معدودة ، ويدعوهم الى استخدام مواهبهم فى خدمة الأمة وتربيتها بدل أن يستخدموها فى خدمة الأغنياء ، وتملق الأمراء ، والتقرب من الوزراء فالحكام زائلون ، والأمة باقية .

وهذه اللفتة تدل على وعى ونضج وفهم لمقتضيات العصر الحديث وهى من غير شك قد عفت على ما كتبه محمد فريد نفسه فى عام ١٨٩١ بعنوان « البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة المحمدية .

كما عفت على ما كتبه مصطفى كامل على صفحات اللواء فى ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ وهو يدعو الى الاحتفال بالعيد المئينى ويقول : خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات الى النور ، وخروجها من الجهالة الى العلم والحضارة ، وارتقائها فى سبيل الحياة العالية ، وارتباطها بعائلة مالكة اجلستها على العرش بارادتها وصافحتها للنهوض الى ذرى العلياء ونوال المنن .

وقريبا من هذا التاريخ نرى الشاعر احمد شوقى يهاجم فى مقدمة ديوانه القديم المتنبى لأنه اتجه بشعره الى المديح فاضاع على العربية هذه الموهبة العالية واوقف ثلث شعره تقريبا على الحمدانيين وكافور ، وعضد الدولة ، وغيرهم • هذا بينما كان شوقى نفسه منغمسا فى مديح الخليفة بالاستانة ، والأمير ، وما بالقليل ذا اللقب ••

والمازنى هاجم شعر المديح بأسلوبه الساخر فى حصاد الهشيم فقال : وليس بعجيب أن يبسط الخلفاء أكفهم للشعراء بالنوال والمبرات فان ذلك أطلق لالسنتهم بالمديح ، واكف لها عن القدح والطعن ، وأصون للملك واحفظ له من الضياع • هذه حقيقة الحال وواقع الأمر ، وليس فى ذلك ما يدل على أكثر من أن الشعراء كانوا بمنزلة الخيول والسيوف والدروع أو ما يتفكه به على الشراب من النقل ، وما تزين به مجالس اللهو من الريحان والورود ، أو لم يقل ابن رشيق فى كتاب العمدة « ان العرب كانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج بلى ؟ • لقد قالها والله ، وكفى بذلك هوانا •

والعقاد كان متناقضا مع نفسه فى أضيق الحدود فهو لم يرفض شعر المديح رفضا باتا وانما جعله يتجه الى الممدوح الذى يمثل امته ، ويقوم على أمرها ، وينتزع مع ذلك اعجاب الشعراء ، يقول فى مقدمة ديوانه « بعد الأعاصير » •• وسمعوا كذلك أن المديح تقليد لشعر الصنعة الذى ننعاه على الأقدمين فخيل اليهم أن المديح كله باب قديم لا يطرقه الشعراء المعاصرون •• وهذا جميعه ضلال على معنى النقد فى الأدب الحديث فالشاعر العصرى يعاب على مديحه أن كان يثنى على الممدوح بما ليس فيه ، وبما يعلم انه ليس فيه ، مستجديا رفده ، مغالطا نفسه وقومه ، ولكنه اذا أحس

الاعجاب برجل عظيم فصدق فى الاعراب عن احساسه بعظمته فهو أحد المجددين ٠

ثم يركز هجومه فيصبه على هذه النواحى :

(أ) ـ سذاجة شعر المديح ٠

(ب) ـ سطحيته واتجاهه الى الصنعة ٠

(ج) ـ مبالغاته وتكلفه ٠

واذا صح هذا التفريق الذى يقول به العقاد فاننا لا نرى عندئذ أى فارق بين هذا القول وبين ماقاله على الجارم :

قد حسبنا المديح عن كل مستنا ... م وأجدر بشعرنا أن يصانا
لو مدحنا من لا يحق له المد ... ح لوى الشعر رأسه فهجانا
الرسول الكريم انطق حسا ... نا ولولاه لم يكن حسانا
وابن حمدان علم المتنبى ... غرر المدح فى بنى حمدانا
يصدق الشعر حينما يصدق النا ... س فيشدو بمدحهم نشوانا
واذا عزت المكارم ولى ... مطرق الرأس واجما خزيانا
ومضى يشتكى الزمان ويبكى ... دارسات الطلول والاظعانا
فاذا شئت أن أكون زهيرا ... فاعنى وهات لى ابن سنانا

ولا يبعد كثيرا عن العقاد فى هجومه مصطفى صادق الرافعى، فالمدح كما يقول : اذا لم يكن بابا من التاريخ الصحيح لم يدل على سمو نفس الممدوح ، بل على سقوط نفس المادح ، وتراه مدحا حين يتلى على سامعه ، ولكنه ذم حين يعرى الى قائله ، وما ابتليت لغة من اللغات بالمديح والرثاء والهجاء ما ابتليت هذه العربية ٠

أما طه حسين فلقد هاجم فن المديح من الناحية الاخلاقية ، وعلل لابتعاد أبى العلاء عن التكسب بالشعر بشىء خطر له وهو بشاعة الكذب وقبح أثره فى نفس الكاذب ، ونفس المكذوب عليه ٠

وفى الحقيقة لم يرفض المدح رفضا باتا غير شعراء المهجر الشمالى فلقد حمل « ميخائيل نعيمة » فى غرباله « على أغراض الشعر التقليدية وبخاصة تسخيره للمناسبات كمدح « بطريارك ، أو مطران ، أو باشا أو قائمقام أو شيخ، ولتهنئة صديق بغلام ، أوبيك بوسام ، ولتقريظ كتب « نعيم البطون » و « وسلوى الهموم» ولرثاء كل من يزور التراب ·

ولقد تورط كثير من الشعراء فى هذا المديح ، افتح معى أى ديوان من دواوين شعراء هذه الفترة فانك واجد كثيرا من المدائح التى زين بها هذا الديوان ــ أحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ،وخليل مطران ، وأحمد زكى أبو شادى ، وعبد الحليم المصرى ، ومحمود حسن اسماعيل ، ومحمد الأسمر ، وعلى الجندى ، ومحمد عبدالغنى حسن ، وعزيز أباظة ، وعلى محمود طه ·

كما كان لتحريف التاريخ المصرى على يد المؤرخين الاجانب من أمثال « هانوتو » و « دوان » و « كرابيتس » و « ساماركو » و « شارل رو » وغيرهم أثر كبير ·

٢ ــ مسألة التكسب بالفن :

وقبل أن نغادر هذا المكان يحسن بنا أن نناقش مسألة التكسب بالفن وأثرها فى الأدب العربى ، ومن الأفضل أن نعرض رأينا فى ظل الحقائق الآتية :

(أ) لقد كان الادب فى الماضى يعيش فى ظلال الخلفاء والملوك والأمراء فى الشرق العربى ، وفى الاندلس ، وفى أوربا أيضا ، ولن نستطيع أن نغفل بلاط عبد الملك ، وهرون الرشيد ، والمأمون ، كما لن نستطيع أن نمر عابرين على ندوة الحمدانى فى حلب ،ومجلس

ابن العميد ، وابن عباد ، أو نغفل قصر « لويس الرابع عشر » فى فرنسا وأثره فى ازدهار الادب الفرنسى الكلاسيكى .

(ب) استطاع شعراء البلاط بعامة ، وشعراء المديح منهم بخاصة أن يبدعوا روائع فى الأدب العربى ، وان المرء ليقف مشدوها أمام رائعة أبى تمام فى فتح عمورية تلك التى بدأها فتحدث عن السيف وأثره ووازن بينه وبين الكتب وأقوال المنجمين ، ووصف الفتح فخلده ، وفى النهاية يجمل مديحه فى بيت شعرى يعتبر وحده قصيدة مدح رائعة لأنه جاء نتيجة طبيعية لهذا الفتح العظيم فهو يدل على عظم الممدوح . يقول أبو تمام : تدبير معتصم ، لله منتقم ..

كما يقف عاجزا أمام مدائح المتنبى بتخليده لسيف الدولة الحمدانى « الحق أن المال كان باعثه ، ولكن الفن كان غايته ... ماذا يعنينا أن يكون حافزه استجداء مال ، أو مدح ذى سلطان ، أو خدمة مجتمع أو تملق شعب ؟ المهم أن يكون هناك فن قبل كل شىء .

(ج) لقد تكسب كثير من الفنانين فى الشرق والغرب باسم الفن ، وعلى رأس هؤلاء الموسيقى الالمانى العظيم « فولفانج اماديوس موتسارت » الذى صحبه أبوه فى رحلة عرضه فيها على أكثر قصور الملوك والأمراء الألمان وانتهى الى « فيينا » والى قصر « شون برن » ليعزف الطفل العجيب أمام الاسرة المالكة .

ولم يكد يعود الابن الى « سالزبورج » حتى هب من جديد ليبدأ رحلة يطوف خلالها قصور أوروبا ، رحلة من تلك الرحلات التى أطلق عليها كبير أساقفة « سالزبورج » رحلات التسول باسم « الفن » ولو أن موتسارت كان شاعرا ينظم على هواه ، وينشر على الناس ما يريد لكان اخفاقه المادى حتما مقدورا ، ولكنه كان موسيقيا

يتسابق الملوك والأمراء على الحانه التى يطلبون تأليفها فى المناسبات العديدة من زفاف أميرة ، أو تتويج ملك ، أو حلول عيد دينى ، أو اقامة مهرجان سنوى ، ولم تكن تمر مناسبة من هذه المناسبات الا وكان « لموتسارت » مكان فيها ، ومع ذلك كان يعيش فى شظف ، ويعمل دون كلل أو ملال ·

ولقد كان «بيتهوفن» يعيش فى ظلال «البرنس لخنفسكى» وآواه فى داره وفرض له ستمائة فلورينا سنويا ، ولقد خلق «السانفونية» التاسعة من أجل خمسين جنيها « بناء على طلب « دار من دور النشر الموسيقى وها هو ذا « شكسبير » كان يحشر أحيانا فى بعض مسرحياته الفكاهية ما يعجب جماهير الملاعب ، ويربح ما يقيم أوده ويكفل معاشه ، فلا الانتاج من أجل المال ، ولا العمل على ارضاء الجماهير منع الفنان الحق من أن يخرج فى الفن روائع ، لأن العبقرية اذا تفجرت فانها تستمد وحيها من السماء ومن الارض ، من الروح ومن المال ، ومن السحب ومن الوحل ، كل شىء لها منبع وحى ، ومصدر غذاء ·

(د) هناك فرق بين الفن الاصيل الذى ينبع من أعماق الفنان وقد يكون مبعثه المال وبين فن التملق ·

صحيح أن الفنان لن يأمل فى الحصول على مثل الجراية اليسيرة التى وهبتها يد ملكية « لكورنى » ثم منعتها عنه ، ولا فى الحصول على صدقه « المائة قرش » التى منحتها « ساستيان » لكامونس ، ولكنه فى مقابل ذلك لن يضطر قط الى أن يحترف مهنة التملق ، وهى مهنة لا تتطلب من الوقت أقل مما تتطلبه كثير من المهن الأخرى ، فضلا عن أنها تسىء الى الكرامة ·

٣ ـ رأى الجارم فى المدح :

من الغريب أن الجارم قد أخلص لنظريته فى المديح ، فلم يمدح غير الملك وقليل من أصدقائه وخلانه كعلى ابراهيم ، وعلى توفيق شوشة الطبيبين والأستاذ الامام محمد عبده مع أن المدائح كانت تطلب منه ، طلب منه أن يمدح بعض وزراء المعارف فأبى ، لأنه كان يخاف هجاء شعره له ! ولقد مدح مصطفى النحاس بقصيدة سنة ١٩٣٦ ثم انحرف النحاس فى نظره فأرسل الى عامل المطبعة فحذف القصيدة من الديوان ·

وحينما ظهر فاروق على حقيقته ، شابا طائشا ، يطلق الملكة المحبوبة ويستبد بالشعب ، ويتحرك بأمر الاستعمار ، ضعف انفعال الجارم وأحجم كثيرا عن مدحه ، أما هذه القصائد القليلة التى قالها بعد سنة ١٩٤٠ فى الأعياد الملكية فيظهر عليها أثر التكلف والبرود ·

بل لقد ثار على هذا الملك فى أخريات أيامه كما حدثنا ابنه بدر الدين ، غير أن خوفه من السياسة ، قد ألجم لسانه فلم يعبر عما يعتقد ، وان كانت سلبيته قد اتخذت صورة ايجابية حينما امتنع عن مدح الملكين فاروق وعبد العزيز آل سعود على الرغم من اغراء السعودى بهدايا العباءة والعقال ·

أما قصيدته فى الذكرى المئوية لابراهيم باشا سنة ١٩٤٨ والتى مطلعها

طموح ، والا ما قراع الكتائب　　　وعزم ، والا فيم حث الركائب

فليست الا من وحى العاطفة الصادقة ، والايمان المخلص ببطولة ابراهيم !!

هذا ولست أدرى هل أحمد للجارم موقفه ذاك ، أم أن نزعة المديع عنده كانت كفيلة بأن تمحو كثيرا من حسناته ؟ !

أما مسوغات المديح عند الجارم فهي تنحصر فيما يأتي :

(أ) يقول الجارم : انه يمدح لأنه يدعو الى كريم صفات الممدوح ، فهو مولع بالمجد وبأهليه ، وبالباقيات من ذكرياته.
(ب) ويقول أيضا : انه يمدح ليدعو الممدوح الى أن يترسم خطى السابقين ويسير على منوالهم في الاصلاح.

(ج) ويمدح الجارم لكي يشيد بمجد مصر ، ويرسم للشباب النهج الذي يسيرون عليه . يقول في مدح على توفيق شوشة « باشا » وكيل وزارة الصحة اعترافا بفضله في استئصال وباء « الكوليرا » من مصر سنة ١٩٤٧

مدحتك كي أشيد بمجد مصر وأرسم للشباب النهج قصدا

بل لعله قد يبحث عن الممدوح ، ويبالغ في البحث عنه اذا نزلت بقومه نازلة . يبحث عن بطل يكشف عن قومه ما حل بهم ، ويأسى ويأسف اذا لم يجده ، فشعره قد ظمىء الى الثناء والحمد ، يقول وقد تفشى مرض الفيل برشيد سنة ١٩٤١ .

يالعارى ، فليت لى بين قومى بطلا يكشف الشدائد جلدا
ظمىء الشعر للثناء فهل آ ن له أن يفيض شكرا وحمدا

(د) ويمدح العروبة ، يقول في ابراهيم بطل الشرق :

عرفنا لحامى القبلتين جهاده وكم هان مطلوب لعزة طالب
له العرب ألقت في اباء زمامها وكانت سرابا لا ينال لشارب
فوحدها في دولة عربية .. تزاحم في ركب العلا بالمناكب
يقولون:قف بالجيش ماذاتريده وماذاترجى من وراءالسباسب؟

فقال: الى أن تنتهى الضاد أنتهى   وحيث تسير العرب **نجائبى**

٤ ـ علاقة الجارم بالأسرة المالكة :

وقبل أن تبلور هذه العلاقة يجب أن نشير الى حقيقتين هامتين الأولى : أن الأمراء والأميرات من بيت محمد على قلما كانوا يتعلمون اللغة العربية ويدرسونها ، بل قليلا ما كانوا يتخاطبون بها ، وكانت التركية هى لغة التخاطب والتفاهم فى بيوتهم ، وقد عنوا بدراسة اللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية ، والأدلة على ذلك كثيرة ٠

الحقيقة الثانية : أن القصر كان يلعب دورا خطيرا فى توجيه أحداث العصر ، وأنه كان يصطنع لذلك كثيرا من الصحفيين والأدباء والشعراء ٠

فلقد اتخذ الملك فؤاد مصطفى صادق الرافعي شاعرا رسميا له ، ولما غضب الرافعى من معاملة رئيس الديوان زكى الابراشى اتخذ القصر الشيخ عبد الله عفيفى شاعرا رسميا له ، لقد كان القصر فى عهد فؤاد يحرص على ذلك تقليدا لعباس وشوقى ٠

ومن هنا نستطيع أن نفسر مدى ما فى هذه العلاقة المتبادلة بين الشعراء والقصر من صدق واخلاص ٠

فلجنة الاحتفالات بعيد الجلوس الخديوى فى سنة ١٩٠٢ ٠ التى اقترحت أن يتبارى الشعراء فى نظم قصائد التهنئة بهذه المناسبة تشبه الى حد كبير لجنة أعياد الزفاف سنة ١٩٣٨ التى تكونت من قادة الفكر وزعماء الدولتين الشعر والنثر برئاسة محمد العشماوى (بك) وكيل وزارة المعارف ٠

وكلتا اللجنتين اما مخدوعة فى القصر أو مخادعة له تبغى من وراء هذه الصلة غنما وفيرا ٠

والجارم أحد أعضاء اللجنة الأخيرة ، ولعله كان مخادعا للقصر حتى يظفر بأمنيته !! وما أمنية الشاعر ؟ انها على ما أعتقد مكانة اجتماعية مرموقة عن طريق المدح ، ولقب كبير من هذه الألقاب التى يعتز بها الناس ويرهبونها !!

وعن طريق القصر ظفر شوقى أمير الشعراء بما يريد ، فلم لا يحاول الجارم ؟

لقد كان للرتب والنياشين موزعون معروفون يبيعونها بأسعارها من رتبة الميرميران الرفيعة بألف جنيه الى رتبة البكوية من الدرجة الثانية بثلثمائة أو أربعمائة جنيه ٠

وأنى للجارم أن يظفر بالمال الذى يدفعه مقابل هذا اللقب !! استمع اليه وهو يقول فى عيد جلوس فؤاد :

شعرى استبق فى الحاشدين مبادرا
لا يدرك الآمال من يتأخر

ثم وهو يقول لفاروق حينما مر على رشيد :

أغدق عليها سحابا ٠٠٠
وهو طلب مكشوف

ثم وهو يقول فى زواج فوزية :

أميرة النيل غنى النيل منطرب ... لولا قرانك ما غنى ولا فاها
انى وألحان شعرى صنع بيتكم ... فكم من الفضل أولانى وأولاها
لولا مدائحكم ما كان لى قلم ... يوما على الأيك وابن الأيك تياها

وحينما يقول لفاروق :

أبــوك راش جنــاحي حتى بلغــت الســحابا
وكان يصــغي لشــعري وكان شــعري عجابــا

وبأى شيء راش أبوه جناحه ؟ لقد راشه بوسام (نيشان) النيل من الدرجة الخامسة ، ولكن الشاعر الطموح لن يقنع بهذا الوسام المتواضع ، اذن فليطلب وليلح فى الطلب ، وليقل لفاروق :

أنا فى فيـض له متصــل أنعــم تمضى فألقى أنعمــا
ليس بدعا أن زهى شعرى به يزدهى الروض اذا الغيث،همى

وكأنه يقول زدنى عطاءك أزدك شعرا .

وعلى يد هذا المليك ظفر بأمنيته

نالأسمى الألقاب والفضلفضل كيفما قــد رفعت من درجاتــه
ورضــاء المليــك أنفس ما يد عو ، ويرجوه قانت فى صلاته

وفى البيت الأخير ما يدل على تفانى الشــاعر فى تقربه من القصر ، واخلاصه له . ثم يزداد انفعاله فلا يترك مناسبة ملكية تمر دون أن يقول فيها شعرا يظهر به فروض الولاء ، عيد الميلاد ، وعيد الجلوس ، وعيد الأميرة ، وزواج الامبراطورة ، ووفاة الملك ، وصلاة الملك فى عيد الفطر الى آخره :

غمرتنــا نعماك فى كل حــال فحمدنا نعماك فى كل حال ..
أيها الراكبــون فى طلب الغيـ ـث سراعا والغيث ملء الرحال
لا تريمــوا مكانكم لا تريمــوا ساحة الملك مورد الســؤال

٥ ـ علاقته بغير الأسرة المالكة من الممدوحين :

وللجارم مدائح فى غير الأسرة العلوية بمصر ، لقد مدح الملك غازى فى العراق ورثاه ، وكان الدافع الى المدح الاعجاب ووسام « الرافدين » كما مدح الملك عبد الله أثناء زياراته المتعددة لعمان ٠ أما علاقاته بغير الملوك فكانت شخصية مبعثها الحب والاحترام ٠ مدح استاذه الامام بقصيدة تقليدية جامدة ، كما مدح الأستاذ « أحمد لطفي السيد » عندما انتخب رئيسا لمجمع فؤاد الأول للغة العربية سنة ١٩٤٥ واستطاع أن يفرض مدحه بسبعة أبيات :

وقالوا: غدا لطفى رئيسا فحيه وهنئه واهتف باسمه فى المحافل

فقلت : وهل يرضى لى الشعر انه اذا صغت مدحا قيل تحصيل حاصل

ومدح أيضا أمير الشعراء فى حفل تكريمه ، والدكتور على توفيق شوشة وكيل وزارة الصحة فى أكثر من قصيدة ٠

أما مدحه للدكتور على ابراهيم فلقد كان فوق صداقته وليد تجربة واقعية ٠ مرضت اخت زوجة الشاعر ٠ وشكت الما فى جنبها أعجز الأطباء معرفته حتى كاد أن يقضى عليها ، ثم فكر الشاعر أخيرا فى الدكتور على ابراهيم جراح المستشفى الاسرائيلى بغمرة ٠ ولما ذهب اليه جس موضع الداء ، وعرف انه « خراج » داخلى قد فتح وبدأ ينز ويسمم الدم ، وكان انقاذها على يده ٠٠

وها هو ذا يصور تجربته فى أبياته الرائعة فيقول :

سموت اليه والظلام يلفنى فيملؤنى رعبا واملؤه هما

أسير وفى قلبى من الحزن لوعة تكاد تذيب الصم لو مست الصما

تركت ببيتى جثة آدمية كأن هلال الشك بات لها جسما

شكت جسمهاحتى بكاهاوسادها وكادعليهايشتكى السهدوالصما
يمزقهـا الموت العنيف صراعـه بأظفاره حمرا ، وانيابه ســما
ففى البطن قرح لا يجف لهيبه وفى الرأس نار لا تبوخ منالحمى
اذا قلبتها العائدات حسـبنها خيالا فلا عظما يرين ولا لحما
وقد وقف الطب الحديث حيالها عييا يكـاد العجز يقتله غمـا
وغادرها جمع الاسـاة كأنهم طيور رمى الرامى بدوحتهاسهما
فلم يبق الااليأس واليأس قاتل وأقتل منه نية لم تجد عزما
فقلت على ليس للأمـر غيره اذا ماأدار الدهر صفحته جهما
أبو الحسن الجراح فخر بلاده واكرممنيرجى وأسرفمنيسمى
فزر داره يلقاك قبل ندائـه فثم الذى ترجـوه من أمل ثما
فما سرت نحو الباب حتى رأيته تقدم بسـام الاسـارير مهتما
وقـد فهمتنى عينـه وفهمتـه وكان بحمد الله أسرعنا فهما
وجاءو جبريـل الأمين أمامـــه يمد جناحا من حنان ومن رحمى
وجس مكان الداء أول نظـرة كأن له علما بموضـعه قدمـا
فما هو الا مبضـع فى يمينه أطاح بناب الموتواستأصل السما
ورد الى أهلى حيـــاة عزيزة وبدلهم من بؤس أيامهم نعمى
متى ذكروه فى خشوع تذكروا مآثره الجلى ونائله الجمـــا
اذا ما أمرؤ اهدى الحياة لميت فذلك قد أهدى الوجود وماضما

(العروبة) :

١ ـ الفكرة العربية ، تطورها ، ودعاتها ، وموقف مصر منها.

من طبيعة الصراع فى المنطقة العربية برزت فكرة العروبة ، وتبلورت وأصبحت مبدأ وعقيدة .

برزت مبكرة فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل القرن الحالى على يد أديب اسحاق ثم الكواكبى فى كتابه أم القرى ١٩٠٥ وعلى يد كثير من شعراء الشام المقيمين والمهاجرين وكثير من شعراء العراق من أمثال فتح الله مراش ، ورزق الله حسون ، وابراهيم اليازجى والزهاوى ، والرصافى ، والكاظمى ، ونجيب حداد وغيرهم كرد فعل لتعصب الأتراك واستبدادهم وسيطرتهم باسم الخلافة الاسلامية .

ومن أوائل الكتب التى ظهرت فى هذه الفترة كتاب (يقظة الأمة العربية فى آسيا) لنجيب عازورى ، وهو عربى نصرانى ظهر نشاطه بباريس فى الأعوام الأخيرة للعهد الحميدى ، لقد دعا فى كتابه الى انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية على أن تكون الحجاز مقرا لخلافة اسلامية عربية تتكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين .. أما مصر فقد كانت واقعة تحت نير الاحتلال البريطانى منذ عام ١٨٨٢ وكان عازورى يدرك تماما أن الانجليز لن يسمحوا لمصر أن تفلت من أيديهم الى شقيقاتها العربيات .

وفى سنة ١٩٠٤ شكل فى باريس جمعية عرفت باسم (رابطة الوطن العربى) وفى سنة ١٩٠٧ أصدر بالفرنسية مجلة شهرية اسمها (الاستقلال العربى) توقفت عندما نشر الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ .

ولقد حاولت الفكرة العربية أن تأخذ طابعا عمليا فى وقت

مبكر حينما تألفت الجمعيات السرية من أحرار الشام والعراق من أمثال « العربيه الفتاة » و « العهد » و « الاصلاح » وما ثورة الشريف حسين سلطان مكة على الأتراك فى العقد الثانى من هـذا القرن الا ترجمة عملية لما كان يجيش بصدور دعاة العروبة من آمال .

ولقد أدرك الانجليز ذلك فوعدوا العرب بالخير حتى انتهت الحرب العالمية الأولى .

وبانتهاء الحرب تصاب آمال العرب بنكسة مروعة ، فلقد قسمت البلاد العربية بين الحلفاء المنتصرين ، وصدر وعد بلفور فى سنة ١٩١٧ ، وتحول الصراع من أجل الوحدة الى صراع من أجل الاستقلال ، بل لقد تعرض العرب لحرب نفسية قاسية تهدف الى القضاء على كل أمل للوحدة ، فهذه فرنسا تتقدم الدول الأجنبية التى تزعم أن السوريين ليسوا بعرب ، وان كانت لغتهم عربية ، وأن اللبنانيين فينيقيون وأن المصريين فراعنه .

غير أن هذه المحاولة قد باءت بالفشـل ، لأن آمال الوحدة كانت تجيش بصدور العرب فى كل مكان .

وليس من هدفنا هنا أن نتتبع تطور الفكرة العربية فى كل البلاد العربية فذلك أمر يطول ويخرج بنا عما نرمى اليه .

وان كنا قد آثرنا أن نعطى تطور الفكرة فى مصر شيئا من الأهمية حتى نستطيع أن نساير نمو الدراسة .

لقد مرت الفكرة العربية فى مصر بمراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : وتبدأ من أواخر القرن الماضى ، وتسـتمر حتى أوائل الثلاثينيات من القرن الحاضر ، وتتميز على غيرها من

المراحل بكثير من الدعاوى المغرضة التى تهدف الى القضاء على الفكرة العربية وهى لا تزال فى مهدها بشتى الوسائل ·

فهناك طائفة ترمى الى ربط السياسة المصرية بالسياسة العثمانية المتهاوية بدعوى الجامعة الاسلامية والاستقلال المصرى تحت ظل الراية العثمانية ·

وهناك طائفة أخرى تنادى بالاقليمية الضيقة وتعلن على الملأ بأن مصر للمصريين ·

وثالثة تحاول جاهدة أن تربط مصر الحديثة بمصر الفرعونية، وتتخطى بذلك ثلاثة عشر قرنا لتقول : ان بعض العادات والتقاليد وبعض الألفاظ والألعاب ترجع بدورها الى ذلك الزمن السحيق ·

ورابعة ترى أن مصر الحديثة أقرب الى اليونانية منها الى الاسلامية ·

والاستعمار مع كل ذلك يغذى كل نزعة اقليمية ، ويستغل أصحابها ، اما بقصد أو بغير قصد ، ليعمق جذور الانفصال ، وليقضى على فكرة الوحدة العربية التى كانت حتى ذلك الوقت مجرد أمانى وأحلام تراود قليلا من المفكرين ·

ولقد بلغت الجرأة بالمستعمرين أن نظموا حملة دعاية واسعة تهدف الى القضاء على العربية الفصحى ، واستبدال بالعامية المحلية بها برئاسة المهندس الانجليزى « وليم ولكوكس » والقاضى « مستر ويلمور » و « مسترمان » و « اسكندر معلوف » السورى ·

غير أنه والحق يقال : ان كثيرا من العلماء والزعماء الوطنيين وقد وقفوا بجانب اللغة العربية ودعوا الى احيائها ، والاهتمام بها من أمثال الشيخ ابراهيم اليازجى ، وأحمد فتحى زغلول ، والشيخ محمد الخضرى ، والشيخ على يوسف ، ومصطفى كامل ·

وتنتهى هذه المرحلة بظهور رجال «جمعية الاتحاد والترقى» على مسرح الأحداث ، فبظهور هذه الجمعية تتوارى شيئا فشيئا فكرة الجامعة الاسلامية لتحل محلها فكرة العصبية التركية ، كما تنتهى أيضا بانتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ، وتمزيق أوصال الوطن العربى الى مناطق مستعمرات ونفوذ ·

المرحلة الثانية : مرحلة ما بين الحربين :

وبعد الحرب العالمية الأولى تتوحد المأساة فالاستعمار الانجليزى فى مصر يمتد الى العراق : وفلسطين والأردن ،والاستعمار الفرنسى فى الجزائر يتسلح فيستولى على سورية ولبنان ·

وهنا يتحد الشعور ويتحد الهدف ، فاذا ما قامت فى مصر ثورة ١٩١٩ فان صداها يمتد الى كل بلاد العروبة تقريبا ، فهذه موقعة ميسلون فى سنة ١٩٢٠ ، وهذه ثورة العلماء والعشائر فى بغداد والفرات فى نفس العام ·

أما فى فلسطين فان الثورات تلتهب فى سنة ١٩٢٠ وما بعدها ودلالة هذه الثورات على وحدة الشعور واضحة ·

المرحلة الثالثة : اعلان ميثاق جامعة الدول العربية ·

ويبدو أن السياسة البريطانية لم تكن تمانع فى انشاء جامعة الدول العربية لتستطيع عن طريقها توجيه العالم العربى الى حيث تريد ·

ففى ٢٩ مارس (أيار) من سنة ١٩٤١ أدلى مستر ايدن وزير خارجية بريطانيا بتصريح بشأن الوحدة العربية ، وفى ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٤٣ أدلى بتصريح آخر ·

ثم رأى رئيس الحكومة المصرية (مصطفى النحاس) ان الوقت

قد حان لتقف حكومة مصر الى جانب الوحدة العربية ، وتعمل على تحقيقها ، وأعلن ذلك فى بيانه الشهير بمجلس الشيوخ فى ٣١ مارس سنة ١٩٤٣ ، وعلى أثر ذلك جرت مشاورات بينه وبين كل واحد من رؤساء وزارات الدول العربية المستقلة على انفراد ، ثم اجتمعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى العام فى مدينة الاسكندرية المكونة من وفود الدول العربية ثمانى جلسات من ٢٥ سبتمبر الى ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ وانتهت الاجتماعات بتوقيع (بروتوكول الاسكندرية) وصدر قرار بتأليف لجنة فرعية لاعداد مشروع ميثاق جامعة الدول العربية ، وعرض المشروع على اللجنة التحضيرية فى ١٧ ، ١٩ من مارس سنة ١٩٤٥ ، وأخيرا اجتمعت وفود الدول العربية على شكل مؤتمر عربى عام فى قصر الزعفران فى ٢٣ مارس سنة ١٩٤٥ ووقعت على الميثاق وبذلك أصبحت (جامعة الدول العربية) حقيقة واقعة ٠

ويطول بنا المقام لو تتبعنا أطوار القومية العربية فى ظل جامعة الدول العربية ، أو واكبنا وثبتها المباركة فى ظل ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ والرئيس جمال عبد الناصر ٠

وحسبنا هنا ما يلقى أضواء على موقف الجارم ٠

٢ ـ موقف الجارم من الدعوة الى العروبة :

والجارم ثمرة ناضجة من ثمرات هذا الصراع ، فلقد أسهم بدوره كمصرى فى ابراز المفهوم العربى فى شعره ، بل وفى تثبيته وتقويته منذ أن شب وبدأ يدرك ٠

فهو لم يمدح الخليفة فى الآستانة يوم أن كان مدح الخليفة مذهبا وعقيدة !!

وهو لم يدع الى اقليمية محلية محدودة يوم أن كانت مثل هذه الدعوات تعتبر تقدما وتجديدا ٠

وانما اتجه الى العروبة وسنه لم تتجاوز الثامنة عشرة حينما أدرك وهو طالب فى الأزهر الدور الذى يجب القيام به للفصحى فقال :

ستندبنى الفصحى اذا مت قبلها
ومات الذى فى الناس ليس له ند

وعندى أن هذه الخاطرة العفوية التى قالها فى سياق قصيدة تقليدية فى الفخر دليل على اتجاه قوى الشاعر الروحية الى العروبة والعربية من زمن مبكر ٠

وليس هذا الاتجاه غريبا على شاعر كان يؤمن عن عقيدة أن نسبه ينتهى الى قريش ، فأهل رشيد من قريش نزحوا اليها بعد فتح العرب بقليل ، والعرب أجداد كانوا مثالا للانسانية والرحمة والعدل ٠

ملكوا الأرض لم يسيئوا شعب ، ولم يحكموه حكم العبيد
هم جدودى وأين مثل جدودى ان تصدى مفاخر بالجدود

ومن هنا نراه يفتخر دائما بالانتساب اليهم ، ويتغنى كثيرا بأمجادهم وشمائلهم ٠

يا جيرة الحرم المزهو ساكنه سقى العهود الخوالى كل منسكب
لى بينكم صلة عزت أواصرها لأنها صلة القرآن والنسب

ثم يقول للرسول عليه السلام :

ولى نسب ينمى لبيتك صانني وصانته منى عزة وإباء

ولقد نمى هذا الشعور فى نفسه عوامل متعددة من أهمها :

(أ) نشأته فى بيت علمى محافظ ، على يد والده الشيخ محمد صالح الجارم القاضى الشرعى ، ومن الطبيعى أن تكون الرعاية الأدبية هنا متأثرة بالثقافة العربية ، ومؤثرة فى خيال الشاعر الفنى .

(ب) اتجاهه الى الأزهر ودار العلوم ، وكلاهما معقل للفصحى والعروبة وفى دار العلوم يقول الجارم :

تخذت فيك بنت عدنان دارا ... ذكرتها بداوة الأعراب
عادها الحسن فى ذراك وروا ... ها على غلة نمير الشباب
وغدت فى عكاظ بين شيوخ ... فتنتهم بسحرها الخلاب

وفى أساتذة الدار يقول :

فتنوا بالعذيب والسفح والجز ... ع ، ووادى العقيق والصمان

ولقد فتنوا الشاعر معهم بهذه الاماكن فكثيرا ما كانت تحلق روحه هناك الى العهود الخوالى فى جزيرة العرب فيعيش فى صحرائها وبين خيامها !!

ولعلنا لا نعدو الصواب حينما نقول : ان الجارم كان مغتربا بروحه الى جزيرة العرب ، والاغتراب فى حد ذاته سمة كل فنان أصيل ، لا سيما اذا استطاع أن ينقل أساطير الماضى السحيق بمعانى الواقع الحى .

(ج) شعوره بالتبعة فى كل ما يتصل بالعروبة والعربية :

ولقد لعبت الوظيفة دورها فى ذلك ، فارتباطه بتفتيش اللغة العربية ، ودار العلوم ، والمجمع اللغوى ، وانتدابه الى كثير من

المؤتمرات العربية جعلته يشعر بأنه مسئول عن العربية أولا ، وعن العروبة التى يقوم بين أقطارها بدور السفارة الادبية ثانيا ، ولعل صدى هذا الشعور هو الذى جعله يردد قوله :

لنا نسب فى المجد يجمع بيننا   تعالت أواسيه وشدت أواصره
ألسنا حماةالقول فى كل محفل   تتيه بنا فى كل أرض منابره

(د) الصراع بين العروبة كفكرة ، وبين أعدائها من دعاة الاقليمية ومن المستعمرين ، وانفعال الشاعر بهذا الصراع مع كثرة الأحداث وكثرة الدعاة الى العروبة والعربية فى الشرق وفى المهجر •

كل هذه العوامل استطاعت أن تنمى الاتجاه الفطرى فى نفس الشاعر وأن تحيطه بجو صالح ، وبيئة مهيأة •

٣ ـ منهجه :

(أ) تثبيت دعائم الفصحى وفهم مقتضيات التطور اللغوى •
(ب) تتبع أطوار التاريخ العربى بروح المؤرخ الفنان •
(ج) التعاطف والمشاركة الروحية مع أبناء العروبة •
(د) الدعوةالى الوحدة العربية وتوثيق الروابط •
(هـ) الدعوة الى النهضة •

(أ) تثبيت دعائم الفصحى ، وفهم مقتضيات التطور اللغوى

وهنا يضع الجارم الأساس الأول والمهم فى تثبيت الفكرةالعربية وتعميقها ، فاللغة هى الرابطة الموحدة لشعوب المنطقة ، وهى أساس التاريخ المشترك ، والهدف المشترك ، بل هى فى الواقع عنوان الوحدة الصحيحة •

ولقد بدأ من حيث يجب البدء ، فلقد فتح عينيه والعربية تكاد تلفظ أنفاسها على أيدى الجامدين من الادباء والشعراء ، ثم على أيدى المستعمرين الذين بلغت جرأتهم حدا جعلهم يعينون « المستر روب » مفتشا للغة العربية ، ويهاجمون هذه العربية بأنها لا تصلح لتعليم العلوم اذ تفتقر الى الاصطلاحات العلمية والفنية ، ثم يبعدونها عن المدارس كلغة أولى للتعليم •

لقد كانت العربية فى مطلع هذا القرن لغة « إن لم تكن أجنبيه فهى قريبة من الاجنبيه ، لا يتكلمها الناس فى البيوت ، ولا يتكلمها الناس فى الشوارع ، ولا يتكلمها الناس فى الأندية ، ولا يتكلمها الناس فى المدارس ، ولا يتكلمونها فى الأزهر نفسه أيضا • ولعل الازهر أقل المعاهد والبيئات اصطناعا لها ، وسيطرة عليها • انما يتكلم الناس فى هذه البيئات كلها لغة تقرب منها قليلا أو كثيرا ، ولكنها ليست اياها على كل حال •

وفتح الجارم عينيه والعربية على هذه الحال ، فهاله الأمر وانبرى يدافع عن لغة قومه ، ويرسم المنهاج الواضح لانقاذها ، يسانده فى ذلك كثير من الشعراء والكتاب النابهين من أمثال حافظ وشوقى وعبد المطلب والمويلحى وغيرهم • بل لقد شاهد بالفعل محاولات صادقة تسير فى نفس الطريق على يد الشيخ ابراهيم اليازجى ، والمرحوم أحمد فتحى زغلول ، والشيخ محمد الخضرى ، وأساتذة دار العلوم ، وأعضاء المجمع اللغوى •

يقول الجارم لأساتذة الدار :

شيخة الدار أنتم خدم الفصـ ـحى وحراس ذلك البنيان
لبست جدة الصبا فى ذراكم وغدت من حلاه فى ريعان
• • • • • • • • • • • •

ذللوا شباب مستعصى الفصـ ـحى فان الرجاء فى الشـبان
وانثروها قلائدا وعقـودا تتحـدى قلائد العقبـان

ثم هو فى الوقت نفسه يدرك عن فهم وعمق مقتضيات التطور اللغوى ، ومدى الاهمية الملقاة على عاتق المجمع ، والوسائل الصحيحة التى تهدف الى تطوير اللغة فى حدود امكانياتها الفنية ، فالعربيـه لم تضق فى يوم من الايام بمجاراة التطور فى الشرق والغرب ، بل لقد كانت رائدة التطور فى العصور الماضية .

يقول فى دور الانعقاد الثالث لمجمع فؤاد الاول للغة العربية سنة ١٩٣٤

الدهـر يسرع والأيام معجلة ونحن لم ندر غير الوخدوالخبب
والمحدثات تسد الشمس كثرتها ولم تفز بخيال اسم ولا لقب
والترجمات تشن الحرب لاقحـة على الفصيح فيا للويل والحرب
نطير للفظ نستجديه من بلد ناء ، وأمثاله منا على كثب
كمهرق الماء فى الصحراء حين بدا لعينه بارق من عارض كـذب

ويقول فى المؤتمر الطبى بلبنان سنة ١٩٤٤ مطالبا بتعريب لغة الطب :

وانفوا عن الطب الرطانة انهـا نمش يعيث بوجهـه الوضاح
كم فى حمى الفصحى وبين كنوزها من مشرفات بالبيان فصـاح
ما أنكرت أم لسان جدودهـا يوما وسارت فى طريق فـلاح

ثم يسهم بانتاجه العلمى فيؤلف النحو الواضح بأجزائه السبعة والبلاغة الواضحة .

٢ ـ تتبع أطوار التاريخ العربى بروح الفنان.

وكانت وسيلته الى ذلك شيئين :

١ ـ بعث عصور العربية فى ثمانى روايات تاريخيه تتمثل فى « مرح الوليد ، والشاعر الطموح ، وخاتمة المطاف ، وفارس بنى حمدان ، وسيدة القصور ، وهاتف من الاندلس ، وشاعر ملك ،وغادة رشيد ثم فى ترجمته لكتاب « العرب فى اسبانيا اذ الاختيار يدل على عقل المرء ويشى بهواه كالابتكار سواء بسواء .

٢ ـ تتبع تاريخ العروبة والعربية من العصر الجاهلى الى العصر الحديث فى خمس قصائد طويلة اثنتان منها انشئتا من أجل المجمع اللغوى فى سنة ١٩٣٤ والثالثة من أجل دار العلوم ، أما الخامسة فبعنوان مصر ، وعلى الرغم من ان هذه الاخيرة قد أنشئت من أجل « مصر » على منوال قصائد شوقى التاريخية الا ان الجارم قد هرب سريعا الى العرب فى مصر واطنب فى ذكر عمرو ، ونهضة العرب وتقدمهم العلمى فى العصور المزدهرة ، ولم يظفر رمسيس العظيم من الشاعر الا بهذه الأبيات :

اين رمسيس والكماة حواليـــه مشاة فى الموكب المشهود

ملأ الارض والسماء فهذى بجنود وهذه ببنود

وجموع الكهان تهتف بالنصـر وتتلو النشيد اثر النشيد

وبنات الوادى يمسن اختيالا ويحيين بين دف وعود

ثم يذكر عمرو بعد ذلك فى أكثر من ثلاثين بيتا :

اين عمرو فتى العروبة والاقـدام أوفى مجاهد بالعقود ؟

ولعل ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه من اغتراب الجارم الروحى الى

شبه الجزيرة العربية وبخاصة حينما نراه يؤكد هذا المعنى فى كثير من شعره :

جمح الخيال فمـــا اطمــــأ ن ولا استقر الى خــــلود
جاز القـــرون النائيـــــا ت ، وفك أسرار العقـــود
ذكر العهـــــود فأن للـــذ كرى وحن الى العهـــــود
واهتاجـــــه الطيف البعيـــ ـد فجن للطيف البعيـــــد
وصبا الى ظل العــــرو بة فى حمى الملك العتيـــــد

❊ ❊ ❊

وبهذه الروح العربية المفتونة بماضى العرب أنشأ قصائده ، وبكل بساطة انتقل من عصره الى العصر الجاهلى ، والعصور المتتابعة ومن مصر الى جزيرة العرب ، انتقل بخياله وأسلوبه وصوره الى هناك ليفتننا بجوه الاسطورى ، وبقصه الساحر الجميل ويستمر فى عرض شريط تخيلاته باستعمال الافعال المضارعة مكان الأحـــداث الماضية أرى ، وأشهد ، ولست أسمع ، والمح ، وابصر ، واحضر ، ثم يدير شريط تخيلاته .

وأغمض العين حينا ثم افتحها على جلال بنور الحق مؤتشب
نور من الله هال القوم ساطعه وليس يحجب نور الله بالحجب

ويستمر الشاعر القاص فيحدثنا عن الاسلام ، وعن دوله ، ويقف بنا وقفة طويلة أمام بغداد ، بلد الرشيد ، وموطن الحب ، وراية الاسلام ، يقف فيحدثنا عن الشعر فى بغداد ويتساءل :

بغــداد أين البحتـــرى ؟ وأين أين ابن الوليـــد ؟
ومجالس الشـــعراء فى بيت ابن يحيى والرشـــيد

أين القيــان الضاحكــــا ت يمسن . فى وشى البــرود ؟

. . . .

كما يحدثنا عن جيوش بغداد وانتصاراتها ، وجهود جباريها ، وعن هذه السفارات الاجنبية الآتية اليها :

الرسل تتـــلو الرسل من بيـ ض ، صـــقالبة وســـــود

ساروا لقصر الخلد يمــــــ شى طرفهم وهج الحـــديد

يتعثـــرون كأنهـــم يمشـــون فى حلق الحـــديد

الجو يســـطع بالظبـــا والأرض تزخـــر بالجنــود

حتى اذا رجعـــــوا بدا بجباههم أثر الســـجود

وكما يحدثنا عن النهضة فيصور مجالس العلماء ، وجـــدال الفلاسفة واختلاف الائمة ونهضة الترجمة ، وتعدد المؤلفات ، وهو فى كل ذلك معجب مفتون ٠

فهذه هى الامة التى كانت تعيش فى القفار ، وتأكل القد ، والدعاع من الجوع ، وتهفو لحب الهبيد ، وتئد البنات ، قد استطاعت أن تطلق العقل من سلاسله السود بفضل الاسلام واشراقة النبوة ٠

هـــذه أمة من الفخر كانت فى قفار من الحياة وبيـــد

تأكل القد والدعاع من الجـــو ع ، وتهفو شوقا لحب الهبيـــد

وتثير الحروب شعواء جهلا وتدس الوئيد اثر الوئيـــد

نبع النور بالنبوة فيهـــا فطوى صفحـــة الليالى الســـود

ومضى يملأ الممالك عــــدلا باسم الوعـــد مكفهر الوعيد

اطلق العقل من سلاسله الدهـ م ، ونحاه عن صليل القيـــود

ولاينسى نكبة بغداد على أيدى التتار ، ثم يتتبع عصور الضعف والتجاء العربية الى مصر التى :

بقيت فيهـــا تلاقى شظفـــا في أحايين ، وفى حين رفاهـــا

حتى أشرقت شمس النهضة الحديثة مع أسرة محمد على ·

واوذا العلم يدوى صوتـــه واذا الضاد أضاءت صفحتاهـــا

واذا العربية تزهى شرفا حين ينشأ المجمع اللغوى لأنها استقرت فيه بعد طول اغتراب ·

والحق يقال ان هذه القصائد التاريخية قد استطاعت أن تجلو لنا بوضوح عصور العربية فى تسلسل واطراد ، وأن تبرز نهضـــة العرب والمسلمين فى أبهى ثياب مستخدمة فى ذلك بعث الماضى وقوة التخيل والتهاب العاطفة ، فهى وان كانت قصائد تاريخية الا انها قد بعدت عن الجفاف والسرد ، وان كانت كل قصيدة تختلف عن الأخرى فى مستواها الفنى ·

(جـ) التعاطف والمشاركة الروحية مع أبناء العروبة :

ولقد أسهم شعره فى هذا المضمار ، واتجه الى ذلك فى فترة مبكرة · ففى سنة ١٩٣٣ يقول فى رثاء « داود بركات » رئيس تحرير جريدة الاهرام مخاطبا أهل لبنان :

بنى لبنان خطبكم جليـــل دعونا نقتسمه على الســـواء

مضى شيخ الصحافة أريحيـــا مبيد الوفر جماع الثنـــاء

خلال كلها أنفـــاس روض ونفس كلهـــا قطرات مـــاء

فعزى فيه لبنانا ونبـــكى فمن أولى وأجدر بالعـــزاء

مصابكم ـ وقد أدمى ـ مصابى　　ورزء العبقرية والذكاء
له اهتزت بواسق نخل مصر　　وهال الأرزارجاف الفضاء

وتبلغ مشاركته الروحية لأبناء العروبة غايتها فى مأساة فلسطين . فلسطين العربية التى اغتصبها الصهيونيون تحت سمع الامم المتحدة وبأغلبية الاصوات فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ .

وان كانت هذه المشاركة قد اتخذت صورة سلبية فى أول الامر حينما كان يقول :

قلبى وفيض دموعى كلما خطرت　　ذكرى فلسطين خفاق وهتان
لقد أعاد بها التاريخ اندلسا　　أخرى وطاف بها للشر طوفان
ردوا تراث أبينا مالكم صلة　　به ولا لكم فى أمرنا شأن
مصيبة برم الصبر الجميل بها　　وعزفيها على السلوان سلوان
بنى فلسطين كونوا أمة ويدا　　قد يختفى فى ظلال الورد ثعبان
وكيف يأمن رعيان وان جهدوا　　اذا تردى ثياب الشاء سرحان

استسلام نراه ونلحظ مبعثه على ما نعتقد استسلام الشيخ للسن ـ اذ قالها فى سنة ١٩٤٧ وسنه اذ ذاك خمس وستون سنة ـ ونظرته الوقور للاحداث ، وسلبيته الدائمة أمام مشكلات السياسة .

غير انى ما زلت فى حيرة من موقف الجارم ازاء مشكلة فلسطين فليس له فيها غير هذه الابيات ، وغير قصيدة أخرى قالها فى سنة ١٩٤٨ والجيوش العربية على أرض الوطن السليب .. ولا أدرى أكان ذلك عن سوء تقدير منه لهذه المأساة ونتائجها ؟ أم ان الروح العربية

لم تكن من القوة بحيث تلهب الشعور العربى العام ؟ أم ان كل اقليم عربى كان فى شاغل من أمر المحتلين الجاثمين فوق أرضه ؟

ولكن هل كل هذه الاسباب لا تعفى الجارم من التبعة مع انه القائل :

حب العروبة قد جرى بمفاصلى ... بالرغم من هذر الحديث ملاحى

والقائل :

الشعر مصباح أقوام اذا التمسوا ... نور الحياة وزند الامة الوارى

ألم يكن من الواجب عليه أو يضىء مصباحه لينير الطريق أمام قومه ؟ .

وكأن الشاعر أراد أن يكفر عن موقفه فى فلسطين فأنشأ قصيدة ملتهبة فى سنة ١٩٤٨ ، ولكن الفضل فيها لا يعود اليه وحده ، وانما يشاركه فيه الشعور العربى العلم ، فلقد ذهب الفدائيون العرب الى فلسطين لمحاربة اليهود . بل لقد دخلت الجيوش العربية الى ميدان المعركة .

ولقد ألهبت الاحداث شعور الجارم الشيخ فعاد اليه شبابه ليقف موقفا ايجابيا من المعركة الدائرة فى فلسطين فى قصيدته التى مطلعها :

تألق النصر فاهتزت عوالينا ... واستقبلت موكب البشرى قوافينا

ولقد حشد لها كل ما استطاع وما يتناسب وروح المقام من اثارة وتمجيد وسخرية وتهكم .

ولولا ما فيها من العوالى والسيوف التى لا تتناسب مع أسلحة الجيش المصرى فى سنة ١٩٤٨ لعدت من روائع الشعر العربى الذى أنشىء على نغمات المعركة .

والشاعر يمجد فيها الجيش المصرى المحارب ، ولكنه لا ينسى أن هذا الجيش عربى جرى فيه دم عدنان :

هزته كف من الفولاذ قبضتها
في الهول ما عرفت رفقا ولا لينا

من صخر «خوفو» لها دون الورى عضل
جرى به دم عدنان شرايينا

ثم يمجد الفارس المصرى الذاهب الى ميدان القتال فى فلسطين ويفتخر به كما يفتخر بأمته التى تلبى دعوة الحق ، وترد سطوة الجور .

عشنا أعزاء ملء الأرض ما لمست جباهنا تربها الا مصلينا
لا ينزل النصر الا فوق رايتنا ولا تمس الظبا الا نواصينا

ويسرع خاطره فيأتى بالصورة المقابلة صورة اسرائيل التى شبهها بالقبرة التى تزحم الصقور فى أوكارها ، وصورة الاسرائيلى التائه الذى سطا على ديارنا وطردنا عنها ، ويستثير عليه حتى ظواهر الطبيعة المتعددة فيطلب من الجبال ان تقذفه بالحمم ، ومن السماء أن تمطر عليه المهل والغسلين ، ومن الكواكب أن ترجمه ، ومن البحار أن تجعل الماء الأجاج دما لأن العهد عند اليهود خلف ومجحدة ومرآة ، لقد وضعوا السم فى الآبار ، ووصلوا بذلك الى منتهى الخسة والدناءة :

ما ذلك السم فى الآبار ويلكم ومن نحارب ؟ جندا أم تعابينا؟

أما دولة اليهود فكانت فى زعمه مزعومة ماتت يوم مولدها ، وانقلب المهنئون بها الى معزين :

وآض تصفيقهم ... نوحا ومندبـة
وأصـــبح الشر تقطيبـــا وتغضينـــا

رواية ما أقـــاموا ســـبك حبكتهـــا
ولا أجادوا لهـــا لفظـــا وتلقينـــا

قد حيرتنا ، أمأســاة ؟ أمهـــزلة ؟
فالسخف يضحكنـــا والجهل يبكينـــا

ثم يستمر فى سخريته من هذه الدولة التى ضاق الفضاء بها فتحا وغزوا ومن قوانين العدل والرحمـــة التى نفذوا بعضهـــا فى « دير ياسين » ومن أسطولها وجيشها :

ثم يتجه الى فلسطين أولى القبلتين ، وقلب العروبة ، وقلعـــة الشرق وأسطر التاريخ المجيد ، صاحبة تراب حِطين الذى شرب من دماء بطولتنا ، والمسجد المختار الذى نزل فىَ ساحته المصـــــطفى والرسل عليهم السلام ليلة الاسراء :

أرض بذلنا بها الارواح غاليـــة ... داعين لله فيهـــا أو ملبينـــا
ومسجد نزل المختار ساحتـــه ... نموت فيه ونحيا مستميتينـــا

ولا يألوا جهدا فى دفع العرب الى المعركة ، فيستثير نخوتهـــم وعروبتهم ، ومجدهم السليب فى الاندلس ، وتشريد العرب فى فلسطين واستياق الحرائر :

أنرتضى ان نرى ميراثنا بـددا ... ونكتـفى بدموع من مآقينـــا
. . . .
وما نقول لأبطال لنا ســـلفوا ... اذا تهدم ما كانوا يشـــيدونا

ولا ينسى أن يذكرهم بأعداء الشرق الموتورين الذين يسممون سهامهم الخفية ، وينمقون صورا شتى للغدر والفتك .

وأخيرا يمتدح جيش مصر وشجاعته ، واقدامه وفدائيته وعزمه:

صان الاله لجيش الشرق عزته   وصان أبطاله الغر الميامينـــا

(د) الدعوة الى الوحدة العربية وتوثيق الروابط :

ثم تتجمع الانغام المتفرقة لتؤلف النشيد الخالد فى ملحمـــة العروبة ويفصح الشاعر عن أمله فى وحدة عربية شاملة ترتكز على أسس من الدين واللغة والتاريخ .

لقد جاب بلاد العروبة فما شـــعر بغربة ، فهناك الأهل ، والأخوان والحب الأكيد .

تشابهت نزعات من طبـــائعنا   لما التقت خطرات من أمانينـــا

ولقد اصطحت « فتاة القريض » فى رحلة ممتعة الى أرجاء الوطن العربى الكبير ليحيى أبناء العروبة فى الحجاز وفى الموصل وفى كل مكان .

تعـــالى نطير بريش الأثـــير   ونعلو به حيثمـــا يعتـــلى
نمر كما مر طيف الخيـــال   الم لمامـــا ولم يحفـــل
فبينا نحدث أهل الحجـــاز   اذا صوتك العذب فى الموصـل
نحيى بنى العرب الاوفيـــاء   ونسمعهم غـــرد البلبـل
أولئك قومى بناة الفخـار   وزين المحـافل والجحفـــل

ثم هو لا يكتفى بهذا الشعور الطيب وانما يحاول أن يبـــرز الاسس التى تدل على عمق الروابط والتى من أهمها :

١ ـ الدين :

يجمعهم قلب على الحب واحـد … وان مزقت أوطانهم وتشـعبوا
اذا صاح فى جيحون يوما مؤذن … أجاب على التاميز داع مثـوب
وان ذرفت من جفن دجلةدمعة … رأيت دموع النيل حيرى تصبب
وان مس جرح من فلسطين اصبعا … شكا حاجر منه وان المحصب

٢ ـ واللغة :

وحببوا لغة العرب الفصاح لهم … فان خذلانها فى الشرق خذلان
قولوا لهم انها عنوان وحدتهم … وانهم حولها جند وأعـوان

٣ ـ والتاريخ المشترك :

اخاء على الفصحى توثق عقده … وشدت على الايمان أوتاره شدا
لنا فى صميم المجد خير أبـوة … زهينا بها أصلاوتاهت بنا ولدا
اشع فى غلس الأيام حاضرنا … وضاء فى ظلمة التاريخ ماضينا
مجد على الدهر فاسأل من تشاءبه … عمرا اذا شئت أو ان شئت آمونا

٤ ـ والمشاركة الروحية :

ففى العراق :

أهـلوك أهلونا وأبـ … ـناء العشـيرة والجدود
بين القلوب تشـوف … كتشوف الصـب العميـد
حتى يكاد النخل يحـ … ـسب نخل أهلى فى رشيد
شطت منازلنـا وما أحـ … ـتاج الفـؤاد الى بريد

الرافـــدان تمازجـــا في الحب بالنيل السعيد

وفي السودان :

انى نزلت بجـــيرة بسل على النجدات حشـــد
أنسيت أهـــلى بينهـــم وسلوت اخـــوانى وولدى
الضـــيف فى ســـاحاتهـــم يجتاز من رفـــد لرفـــد
ومضت أواصرنا تمـــــ ـد الى العروبة خـير مـــد

وفي لبنان :

الأرز فيك ونخل مصر كلاهمـــا اخوان فى الافـــراح والاتراح
والنيل منك فلو بكيت لفـــادح غمر الشطوط بدمعه النضاح

وأخيرا يضرب الشاعر المثل الرائع للوحدة العربية المبنية على الاخاء والمحبة ، حينما يشترك فى الصلح بين قبائل شمر والعبيـــد فى العراق مع حمد الباسل (باشا) سنة ١٩٣٩ فيقول :

أخى انت درعى ان ألمت ملمـــة وان فدحتنى عابسات النوازل
أخى انت من نفسى دماك دمى فان كنت مأكولا فكن خير آكل
أأرمى أخى ياويل‌ماصنعت يدى فيا ليتها كانت بغـــير أنامـــل
اذا مسنى خطب فأول راكب يخوض لى الجلى واسرع نازل
أكلت دما ان لم أذد عن حياضه كريما وادفع عنه كيد الغوائـــل
أضاحكه والقلب ما عبثت بـــه لئام المساعى أو سموم الدخائل
وابسط كفى نحوه غير جافل ويبسط نحوى كفه غير جافـــل

ومن الواضح انه يسن هنا قانون الوحدة ، المبنى على الاخاء والمحبة وهذا الموقف الرائع يشبه موقف البحترى من المتوكل على الله حينما أصلح بين بطون قبيلة تغلب .

فاذا ما تحققت أحلام الشـاعر بتوقيع ميثاق الجامعة العربية فى ٢٩ مارس سنة ١٩٤٥ استقبلها بقصيدة رائعة يقول فيها :

لقد كان حلما أن نرى الشرق وحدة ... ولكن من الأحـلام ما يتوقـع
اذا عـددت راياته فهى رايـة ... وان كثرت أوطانه فهى موضع
فليست حدود الأرض تفصل بيننا ... لنا الشرق حد والعروبة موقع

(هـ) الدعوة الى النهضة .

أما وقد تحققت أحلام الشاعر فى الجامعة العربية فاننا نراه يحث العرب دائمـا على النهـوض ليأخذوا مكانهم المرموق وسـط الأمم الناهضة .

وانه ليرغب فى ذلك أشـد الرغبة ، فالحضارة العربية فى الماضى هى التى زانت الدنيا ، ومدنت العالم .

هو لا يريد أن يستجدى النهضات ، وانما يريد أن ينفخ فى رماد الماضى فتشتعل الجذوة المقدسـة ، وينهض النسر ليحلق من جديد ، ويصفق فى اذن الجوزاء :

أمة العرب آن أن ينهض النسر ... فقـد طال عهـده بالركـود
صفقى بالجناح فى اذن النجم ... ومدى فضل العنان وسـودى
وأعيدى حضـارة زانت الدنيا ... فكم ودت المنى أن تعيـدى

انما المجد أن تريدى وتمضى   ثم تمضى سباقة وتريدى
لا ينال العلا سوى عبقرى   راسخ العزم كالصفاة جليد

ثم يكرر هذه المعانى فى كثير من أبياته :

يا أمة العرب اركضى   ملء العنان ولا تحيدى
سودى فآمال المنى   والعبقرية أن تسودى
هذا أوان العدو لا الابـ   ـطاء والمشى الئيد
المجد أن تتوثبى   واذا وثبت فلا تحيدى

ولا يكتفى بذلك ، بل يرسم الخطة للشباب العربى ، وحسبه منها أمران بنى عليهما العرب الأوائل مجدهم ، وعليهما تبنى الأمم المجيدة مجدها ، وهما العلم والأخلاق :

بنى العروبة مدوا للعلوم يدا   فلن تقام بغير العلم أركان
جمعتموا لشباب الشرق مؤتمرا   بمثله تزدهى الفصحى وتزدان
فقربوا نهجهم فالروح واحدة   وكلهم فى مجال السبق اقران
لا تبتغوا غير اتقان وتجربة   فقيمة الناس تجريب واتقان

ويقول :

وكملوهم باخلاق ومرحمة   فانما المرء أخلاق ووجدان

الرثاء

١ ـ طبيعة فن الرثاء لدى الجارم :

لعلنا نستطيع أن نقرر شيئا من الحقيقة عن طبيعة فن الرثاء عند الجارم حينما نفصل بين تاريخين ، بين هذه القصائد التقريرية الجافة التى تتمثل فيما قاله من رثاء قبيل ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، وبين القصائد المنفعلة الباكية التى قالها بعد هذا التاريخ ، أى بعدوفاة ولده البكر « محمد » الطالب بكلية الهندسة ٠

وتتمثل قصائد الفترة الأولى فى رثاء اسماعيل صبرى سنة ١٩٢٣ ، ورثاء عاطف بركات سنة ١٩٢٤ وسعد زغلول سنة ١٩٢٧ ، ونجيب مترى سنة ١٩٢٨ ٠ وداود بركات سنة ١٩٣٣ ، والطيارين حجاج ودوس سنة ١٩٣٢ ٠

بينما تمثل قصائد الفترة الثانية رثاء صديقه محمد أمين لطفى ، وأبى الفتح الفقى ، وعبد الوهاب النجار بعد عام ١٩٣٥ ٠

ومن الممكن أن نتتبع قصيدته فى رثاء الطيارين لنرى مدى التقريرية والنبرة الخطابية التى حفلت بها هذه القصيدة ، كما انه من الممكن أيضا أن نتتبع تدفق الانفعالات فى قصائده الأخرى ٠

ولقد انشأ الجارم قصيدته الأولى والشعب المصرى يرتدى ملابس الحداد حزنا على فقد شابين من رواد الطيران فى مصر ، والكتاب والشعراء يعبرون فى صدق واخلاص عن أثر المأساة ،

ويفتنون فيصورون الحدث بخيالهم الخالق. حتى لتكاد تشعر انك تشارك الشابين الطائرين ساعة الهول والضيق .

ومن هنا كانت تبعة الجارم باعتباره شاعرا تتمثل فى تصويره لأحزان الأمة ، وفداحة الكارثة ، وبث العزيمة والعزاء والصبر حتى لا تلجأ النفوس الى اليأس والقنوط فتحجم عن الأقدام والمخاطرة فى هذا الميدان الجديد ، ميدان الطيران ولكنا نرى الأمر على العكس ، فالجارم يبدأ قصيدته بقوله :

جمع الشجون وبدد الاحلاما ... خطب أناخ بكلكل وأقاما

أخلى الكنانة من أمر سهامها ... عودا ، وراع النيل والا هراما

وعدا على روض الشباب وظله ... فغدا به روض الشباب حطاما

غصنان هزهما الصبا فتمايلا ... وسقاهما الأمل الروى جماما

نجمان غالهما الزمان فأصبحا ... بعد التألق والسطوع ركاما

نسران لورضى القضاء لحلقا ... دهرا على أفق الديار وحاما

يبدؤها بهذه النزعة الخطابية ، لم يهيىء للحدث ، ولم يصوره التصوير المناسب .

يبدأ فينتقى من ذاكرته صورا محفوظة مطمورة عفى عليها الزمن ، ولكنها ما زالت تعتمل عنده فى منطقة اللا شعور ، فالخطب الذى أناخ بكلكله فجمع الشجون وبدد الأحلام ، وأخلى الكنانة من أمر سهامها وروع النيل والأهرام ، وعدا على روض الشباب فحطمه لا يمثل شيئا من هول الكارثة ، وانما يمثل فى الحقيقة شيئا من محفوظات الجارم وخيالاته التى تدور مع هذه المحفوظات .

فاذا ما تركنا هذه الحقيقة التى لم نعثر فيها على الانفعال أو الحرارة وسرنا مع الشاعر فى قصيدته وجدناه يدعو الى البكاء على

الشباب الغض ويدعو أيضا الى أن تنثر الأزهار على الزهر الذى كانت له كل القلوب كماما ، ويدعو أخيرا الى أن تبعث أنينك للسحاب ٠

وابعث انينك للسحاب شكاية فالام تحتبس الدموع الام ؟

ولست أدرى هل يكفى أن تدعو شخصا الى البكاء فيبكى ؟ أم أن هذا الشخص فى حاجة الى اثارة وانفعال مبعثهما تصويرك للحدث ، وتقدير آثاره ٠

ثم أى عجز وأى قصور هذا حينما ترى مناحة الأمة فتقوم فيها بدور النادب الداعى الى البكاء ٠ الا تحتسبهما أيها الشاعر فى سبيل الله والوطن ومستقبل الطيران ؟ بل أين المثل العليا التى ترسمها للشباب فى هذه المناسبة ؟

وتقع الكارثة ولا عجب ؟

والموت يلقى الأسد فى عريسها ويغول حول كناسها الآراما
لا الدرع تصبح حين تبطش كفه درعا ولا السيف الحسام حساما

وأخيرا يحاول أن يصور الحدث ، وان يسرح بخياله مع الطائرة ، ولكنه لا يستطيع فخياله أوهن من أن يحلق ، فالجو جامح ، والسماء مريضة ، والليل داج ، والموت يخفق فى جناحى طائر ٠

ركبا جموع الجويلوى رأسه كبرا ويأنف ان ينيل زماما
فى عاصفات لم تزعزع منهما عزما كحد السيف أو اقداما
والجو أكلف والسماء مريضة والليل داج والخطوب ترامى
والموت يخفق فى جناحى طائر ملأ الفضاء شراسة وعراما
بسما الى الخطب العبوس وانما يلقى الكمى قضاءه بساما

وهو فى كل ذلك يلجأ الى صـوره القديمة ، وخياله البدوى حينما يشبه الجـو بالفرس الجموح الذى يلوى رأســه فلا يثنيـه شىء .

غير انه والحق يقال ختم قصيدته بهذا التساؤل الرائع الذى يثير فى النفس الوانا من الأسى ، وان لم تكن فيه حرارة العاطفة :

هل أخطرا فيـه على باليهمـا النيـل والآبـاء والاعمامـا
والموطن الصديان يرقب عوده ويلاه قـد عادا اليـه رمامـا
اتقاســما فيه الوداع بلفظة ام لم تدع لهما المنون كلاما
هل فكرا فى الأم تندب حظها والزوج تسـكت والهين يتامى
ان الســلامة قـد تكون مذلة ويكون أقدام الجرىء حماما ..

أين هذا من قصيدة على محمود طه المهندس :

ادنـا المزار وقـرت العينـان وفرغتمـا من لهفة وحنـان ؟
وهزتما بالشوق كف مسـلم وهفت الى تقبيله الشـفتان ؟
وحلا العنـاق على اللقاء وأومأت لكما الديـار فرفرف القلبـان ؟
يـوم تطلعت المنى بصباحـه وتحـدثت عنـه بكل لسـان

فلقد رسم الحدث بكل ما يملك من احساس وصور ، وعرض المنظر وما فيه من جوانب خارجية ، وأحاسـيس داخلية متتبعا الجزئيات مصورا لها مكونا منها لوحته الحية الباسمة التى تفجؤها الكارثة كما تفجؤنا ، فاذا بهذه اللوحة المبدعة التى خلقها بخياله الحى تحترق :

طاش الزمام فلا السحاب مقارب   لكما ولا الجبل الاشم مدانى
وهوى الجناح فلا الرياح خوافق   فيه ، ولا الأرواح طوع عنانى
سدت طريقكما الحتوف وانتما   تتحرقان هوى الى الأوطان

اتجاه جديد استغل فيه الشاعر كل طاقته الفنية ليبرز الحدث بعيدا عن التقريرية الجافة ، والصور العتيقة البالية فى الرثاء .

ثم يصور بعد ذلك فداحة الخطب ، وهول المصيبة ، وقد كان بوده ان يكون شعره ذاك اكليل غار ، ولكن حسبه ان هذه الدماء كانت فى سبيل الوطن .

تبنون للوطن الحياة وهكذا   تبنى الحياة مصارع الشجعان

ويلتفت الشاعر التفاتة طريفة فحجاج ودوس ، انما يمثلان وحدة الأمة وحدة الهلال والصليب :

مثلتما فى الموت وحدة أمة   ذاقت من التفريق كل هوان
مسح الهلال دم الصليب وضمدت   جرح الاهلة راحة الصلبان

وهو بعد ذلك يلح فى تصوير الحدث ، ووقع أثره فى النفوس ، كما يتلهف بصدق على سلاح الجو الذى يحمى الوطن ، ويدافع عنه ، وأخيرا يدعو الى التضحية والفداء :

ليضن بالأعمار كل معاجز   وليخش حرب الدهر كل جبان
ليثر على القضبان كل مناجز   وليحطم الأصفاد كل معانى
هذا الزمان الحر ما لشعوبه   صبر على الاصفاد والقضبان
لكم الغد المرجو فتيان الحمى   واليوم يومكم العظيم الشان

لا تثنينكم المنـايـا انهــا   سر البقـاء وسـنة العمران
كونوا من الفادين ان عز الفدا   كم فى الفداء من الخلود معانى

٢ ـ مأساة الجارم فى فقد ولده :

فاذا ما طويت هذه الصحيفة من حياة الجارم وبدأت صحيفة أخرى فيها قسوة التجربة وعنفها وروعتها ، فيها فقد الولد البكر ، أمنية العمر رأينا عواطف الحزن وقد تفجرت فى نفسه فمنعته حتى عن ان يصور مأساته ·

تمنيت لوأرسلت شعرىمعالبكا   بغير قـواف أو بغـير ضروب
وصيرت أناتى تفاعيـل بحـره   وجئت بوزن فى القريض عجيب
فانى رأيت الشـعر تنفر طيره   اذا دهمت من فادح بهبـوب

ولكن حتى هذه الأمنية قد استعصت عليه ، فلقد نفر طائر الشعر حينما دهمه هذا الخطب الفادح ، فبقى رثاؤه حائرا يحوم فى نفسه وتحول العبرات ، وشدة الأحزان ، وقسوة التجربة عن ابرازه وان كان قد استطاع أن يشير اليه من خلال قصائده فى الرثاء التى قالها بعد هذا التاريخ ·

أنـا أبـكى لكل باك ونفسى   حسرات تـذوب فى حسراتـه

والواقع أن الجارم قد استطاع أن يبكينا فى قصائده بكاء صادقا صادرا عن نفس حزينة تتجرع الأحزان والأوصـاب لأن الأسى يبعث الأسى كما يقول متمم بن نويرة ، ولأن فقـد الولد يهز دائما كيان الوالد بعنف وقسوة فلا يستطيع أن ينسى :

خـذوا منى الرثاء دمـوع عين   تـكل المعـصرات ولا تكـل

والبكاء والدموع احدى مراحل الحزن التى مرت بها نفس الجارم والتى تحدث عنها شعره فى المرحلة الأولى من المأساة :

قالوا أجدت المراثى فقلت : ان وانى
دموع عينى قريضى وزفرة الوجد لحنى
على أداوى حزينا فالحزن يمحى بحزن
أو يشتفى ببكاء من شأنه مثل شأنى

ولقد ظن أن ذلك يتمشى مع طبيعة النفس الحزينة بعامة ، فالحزن يمحو الحزن ، والبكاء يشفيه البكاء كما يقول بذلك هيجل غير أنه لم يلبث ان عاد فرأى ان الأمر على العكس ، فالأسى ، والبكاء يدعو الى البكاء .

بكينا لعل الدمع يطفىء حرقة من الشوق فازدادت بتذرافه وقدا

والواقع ان الجارم لم يظن فى بادىء الأمر خطأ ، ولم يرجع عن ظنه بعد ذلك ، وانما هو الحزن الذى يدفعه الى البكاء تارة ، والى فلسفة البكاء تارة أخرى ، ثم يدعوه أخيرا الى الاستسلام :

بكينا فلم يشف البكا حرقة النوى ولكن اذا ضاق الفتى كيف يصنع
تهيج بنا الذكرى فيغلبنا الأسى وتدركنا رحمى الاله فنخضع

❋ ❋ ❋

بكينا وما تبكى الرجال وانما يعود الفتى للمطبع ان لم يجد بدا

والجارم وان لم يظفر منه ولده الفقيد برثاء مستقل الا انه قد ظفر منه بعد ذلك بكل خاطرة ، وكل حديث ، وكل بيت رثاء قاله بعد هذا التاريخ :

أكلمــا مــر نعــشٍ أو طــاف نعــى بأذنــى
طــار الفــؤاد فلــولا بقيــة نــد عنــى
لــولا التــقى لــم أجِــده بجــانبى أو يجــدنى

وحديثه عن المأساة ، وأثرها فى نفسه مرحلة أخرى من مراحل الحزن ومحاولة يائسة من محاولات التنفيس عن النفس :

بى جــرح مضى عليــه زمــان حرت فى أمره وأمر أســاته
كلما صاح نادب هاج شــكوا ه ومس الاليــم من ندباتــه
أنــا أبــكى لكل باك ونفسى حسرات تــذوب فى حسراتــه
بائع الصبر ان يكن عشر مثقا ل بأغلى ما فى الحيــاة فهاته

ثم يقول فى رثاء صديقه محمد أمين لطفى :

رمتنى الليالى قبل نعيك رمية عرفت بها كيف القلوب تقطع
نصال حــداد قد ألمت لحملها وأعلــم انى هالك حين تنــزع

كما يتحدث عن الشباب والنبوغ فى رثاء قاسم أمين ولعله يشير من خلال ذلك الى مأساة ولدة :

كلما اختال فى الزمان شباب عصفت ريحه بلدن شــبابه
والنبوغ النبوغ يمضى وتمضى كل آمــال قومه فى ركابــه
غرد ما يكــاد يصــدح حتى يســكت الدهر صوته بنعــابه
وحبــاب اذا علا المــاء ولى فاسأل الماء هل درى بحبابه
وسفين ما شارف الشط حتى مــزق اليم دسره بعبــابه

فاذا ما استرد لاهث أنفاسه ، وجمع شيئا من قواه ، واجتاز

مرحلة من مراحل الحزن الى مرحلة أخرى أخف وأهدأ أخذ يصور هذه المأساة فى أكثر من مناسبة رامزا للفقيد بالزهر حينا :

ورب زهـــر شـــذاه يـزرى بأرواح عـــدن
. . . .
النـحل ترشـف منـه رحيقــه وتغنـــى
تجنى ولم تـدر يومـا ان الردى سـوف يجنـى
طغت عليــه سـموم حــرى كأنفــاس جـن
فعاودتــه ركامـــا أجـف من عــود تبـن

وبالغصن أحيانا أخرى :

بنفسى فى الثرى غصنا رطيبا يرف من الشــباب ويخضئل
تضاحكه لدى الأصباح شـمس ويلثمه لـدى الامســـاء طل
. . . .
وكنت أشـــم ريح الخلد منه واهنـأ فى ذراه وأســـتظل
وقلـت لعـله يبقى ورائـــى بدوحتــه فمـــا نفعت لعـل
فسل عنـه العواصف أى نوء اطاح بـه ؟ وأى ثرى يحـل
نأى عنــى وخـلف لى فـؤادا يـذوب أسى عليـه ويضـمحل

ـأو مصرحا بأنه الأمل الذى سقى فروعه بدمه ، وغذى منبته بأمانيه ، وحنى عليه حتى لا يمسه هجير الصيف ، أو يهزه نسيم الربيع ، وزاد عنه الطير ، واستمد له من عناصر الطبيعة أسباب البقاء والحياة فالليل ينفحه بذائب طله ، والصبح يمنحه اشعاعة نوره ، حتى اذ قوى واستحصد ، وأزهر عصفت به هوج الرياح فحطمته قبل أن يحين حينه ، ثم وقف لينظر لحطام آماله ، وقد تفتتت افلاذه مثل تفتت هذا الأمل المحطم .

قد كان لى أمل سقيت فروعه — بدمى وغذيت المنى بعذاته
احنو عليه من الهجير يمسه — ومن النسيم يهز من اسلاته
واذود عنه الطير ان حامت على — زهر يضىء الأفق فى عذباته
الليل ينفحه بذائب طله .. — والصبح يمنحه شعاع اياته
حتى اذا قويت لدان غصونه — واستحصد المرجو من ثمراته
وأخذت استجلى السنا من نوره — وأشم ريح الخلد من نفحاته
وافاخر الزراع ان غراسهم — لم يزل مثل زكائه
عصفت به هوج فخر معفرا — وجنى عليه الحين قبل جناته
ووقفت أنظر للحطام محطما — متفتت الافلاذ مثل فتاته

ويظل الحزن يعتمل فى نفسه لا يعصمه منه الا الصبر والايمان :

نحن لله راجعون وكل — بالغ فى مجالة العمر حدا
غير أن الفتى يغالبه الدمـ — ـع فلا يستطيع للدمع صدا
كل مهد يصير من بعد حين — قصر العمر ـ أو تطاول ـ لحدا

***

تهيج بنا الذكرى فيغلبنا الأسى — وتدركنا رحمى الاله فنخضع

والا التسليم بالقدر :

هو القدر الماضى اذا انساب سهمه — فلن يستطيع العالمون له ردا!

٣ ـ الشخصيات التى رثاها :

(أ) رثاؤه لأصدقائه وزملائه :

وفيه تتجلى العاطفة الصادقة ، والعبرة المخلصة ، والحيرة ، والاستسلام والضعف أمام سطوة الموت ، ورهبة الغد ، وحلكة المصير .

ومن الطبيعى أن يكون رثاؤه لأصدقائه واخوانه كذلك ، لأن فيه معنى الرثاء لنفسه ، فلكل منهم بالشاعر علاقة وثيقة ترجع الى أيام الشباب ، والشباب هو حلمه الذى مضى ولن يعود :

يهدم المرء كل يوم ويبنى	ثم يهوى فلا ترى بنيانه
نحن حب فى قبضة الدهر يلقيـ	ـه ، ويجنيه مدركا ابانه
نحن فى دوحة الأمانى زهر	يهصر الموت للبلى افنانه
ان هذى الحياة بحر وكل	بالغ بعد سبحه شطآنه
قد قضى الله أن نكون فكنا	وقضينا وما قضينا لبانه

ولقد استعان على بلوغه الغاية القصوى من هذا الفن فى رثائه لأصدقائه وزملائه بخاصة ، بأمور :

أولا ـ تصويره الساذج البسيط لأثر المأساة فى نفسه ، واثارة العاطفة فى كل كلمة من كلماته :

يموت صديقه الأستاذ أبو الفتح الفقى ، فتهد الكارثة البقية الباقية من كيانه ، ويملك المصاب عليه كل جهاته ، فيشتد حزنه ، ويختلط الدجى بنبرات صوته السوداء ، ويبكى .. ثم ينظر فى السماء نظرات الحائر الذى لا يبتغى من وراء تطلعه شيئا ، فهو يقلب طرفه لا يرجو ، ولا يخاف ، ولا يدرك :

أسوان تعرفه اذا اختلط الدجى بالنبرة السـوداء فى أناتـه
يبكى وينظر فى السماء مصعدا ما يبتغى الحيران من نظراتـه

ويفجع بفقد صديقه عبد العزيز جاويش فى سنة ١٩٢٩ ، فيفزع ، يفزع من صوت الناعى الذى يشبه الى حد بعيد صوتا رهيبا فى ظلام حالك ، ثم يلجأ الى الشك ، لعل الشك يريحه أو يغير شيئا مما نزل به ، وهو فى كلتا الحالتين خائف حزين :

نعاه لنا النـاعى فأفزع مثلما تراع بصوت فى الظلام رهيب
فقلنا ابن رحماك طارت عقولنا فلم نستمع من فيك غير نعيب
شككنا وكان الشك أمنـا واحة
وكم من يقين فى الحياة مريب

ثانيا ـ اثارته لبعض الذكريات القديمة التى تربطه بالفقيد ، وكشفه عن مصدر حبه لهم ، واعجابه بهم .

يقول فى رثاء عبد العزيز جاويش :

لقد كنت تصلى فى الحيـاة قصائدى
وتهتز عجبا أن سمعت نشيـدى

ويقول فى رثائه لأبى الفتح :

ورفعت من شعرى وكنت تحبه
وتحس سر الفن فى أبيـاته

هذا بالاضافة الى حديثه عن أيام الشباب التى جمعته بكل منهم حديثا يتسم بالصدق ، والمحبة ، والانفعال الحار :

قد كان عهدك فى بشاشة أنسه
عهد الشباب مضى الى طيـاته

كان الزمان يظللنا ... بربيعـــه
فتركتنى للقـــر من مشـــتاته

أبكى الشباب وزهـــوه وصحابه
والمشرق الوضـــاح من بسماته

كنـــا كفرعى بـانة فتفرقـــا
والدهـــر لا يبقى عـــلى حالاته

أما عهده مع المرحوم محمد أمين لطفى فلقد كان عهد الذكريات الجميلة التى قضاها مع الفقيـد فى انجلترا أثنـاء الدراسـة ، ولن يستطيع أن ينسى هذه الذكريات التى لها فى نفس كل منهمـــا أثر عميق يتجلى فى هذه الصور وفى هذه العـــاطفة القوية التى تخللت كل أبياته :

أأنسى أمينا والشبـــاب يحفنـــا
جديدا ، وروض الود بالود ممرع

بأرض اذا غص النهـــار بغيمها
فوجه أمين أينما لاح يســـطع

نسيت به أهلى ويارب صـــاحب
أبر من ابن الأم قلبـــا وأنفع

يغالبنى شـــوق الى الفن رائع
ويجذبه ميل الى العـــلم أروع

نروح ونغـدو لاهيين ولـم نكن
نخـاف رزايـا الدهـــر أو نتوقع

ونضحك للدنيا اللعوب وزورهـا
ونمرح فى زهـو الشـباب ونرتع .

وكنا نرى الأيام أحلام نائم
فأيقظنا منها الأليم المروع

وكانت غناء كلها ثم أصبحت
وليس بها الا الرثاء المفجع

* * *

أتذكر اذ نمشى الى الدرس بكرة
بنو تنجهام تستحث فأسرع ؟

ولا شك أن فى سرد الشاعر لهذه الذكريات الماضية أثرا عميقا فى الهاب عاطفته ، وتجسيم مأساته .

ويزوره صديقه الشيخ عبد الوهاب النجار زيارة مودع ، يجر خطاه ويجر وراءه سبعين عاما ، فيهرع اليه الشاعر ويتعانقان ، وكأن هذا العناق ذمام المودة الذى لا ينفصم :

رأيتك والردى يدنو رويدا ... اليك كما دنا للفتك صل
فوجهك ذابل والصوت همس ... ومشيك واهن الخطوات دال
تجر وراءك السبعين .. عاما ... وللسبعين أرزاء وثقل
مشيت كأن رجلا فى بساطى ... تسير بها وفوق القبر رجل
أتيت تزورنى فهرعت أسعى ... اليك ودمع عينى يستهل
وكان عناقنا لما افترقنا ... وثاقا للمودة لا يحل ..

ثالثا ـ التجاوه الى بعض الصور الرمزية فى المشبه به ليبتعد بذلك عن التعبير المباشر الذى يفقد التجربة حرارتها وصدقها ، والا فما باله يحدثنا عن هذا الأليف الذى فقد أليفه ، فهو يصيح به فى كل روض ، ويسائل عنه كل أفق ، يسائل عنه الطيور الحالمة والطيور المتجمعة ، ويستخبر الأمواه ، ويتأمل الروض ، ويتطلع الى النجوم

باحثا عن أليفه ، يظن حفيف الدوح خفق جناحه ، ويحسب تحنان الغدير هديله ، فقد أمل الغاب من كثرة بحثه ، وأمل صماخ الليل من كثرة ترجيعه ، له أنة المجروح الذى أعيا طبيبه فهو آنا يضحك لأمل خائب ، وآنا يجبهه اليأس والعبوس · يرى لدى كل عش صاحباه وعشه خلى مقفر مصدع :

فقدناه فقدان الأليف أليفه
يصيح به فى كل روض ويسجع

يسائل عنه الأفق والطير حوم
ويستخبر الأمواه والطير شرع

يدف فيحوى الأرض منه تأمل
ويعلو فيعلو النجم منه تطلع

يظن حفيف الدوح خفق جناحه
اذا همست منه غصون وأفرع

ويحسب تحنان الغدير هديله
فيحبس من زفراته ثم يسمع

لقد ملت الغابات مما يجوسها
ومل صماخ الليل مما يرجع

له أنة المجروح أعيا طبيبه
وضج لما يشكو وساد ومضجع

كأن جناحيه شراع سفينة
دهتها من الأمواج نكباء زعزع

تضاحكه الآمال حينا فيرتجى
ويجبهه اليأس العبوس فيخشع

لدى كل عمن صاحباه وعشه
خلى من الآلاف قفر مصدع

وأخيرا تتفجر براكين الحزن فى نفسه فما يستطيع لها رداً فتارة يحدثنا عن هؤلاء الذين :

أقاموا بعض يوم فاستقلوا
فطار القلب يخفق حيث حلوا

وتارة أخرى يحدثنا عن الجنازة ، وعن هذه النجائب المصعدة التى لا تمل السير ، والتى رآها آدم ، وعدت بنوح ، ولى بعدها نسل ونسل .

وتارة ثالثة يحدثنا عن تطلعه وتشوفه الى هذا الركب ، وعن هذه الكثبان الرملية التى غضت طرفه ، وعن هذا النداء الذى نادى به الحبيب فبح صوته وعاد مكدودا اليه :

طفقت أمد نحو الركب طرفى
فغض الطرف كثبان ورمل

وقمت أطل من شرف عليهم
فخانتنى الدموع فما أطل

وناديت الحبيب فعاد صوتى
وفى نبراته هلع وخبل

أصاخ له من الصحراء نجد
فردده من الصحراء سهل

(ب) رثاؤه للكتاب والشعراء :

فاذا ما اتسعت دائرة الرثاء ، وتعدت هؤلاء الأصدقاء الى طائفة من أعلام الشعر والأدب تربطهم بالشاعر وشائج تبتعد عن معنى

الزمالة والشباب ، ولكنها تقترب من معنى الفن الذى يحبه ويؤثره رأينا لقصائد الرثاء عند الجارم اتجاها آخر ، فهو لايحكى لنا بحرارة ذكريات شبابه مع هؤلاء الراحلين ، ولا أثر الفجيعة فى نفسه ، وانما يحدثنا كثيرا من آثارهم الفذة بلمسات رقيقة . وهو على ما أعتقد موفق فى هذا الاتجاه ، لأن هذا هو مقتضى الحال كما يقول علماء البلاغة .

ولقد رثى من هؤلاء الأعلام ثمانية . رثى اسماعيل صبرى ، وداود بركات ، وشوقى ، والزهاوى ، وقاسم أمين ، ونجيب مترى صاحب دار المعارف ، وحفنى ناصف ، وجبرائيل تقلا صاحب الأهرام .

غير أننا نلاحظ ان فى رثائه لونا من التعميم ، كان أجدر بالشاعر أن يخصصه أو أن يقرر به بعض الملاحظات النقدية ، لا سيما وأنه يتعرض تعرضا مباشرا لآثار هؤلاء .

ففى رثائه لاسماعيل صبرى يتحدث عن شعره ، وعن روعة هذا الشعر الذى سمعه فى المزاهر لحنا ، وفى الحمام هديلا ، وشمه فى الكمائم زهرا ، وشربه فى الكئوس شمولا ، وعن هذا الدر الذى ينهبه منعقود الغوانى ثم يدعوه فاعلاتن فعولا ، وعن هذا الشاعر الذى :

يخدع الجامع الشموس من القو
ل فيلقى العنان سهلا ذلولا

وعن هذا الغزل الذى يذيب القاسى ويكاد يبعث فينا من جديد « كثيرا وجميلا » ثم يوازن بينه وبين البحترى ، فالبحترى لو وعى بالواء الحسن أحزاب الهوى :

لو وعاها ما اهتز ينشد يوما
(ذاك وادى الأراك فاحبس قليلا)

وكان الواجب على الجارم أن يدرك أن اسماعيل صبرى انما هو امتداد لمدرسة الندماء ، فهو ليس بشاعر ممتاز ، وليس غزله بغزل عاشق متيم ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة الى أربعة الى ستة ، وقلما يزيد على هذا القدر الى حيث يقصد قصيدة وهــو نــادر .

وأما قصيدته التى ولع بها الجارم فشطرها

يا لواء الحسن أحزاب الهــوى   أيقظوا الفتنة فى ظــل اللواء

فرقتهم فى الهـــوى ثاراتهم   فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء

فليست الا من قبيل غزل الجارم المتكلف الذى ولع به وبأمثاله من قصيدة صبرى .

ولو أنه انصف الحكم فتحدث الينا عن فن صبرى بهذه الروح الخالية من المبالغة والتعميم فى الأحكام ، وختم قصيدته كما فعل بتصويره للموت ولأخلاق الفقيد وطباعه ، وبهذه الطائفة من الحكم :

انما نحن فى الحياة الى حيـــــ   ـــن شبابا وفتيـــة وكهولا

وبهذا اللون المخلص من الوفاء والصدق لـكان أولى .

أما فى رثائه لشوقى فالأمر جد مختلف ، فشـوقى فى نظره أمير الشعراء الذى قرأه وأعجب به ، بل وأفتن بشعره :

يا خليلى لا تهيجا لى الذكـــ   ـــرى فقد نالنى الذى قد كفانى

ناولانى بالله ديوان شــــوقى   لأراه كعهـــــــده ويرانى

ثم سيرا على الأصابع فى صمـــ   ـــت وفى حضرة «الأمير» دعانى

ولذلك كان رثاؤه رثاء المتفجع المصور لأثر الفجيعة فى الطبيعة التى كان يؤثرها شوقى وفى كرمة ابن هانىء بخاصة .

أما فى الطبيعة فلقد فقدت الشمس أخاها ، والنجوم سميرها ، وفقد الروض واصفه ، والخيال ترجمانه ، وأما فى الكرمة ، فلقد فقدت الطيور ، طيور الشعر خميلتها التى :

كن فى ظلها يغنين للشر ... ق وينهضن للعلا شبانه
كن فى ظلها يحيين مجدا ... صاعدا ضلت النجوم مكانه
كن فى ظلها يناغين آما ... لا ويبعثن همة وهنانه

وكان رثاؤه أيضا رثاء الدارس لشعر شوقى من جميع نواحيه وبقدر ما تسمح به قصيدة شعرية لا تتجاوز المائة بيت .

فهو يحدثنا عن قدرة شوقى على اصطياد المعنى النافر بتصوير جميل لايستطيعه الا من مر بتجربة الخلق الفنى ، فهذا المعنى كالصيد الذى يزدرى صائده ، ويعبىء أسلحته فتارة يثب الى الوادى ، وتارة يثب فوق الجبال ، وأحيانا يسابق السهم فيتلوى تلوى الخيزرانة :

ثم يخفى فلا تراه عيون ... ثم يبدو فلا نشك عيانه
أجهد الفارس الملح وأفنى ... نبله حوله ، وأضنى حصانه
وهويعدو لاالرأسمال من الأيـ ... ـن ، ولا قلبه شكا خفقانه
مد شوقى اليه نظرة سحر ... عوقت دون شوطه جريانه
فأتى مشية المقيد يسعى ... بين هول وذلة واستكانه

ثم يتحدث عن غزله الذى يشبه غزل الجارم فى برودة عاطفته غير أن الجارم يمجده فيقول :

تسمع الحب فى نواحيه همسا ... يتناجى ويشتكى أشجانه
وتحس الهوى يرق حنانا ... شرك الحب أن تحس حنانه

كما يتحدث عن وصفه للطبيعة ، وعن رثائه ، ورواياته ، وطريقة نظمه :

يغمض العين فى اضطراب اذا حس طروق الالهام أو غشيانه
ثم يملى كأنه من كتاب قارىء فى سهولة ومرانه

ومن حبه لتاريخ مصر ، وعشقه للنيل ، والجزيرة ، والجسر ، والسفائن وريف عين شمس ، ومدح فؤاد ، أو عن سبقه وفنه ، وحكمته فى شعره وصدق خياله ، وروعته ، ورصانته ، وعن أسلوبه البحترى وقوته .

ويتحدث أيضا عن مجير الفصحى ، وبيعة الامارة ، وأخيرا يحدثنا عن أخلاقه التى تتميز بالصبا والحجا والسماح ، وبالشمم فى تواضع ، والحياء فى وقار ، والفطنة فى لقانة ، والحديث الحلو واليقين بالله .

وعلى العموم فرثاء الجارم لشوقى رثاء الدارس المحب المفتون فاذا ما انتقل الى رثاء الزهاوى عاد الى مبالغته التى رأيناها فى رثاء صبرى ، ولكنه يبدأ قصيدته بحديثه عن الروض الذى شبه به الشعر والأدب ، ويوازن بين الروض فى حالين مختلفين ، حال البشاشة والأنس ، وحال الذبول والأسى .

تلفت أين الروض أين مكانه وأين مجاليه وأين بواكره ؟
وأين الذى لم تطرق الاذن مثله اذا صدحت فوق الغصون مزاهره ؟

* * *

سل الروض ان أصغت اليك رسومه متى روعت اطلاؤه وجآذره
وأين الغدير العذب طاب وروده لذى الغلة الصادى وطابت مصادره

يتحدث عن الروض فى سبعة وعشرين بيتا ، ثم يتحدث عن شعر الزهاوى وعن نبوغه ولوذعيته ، واعجاز بيانه ، وعن أمنيات العذارى :

تمنى العذارى لو تقلدن دره ... ورفت على أجيادهن جواهره

ويزهى العيون الدعج انسوادها ... شبيه بما ضمت عليه محابره

وما جاشت الصهباء الا لأنها ... وقد صفقوا مشمولها لا تناظره

تمر به مرا فيسبيك بعضه ... وتقرؤه أخرى فيسبيك سائره

ترى فيه هذا الكون صورة حاذق ... أحاطت بأسرار الحياة بصائره

واعتقد أن كل هذا من مبالغات الجارم ، وأن الزهاوى كان جاف العاطفة عميق الفكرة الى درجة أوشك معها أن يدخل فى شعره المعادلات الرياضية ، وان أصدق بيتين فى هذا الرثاء قول الجارم :

تمر به مرا فيسبيك بعضه ... وتقرؤه أخرى فيسبيك سائره

وتلمح فيه الرأى فى بعد غوره ... كما غاص تحت الماء للدر زاخره

ثم يتحدث عن ثورته ، وجرأته ، وبعد رأيه ، وعن العلاقة الوثيقة بين مصر والعراق والعرب بعامة اثر زيارته لبغداد .

فاذا ما رثى بعد ذلك «حفنى ناصف» رأيناه يتجه اتجاها آخر فيوجه حديثه الى القبر ، ولقد سبقه الى ذلك حافظ فى رثائه لمصطفى كامل . يقول الجارم موجها حديثه الى القبر : ماذا صنعت بحفنى ؟

ماذا صنعت بعلم ؟ ... وما صنعت بفن ؟

وما صنعت بفكر ... ماضى الشباب وذهن ؟

ثم يترك حفنى وقبره ليتحدث عن نفسه ، وعن شعره ، وعن مأساته فى فقدولده ، وأخيرا يتحدث قليلا عن شعر الفقيد ،ويصفه بأنه نقى خال من العلل لطيف مملوء بالنكات والروح الخفيفة التى تستمد خفتها من هيئة صاحبها :

قد كان ضخما جسيمــــا يبـــدو كشامخ حصـــــن
اللحـــم رخـــــو بـــدين لــــــه نعـــومة قطـــــن
والصـــــدر رحب فســـيح ما جاش يوما بضـــغن
فى وجهه الجهم حســـــــن من روحه المســـــتكن

ثم يذكر زياراته وهذه الفكاهات التى أفاضت الحديث زلالا :

فـــكاهة مـــن لـــــــدنه ونكتـــة من لـــــــدنى

وفى رثائه لداود بركات نلمح أثر الفجيعة تغطى على ملامح الفقيد الخاصة فترة طويلة من القصيدة ، ويندمج الشاعر مع المأساة وينظر اليها نظرات عميقة نفاذة ، فيحدثنا عن سير الجنازة ، وعن أصحابه الذين وقف ليلقى عليهم النظرة الأخيرة ، وعن هذه الطريق التى عبدت من قبل نوح ، والتى يجتمع بها الأضداد ، ويلتقى القريب بالبعيد ، والتى يختتمها بقوله :

اذا لبس الربيـــع شباب قوم فأسرع ما يفاجأ بالشـــــتاء
وكـــل نضيرة فالى ذبـــول وكل مضيئة فالى انطفـــــاء
وهل تهوى ثمـــار الأرض الا اذا أدركن غايات النمـــــاء

ثم يعود فيهدأ ، ويتحدث عنملامح الفقيد الخاصة ، وعن هذا القلم الجرىء والقلب الذكى ، وعن أثرهما فى كتاباته الصحفية ، وعنهذا البيان الواضح :

يكاد يسيل فى القرطاس لطفا فتحبسه علامة الانتهـــــاء
بيان لو صدعت به الليــــالى رأيت الصبح منها فى العشـاء
له نور يكاد يســير فيـــه رهين المحبسين بلا عنـــاء

ثم يعزى أبناء لبنان :

وفى رثائه لقاسم أمين يصف نفسيته المحطمة ، ويتكلم عن الشباب والنبوغ كما يتحدث عن قاسم الخطيب صـــاحب الرأى الجرىء ، وعن دعوته الى حرية المرأة ٠

ولا يخرج عن هذه المعانى فى رثائه لنجيب مترى صاحب دار المعارف العصامى الذى يمثل فى بيته خير الآباء ، ومثله جبرائيل تقلا الصحفى الشجاع صاحب الأهرام ٠

حـ ـ رثاؤه للزعماء الوطنيين :

من أمثال «سعد» و «محمد محمود» و «محمود فهمى النقراشى» و«عاطف بركات» ٠ ولا شك أن لكل من هؤلاء دورا خطــيرا فى أحداث مصر ، وفى ثورتها ، الا أن «سعدا» قد استأثرت بهأحداث الثورة فهو أشد اتصالا بها أمـا « عاطف بركات » فبالرغم من أنه نفى مع من نفى من زعماء مصر فى جزيرة «سيشيل» الا أنه قـــد اشتهر بالعلم والعمل من أجل العلم فهو الذى أنشأ مدرسة القضاء الشرعى ٠

وأما «محمد محمود» و «محمود فهمى النقراشى» فلقــد لمع نجماهما رئيسين للوزارة المصرية ٠ ولقد رثى الجارم كلا من هؤلاء ٠

والسمة العامة لهذا الرثاء تتمثل في ذكر المجيد من أعمالهم

الوطنية ، ومواقفهم من أحداث الثورة ، وان اختلفت بعض العناصر الجانبية الأخرى تبعا لشخصية المرثى وبقية أعماله ٠

كما تتمثل فى تصوير حالة مصر قبيل الثورة ، ففى رثائه لسعد نرى صورة الدولة المحتلة الخاضعة للحماية التى تعيش على أعصاب أبنائها ، فالذعر يعصف بالقلوب ، والأرض ترجف ،والسماء مريضة ، والنفس حيرى ، والهموم توالى :

والناس فى صمت المنون كأنهم ... صور كساها الحزن ثوب خبال
ان حدثوك فبالعيون ليتقـــوا ... رصد العيون وشرة المغتــــال
والموت يخطر فى الجموع وحوله ... أجناده من أنصـــــل وعـــوال
واذا بصوت هـــز مصر زئيره ... غضب الليوث حمـاية الاشبال

وفى رثائه لمحمد محمود يقول :

دعته مصر وللأحداث ملحمـــة ... والخطب ما بين تهدار وتهديد
وأنفس الناس فى ضيق وفى كمد ... كأنها زفرة فى صدر معمـــود
حيرى تلوذ بآمال محطمــــة ... كما يلوذ غريم بالمواعيــد ٠٠
طارت شعاعا وهولا مثلما عصفت ... هوج الرياح برمل البيد فى البيد
والجو أكلف والدنيا مقطبـــة ... أيامها البيض فى ليلاتها السود
فجاءها خالدى العزم فى نفـــر ... شم الأنوف صناديد مناجيــد

صورة واحدة فى كلتا القصيدتين رأى فيهما الشاعر وسيلة لاظهار فضلهما وقوة شخصيتهما لأنهما أنقذا البلاد وفرجا الغمة ٠

وان كان قد استعاض عن هذا التصوير بوصف «عاطف

بركات» وهو منفى فى جزيرة «سيشيل» كأنه الأسد الهصور الذى يزدرى ألم الأسار وقوة الاصفاد :

سيشيل منه رأت هصورا يزدرى ألم الأسار وقسوة الأصفاد
لهفى عليه والديار بعيدة وخيال مصر مراوح ومغادى
متوثبا نحو المحيط كأنه صقر الفلاة بكفة الصياد
ما دكه عصف الخطوب ولا ونى لزعازع الابراق والايعاد

وهذه السمة العامة نلحظها فى القصائد الثلاثة ، ولو أن سعدا قد استأثر باعجابه فحدثنا عن شخصيته القوية التى زشقتها أحداث الخطوب فأقصدت ولم تخطىء المقتل :

رشقته أحداث الخطوب فأقصدت حرب المنايا الدهم غير سجال

وعن تاريخ هذه الشخصية التى اتسمت بالقوة والارادة والشرف ، ووضوح السريرة والشجاعة فى الخصام :

يزداد فى عصف الشدائد قوة ويجول حين يضيق كل مجال
كالشعلة الحمراء لو نكستها لأضفت اشعالا الى اشعال
والسيل ان أحكمت سد طريقه دك الحصون فعدن كالاطلال

كما حدثنا عن سعد الخطيب ، وعن اعجاز بيانه ، ولعبه بعقول السامعين

انقام يخطب قلت حيدرة انبرى للقول فى سمت وصدق مقال

وتحدث أيضا عن شخصيته وأخلاقه ، ومواقفه فى دارالنيابة ثم أبدع فوصف موته وجنازته ، ودعا الى السير على هداه .

أما عاطف فلقد مات فى سنة ١٩٢٤ صغير السن ، وبشائر النصر تلمح فى الأفق ، فلم يهنأ بها ، وان كان قد ترك وراءه أثرا خالدا فى مدرسة القضاء الشرعى ٠

وأما محمد محمود فلقد رثاه بوطنيته وبيته الكريم ٠

٤ ــ نظرات فى الحياة والموت :

ليست للجارم فلسفة عميقة تتعلق بمشكلة الحياة والموت ، وان كانت له خطرات أوحت بها هوة العلاقة بين سطوة القدر وضعف الانسان ٠ وتتلخص هذه الخطرات فيما يأتى :

أ ــ كل شىء يصير الى نهاية محتومة ، فالربيع يفاجأ بالشتاء، والشباب تدركه الشيخوخة والفناء ، والقصر العامر يصير بعد حين الى خراب :

كل مهد يصير من بعد حـــين   قصر العمـــر أو تطاول لحـدا

* * *

اذا لبس الربيع شباب قـــوم   فأسرع ما يفاجأ بالشـــتاء
وكل نضيرة فالى ذبـــــــول   وكل مضيئة ــ فالى انطفـــاء
وهل تهوى ثمـــار الأرض الا   اذا أدركن غايات النمـــــاء

* * *

دورة الأرض كم أمدت قبيـــلا   بحياة ، وكم أبادت قبيــــلا
نضرة فى أزاهر الصبح تمسى   بعد لأى تصوحا وذبــــولا
رب قصر قــد كان ملعب أنس   صيرته الأيام ربعـــا محيــلا
وفتاة طوى محاسنها الدهـــــ   ـر بنانا غضا وخدا أســــيلا

ب ـ واذا كان الأمر كذلك فيجب علينا أن نستسلم لسطوة القدر الذى تحكم فى الأنام فسوى بين الجميع ، بين السيد والعبد، والنملة والأسد ٠

والفتى فى الحيـــاة رهن عــواد لا يرى دون ملتقاهن بـــــدا
حكم الموت فى الأنام فســـوى لم يدع سيدا ولم يبق عبـــدا
بينما يسحق النمال تـــــراه باسطا كفه ليقنص أســـدا

* * *

للموت أسلحة يطيح أمامهـــا حول الجرىء ، وحيلة المحتـــال

ج ـ وكما خلقنا من تراب نعود الى التراب :

نعـــود الى التراب كما بدأنا فكل حياتنا نقض وغـــــزل

ونحن نأكل الأرض ثم تأكلنا الأرض :

نأكل الأرض ثم تأكلنـــا الأر ض دواليك أفرعا وأصـــولا

* * *

وليس تراب الأرض غير ترائب وغير عقول حطمت وقلـــــوب
سلوا وجنات الغيد فى ذمة الثرى أتزهى بحسن أم تـدل بطيب
وكانت شباكا للعيون فأصبحت ولست ترى فيهن غير شحوب

د ـ ولقد تتبع فى رثائه كل ما يتعلق بأهوال الموت ومفازعه فصور ساعة النزع ، وفزع الموت ، كما تتبع ركب الموتى فوصف النعش والجنازة والقبور ٠ يقول فى رثاء اسماعيل صبرى مصورا ساعة النزع ، وان كان يستمد تشبيهاته من محفوظاته مما جمد الصورة :

لو شهدت الردى يحـــوم عليه		والمنايا ترمى لـــه الا حبـــولا
لرأيت الصمصام لا يقطع الضغـ		ـث وقد كان صارمـــا مصقولا
ورأيت الروح الخفيفـــة حيرى		ان عبء السقام كان ثقيـــلا

ولقد شبه ركب الموت بركب الابل ، التى لا تمل الطريق ولا يعوقها ظلام الليل ، أو ثقل الحمل :

مضت بهم النجائب مصـعدات		تمل بها الطريق ولا تمـــــل
زوامل لم يعوقهن ليـــــل		ولم يثقل كواهلهن حمـــــل
رآها آدم وعدت بنـــــوح		وولى بعدها نســـل ونســـل

كما شبه المشيعين بالحـداة ، والحياة بضحى الصباح ، والموت بدجى السماء .

مضت بهم النجائب مصـعدات		وللباكين رنات الحـــــداء
تجلوا فى النجاد ضحى صباح		وغابوا فى الوهاد دجى مســاء
وقفت أزود النظرات منهـــم		وأصغى للنــــوادب من ورائى
فلم ار اذ نظرت سوى جـــلال		يهول وما لمست سوى هبـــاء
وناديت الصحاب فبح صـــوتى		وعاد الى مكدودا ندائــــــى

وهو هنا يعتمد على الايحاءات والمقابلات فى البيت :

تجلوا فى النجاد ضحى صباح		وغابوا فى الوهاد دجى مســاء

بين تجلوا وغابوا ، والنجاد والوهاد ، والضحى ، والدجى، والصباح والمساء :

وجعل الركب بمن فيه ينحاز الى الذين من آدم :

وانحـــاز للركب الذى من آدم ما زال يزعجنا رنين حـــداته
سارت به الأجيال تستبق الخطا والقلب مكظوم عـــلى حسراته

وأخيرا يجعل دار الموتى الفلاة عـلى عـادة العرب فى الجزيرة العربية :

فوقفت أنظر فى الفلاة فلم أجد الا جلالا فى فسيح فلاتـــه

***

وأبعث فى الصحراء أنات شيق وهل تسمع الصحراء أنات شيق

كما يجعلها غير ذات آفاق يسيرون اليها على غير أنيق :

ذكرت أحبائى وقد سار ركبهم الى غير آفاق على غــــير أنيــق

٥ – وقبل أن نغادر هذا الموضوع يحسن أن نشير الى بعض ملاحظات لم يكن الشاعر فيها منطقيا مع طبيعة موضوعة ، أو طبيعة عصره ، أو لم يكن جو القصيدة النفسى فيها واحدا :

أ – يقول فى رثاء سعد :

سارت مطية نعشه عجبا به تختال بين الوخــد والأرقـال
فيها كتابوت الكليم سكينـــة وبقية من هيبـــة وجـــلال

هل هذا التصوير يتمشى مع سير الجنازة ؟ مطية مختالة تسير معجبة بين الوخد والأرقال ، ثم ناس يبكون وهم يودعون الراحل . أين جلال الموت ؟ ثم هل هذا يتمشى مع البيت الذى بعده .

فيها كتابوت الكليم ســكينة وبقية من هيبـــة وجلال ؟

ولم جعل فيها بقية فقط من هيبة وجلال ؟

ب – يشبه سعدا بالجواد حينما يقول :

ومضى يغبر لا العسير بخاذل ... أملا ولا نيل السها بمحال

كما يشبه الراحلين بالابل :

بنفس الراحلين مضوا سراعا ... لورد الموت كالهيم الظماء

جـ ـ ويقول فى رثاء أبى الفتح أيضا :

فاذا تخطر للجدال مصاولا ... فاحذر فتى الفتيان فى صولاته

السيل فى دفعاته والسيف فى ... عزماته ، والموت فى وثباته

وكذلك يقول فى رثاء الاسكندرى :

كأنى أراك اليوم تخطب صائلا ... وتهدر تهدار الفنيق المشقق

وعندى أن هذا لا يفتخر به ·

د ـ من مبالغاته فى رثاء أبى الفتح قوله واصفا حزنه :

خفقان نجم الأفق فى خفقانه ... وهجير قيظ البيد من زفراته

الشعر الاجتماعى :

١ ـ تحرير المرأة :

يقول الجارم فى ذكرى قاسم أمين سنة ١٩٣٨ :

قد نكرناه حين قام ينادى ... وفهمنا معناه يوم احتسابه

رب من كنت فى الحياة له حر ... با شققت الجيوب عند غيابه

وتحديت شمسه فاذا ولى ... تمنيت لمحة من ضبابه

لم يفز منك مرة بثناء ... فنثرت الأزهار فوق ترابه

يعرف الورد حينما ينقضى الصيـ ... ـف ، ويبكى النبوغ بعد ذهابه

والمتأمل فى هذه الأبيات يرى أن الجارم قد عبر تعبيرا صادقا وموضوعيا عن موقف الرأى العام والمتنورين منه بخاصة من دعوة قاسم أمين الى حرية المرأة ، فلقد أنكروا دعوته حينما قام ينادى وأكبروا معناها عند وفاته ، لأن الدعوة فى المرحلة الأولى كانت ثورة فى مجتمع رجعى متزمت ، وفى المرحلة الثانية كانت شيئا طبيعيا يساير الحياة والتطور ، فلقد خرجت المرأة الى المجتمع ، واختلطت الطالبات بالطلاب فى ساحة الجامعة .

وما دعوة قاسم غير هذين : تحرر من أسر الحجاب ، وتربية وتعليم . والجارم فى أبياته يعبر عن موقفه ، وعن موقف كثير من الكتاب والشعراء من أمثال عبد المطلب ومحرم والرافعى ورجال الدين والقصر . موقف واضح يرفض الدعوة رفضا باتا لأنها خروج على الدين وتقاليده ، وان كان يقابله موقف آخر من بعض المتنورين المتطورين الذين يحاولون الجهر بآرائهم ، ولكن فى هناة ويسر وممالأة وتقية من الرأى العام من أمثال شوقى وحافظ والزهاوى .

وليست مهمتنا هنا الاستقصاء ، وان كنا نود أن نسلط الأضواء على موقف الجارم .

والجارم قد أنكر دعوته حينما قام ينادى . يقول موصيا ابنته ومهاجما عادة التبرج والتزين ، ومفضلا للخمار على السفور فى سنة ١٩١٨ :

يا بنتى ان أردت آية حسن ... وجمالا يزين جسما وعقلا
فانبذى عادة التبرج نبذا ... فجمال النفوس أسمى وأعلا
يصنع الصانعين وردا ولكن ... وردة الروض لا تضارع شكلا
صبغة الله صبغة تبهر النفـ ... ـس تعالى الاله عز وجلا
واجعلى شيمة الحياء خمارا ... فهو بالغادة الكريمة أولى

ذاك نصحى الى فتاتى وسؤلى وابنتى لا ترد للأب سؤلا

ويقول أيضا أنه فهم دعوة قاسم يوم احتسابه !! فهل هذا صحيح ؟ الواقع أنه أبدى تحفظات معينة لو وعاها صاحب الدعوة لما قامت المعارضة فى وجهه ، فلو أن قاسما نادى أولا بتطهير المجتمع من الذئاب ، ونادى ثانيا ببعث روح العفة والحياء فى المرأة لما وجدنا فى دعوته نكرا فرب جرائم تختال فى ثياب المدنية أنكى وأفتك من ضراء الوحوش فى الغابات !! ورب منقبة متحفظة تحمل فى خبايا نفسها روحا شريرة لأنها حرمت الحياء ، وبعدت عن روح العفة :

يا نصير النساء والدين سمح لو وعينا السرى من آدابه

قد خشينا على الحمائم فى الدو ح أظافير بازه أو عقابه

ان أردت الظباء تمرح فى السه ل فطهر أكنافه من ذئابه

كم ضراء وسط المدائن أنكى من ضراء الضرغام فى وسط غابه

وشباك من الجرائم والختـ ل حواها شيطانهم فى جرابه

واذا الحياء لم يستر الحـ سن فماذا يفيده من نقابه

وأما الشق الآخر من دعوة قاسم وهو « تعليم المرأة » فقد تحقق وانه لفرح بذلك :

قمت تدعو البنات للعلم فانظر كيف حلقن فوق شم هضابه

وزها النيل بابنة النيل فاختا ل ، يجر الذيول من اعجابه

وغدا البيت جنة بالتى فيه خصيبا بالأنس بعد يبابه

٢ — تصويره للحياة الاجتماعية :

وللجارم لمسات رقيقة تصور بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى عصره ، وأقول : بعض مظاهر الحياة الاجتماعية لأنه لم يتفاعل

في الواقع مع المجتمع الذى عاش فيه تفاعلا كاملا ، رغم نشـــأته في بيئة متوسطة برشيد ، ورؤيته لأنماط مختلفة من الناس تضطرب في محيط هذه البيئة ، بين غني مترف ، وفقير معدم ، بين صيادى السمك الذين يجوبون المياه ، ويتحدون صراع الطبيعة ، وغضـب البحر ، وبين الفــلاحين الذين يخرجون من ديارهم مـع الصبـاح فيعملون ويكدحون ويتصبب العرق من جباههم ليختلط بتراب الارض التى يستغلها ملاكها ، ثم يعودون آخر النهار وقد ازدادوا حرمانا على حرمان .

وحينما انتقل الى القاهرة سكن في « درب السلحدار » بحى الأزهر في غرفة بسطح أحد المنازل ، ورأى بالتأكيد على مد البصر منه ألوانا متعددة لأنماط من الناس يتفاوتون في درجات البؤس والشقاء ، رأى كثيرا من المبانى الاثرية المتهدمة التى تحوى بين أنقاضها أكداسا بشرية تعيش على الجوع وتكافح في سبيل العيش كما رأى كثيرا من المتسكعين ، والمتعطلين ، والجالسين على المقاهى وسائقى عربات الكارو ، ومقاطيع الحسين ، وعصابات الشحاذين، والنشالين ، ومتعاطى الأفيون والمخدرات ، وبنات الهوى ، فلم يلفت نظره من كل ذلك الا « الأعمى والشريد » ولم يساعده على هـــذا الالتفات الا دعوة « جمعية رعاية العميان » بمصر حينما أقامت في ١٥ ابريل سنة ١٩٣٧ حفلة بدار الاوبرا الملكية لحض المحسنين على مد يد الاحسان الى هذه الطائفة المسكينة ، وطلبت من الجارم أن يقول قصيدة في الحفل ، والجارم شاعر مرموق المكانة ، فلم لا يقول ؟ لا سيما وأن حافظ ابراهيم كان له في الشعر البائس ألوان متعددة ، والشعر في أمثال هذه المناسبات تقليد متبع !

وما على الشاعر اذا أراد القول الا أن يسترجع بعض الصور التى خبرها عن قرب. أيام أن كان طالبا في الأزهر فعرف بؤسها وشقاءها ، فاذا قال فانما يقول عن خبرة قد انشغلت بها نفســه

فى يوم من الأيام ، والطالب المبصر فى الازهر كثيرا ما يختلط بزميله المكفوف ، وكثيرا ما يعطف عليه ، ويتجسم هذا العطف فى قراءته له بعض ما عليه من المواد .

ومن هنا نرى الجارم يصور حياة العميان فيبدع التصوير حيث يقول على لسان الأعمى :

من مجيرى من حالكات الليالى   نوب الدهر مالكن ومالى
قد طوانى الظلام حتى كأنى   فى دياجى الوجود طيف خيال
كل ليل له زوال وليلى   دق أطنابه لغير زوال
كل ليل له نجوم ... ولكن   أين أمثالهن من أمثالى
تثب الشمس فى السماء وشمس   عقلت دونها بألف عقال
لا أرى حينما أرى غير حظى   حالك اللون عابس الآمال

ثم يستطرد فى تصويره حياة ذلك الاعمى ، وتصوير الجب الذى يعيش فيه وذلك الظلام الكثيف الذى يلف حياته ، وتلك المشية المترددة الحائرة التى تتلمس الطريق مستعينة بكفها :

أتقرى الطريق فيه بكفى   بين شك وحيرة وضلال
وأحس الهواء فهو دليلى   عن يمينى أسير أو عن شمالى

ولا يكتفى بذلك ، وانما يستمر فى ابداعه فيصور الاعمى مترديا فى هاويات الوهاد ولاهثا فوق شامخات الجبال :

عند صحراء للأعاصير فيها   صخب الجن أو نحيب السعالى
لم يزرها وشى الربيع ولكن   لك ماشئت من نسيج الرمال

ثم يصوره هاويا فى لجة ، تحيط به الظلم من كل جانب :

يفتح الموج مـا ضغيه فيهـوى ثم يطفو محطم الأوصـــال
لا ترى منـه غير كف تنـادى حينما عقه لســان المقـــال
والرياح الرياح تعصف بالمسكين عصف الأيام بالآجـــال

وهنا وبعد أن يبلغ الشاعر هذه المرحلة يأتى بصور تضطرب فيها الالوان بالصخب والضجيج فتنفطر نفس الأعمى ، ويفتح كفيه وينادى :

يسمع السفن حوله ماخـرات من يبالى بمثله من يبـــالى؟
يسمع الرقص والأهازيج تشدو بين وصل الهوى وهجر الدلال
شغل القوم عنه بالقصف واللهـ ـو وهاموا بحب بنت الدوالى
ما لهم والصريع فى غمرة اللـج و يصد الأهوال بالأهـــوال
لا يريدون أن يشاب لهم صفـ ـو بنوح للبــؤس أو أعــوال

ثم يكون تعليق الشاعر على هذه الحالة قاسيا وشديدا فيقول:

هــكذا تمحــل القلــوب وأنكى أن تباهى بذلك الأمحال
هكذا تقبر المروءة فى النـــا س ويقضى على كريم الخلال

ثم يعود ثانية الى الأعمى ، وعصاه ، وبؤسه ، والى حرمانه مما يتمتع به الجميع مع أنه حق مشاع للجميع ، فهو مارأى الروض فى مآزره الخضر ، وما رأى صفحة السماء وما ركب فيها من باهـرات اللالى ، وما رأى النيل يختال بين الخمائل ، وما رأى فضة الضحى، ولا عسجد الأصيل :

فدعـــوه يشهد جمـــالا من الاحسان ان فاته شهود الجمال
ودعوه يبصر ذبالا من الرحمــ ـة ان عقه ضـــياء الذبال
قد خبرت الدنيا فلم أر أزكى من يمين تفتحت عن نـــوال

ويعود أخيرا الى الأغنياء ، ويدعوهم إلى الانفاق ، ثم تتزاحم رواسب المناظر القديمة البائسة التى شهدها أيام أن كان فى «درب السلحدار» تتزاحم لتخرج الى الوجود بعد أن طال حبسها فيصورها أيضا تصويرا رائعا حينما يقول :

ان فى بلدة المعـز جحـورا — متـرعات بأدمع الأطفـال
كل جحر بالبؤس والفقر مملو — ء ، ولكنه من الزاد خـالى
بسقت فيه للجراثيم أفنـا — ن تدلت بكل داء عضـال
لو رأيت الأشباح من ساكنيـه — لرأيت الأطلال فى الأطلال !

والأعمى وان حرم نعمة الابصار ، فلقد عوضه الله خيرا منها اذ أعطاه البصيرة الكاشفة التى يلمح بها الخطرة الخفية للنفس ويرى بها الحق فى جلالة معناه ، ولقد كان شيخ المعرة كوكبا ساطعا أتى بما لم تستطعه الأوائل !

وأخيرا يدعوهم الى أن ينقذوا هذا العاجز المسكين فيعلموه ويفتحوا أمامه مغاليق الامور ، حتى لا يكتفى بصنع السلال !!

لقد نزل الوحى يدعو الى الترفق بالاعمى ، أما التاريخ فسوف تتلوه الاجيال فأعدوا التاريخ للأجيال .

ومن هذا التصوير نرى كيف استطاع الشاعر أن يحرك أوتار الرحمة على كل هذه الطائفة ، وأن يعطينا نموذجا بشريا لكل العميان وهو هنا شاعر حديث كأحدث ما يكون الشعراء « لقد كانت الرحمة فى الأدب القديم تنصب على شخص بعينه : كهكتور ، أو آنتيجون ، أو بولكسين ، أو ألسيست ، أما الشاعر الحديث فانه يفعل غير ذلك : انه يوقظ فينا العطف على طبقة بأكملها ، أو شعب بأسره ، أو طائفة من الناس بتمامها .

وكما صور الشاعر حياة الاعمى صور حياة الشريد ،والشريد مشكلة اجتماعية ما زالت فى حاجة الى حل سريع حاسم ، ولقد أسهم الكتاب والشعراء بنصيب موفور فى التنبيه الى خطرهذه المشكلة ، وقلما خلا ديوان شاعر معاصر من تصوير حياة هؤلاء المشردين ٠

والجارم فى وصفه للشريد لا يقل روعة عن غيره ، ولا يقصر انفعاله عن قصيدته السابقة « الاعمى » فالشريد فى كل مكان ، نراه طفلا يحبو ولقيطا ضالا ، ومتشردا يحترف النشل ، أو يتسكع فى الطرقات ٠

ومن المظاهر البائسة التى هزت كيان الشاعر بعنف ، وألهمته صورا واقعية « مظهر الوباء » الذى استشرى فى مصر سنة ١٨٩٥ ، وعرف باسم « وباء الكوليرا » ذلك الذى حصد الارواح وأعجز الأطباء ، ثم عاود زيارته الثقيلة فى سنة ١٩٤٧ ثم وباء مرض « الفيل » برشيد ، فهذه الأمراض تدهم البلاد بين الحين والحين فتقضى على عدد كبير من الأبرياء الذين يسلمون أمرهم لله ،ويستقبلون الموت مكرهين ٠

واذا كان طه حسين قد صور فى « الأيام » هذا المنظر الفاجع متمثلا فى أخيه الشاب الذى دهمه الوباء فقضى عليه ، واستطاع أن يستولى على عيوننا وقلوبنا ، وأن ينقلنا الى قريتهم البعيدة لنشارك أسرته أحزانها ، ونذرف الدمع الحار مع أفرادها ، ونندمج بكل ما أوتينا من أحاسيس وانفعالات مع ما يبدو فى هذه القرية من مظاهر البؤس والحسرة ، فان الجارم قد استطاع أن يعطينا بعض الصور لهؤلاء الذين أصيبوا بالوباء ٠

بعض صور سريعة فيها انفعال وحسرة ومشاركة للآخرين وأن

لم تبلغ ما بلغته صورة « طه حسين » فى أيامه التى تنقلنا بهدوء الى جوه الحزين فى قريته البعيدة ٠

وصور الجارم على أى حال تعتبر مشاركة حية ومعبرة عن انفعال صادق لأنه رأى المأساة التى رآها طه حسين ، بل لقد عاشها وهو وان لم يصب بفقد أخيه الا أنه قد أصيب بفقد الناس من حوله ، فلقد أطلق عزرائيل من قيده فبدأ يحصد النفوس ويفترس الأبرياء !!

وشعره هنا يعتمد على الأسلوب الخطابى وان أتى أحيانا بصور سريعة متوالية ٠ ففى سنة ١٨٩٥ ينشىء قصيدته «الوباء» ٠

أى هذا « المكروب » مهلا قليلا ... قد تجاوزت فى سراك السبيلا
لست كالواو وأنت كالمنجل الحصـ ... ـاد ان أحسنوا لك التمثيلا

ثم يأتى بصورتين سريعتين صورة طفل فقد أمه فى زحمة « الوباء » وفتاة طرقها ليلة العرس فكان لها الحليل بدل الحليل ، لم يرحم أعينها النجل ولا جمالها الخلاب ٠

رب طفل تركت من غير ثدى ... يضرب الأرض ضجة وعويلا
وفتاة طرقتها ليلة العر ... س وقبل الحليل كنت الحليلا
كحلوا جفنها فكحلت فيها ... كل جفن أسى وسهدا طويلا
خضبتها يد المواشط صبحا ... فمحاه المطهرين أصيلا
لو رآها جبريل ـ استغفر الله ... ـه ـ لألهت عن وحيه جبريلا

وفى سنة ١٩٤١ يسمع أن مرض الفيل قد انتشر برشيد موطن صباه ومرتع أحلامه فيتألم ، ويشتد ألمه حينما يراها وحدها تبتلى بهذا الوباء :

أرشيد دون المدائن تبقى مستراضا لكل داء ووردا
يفتك السم فى بنيها فلا تر فع كفا ولا تحرك زندا ؟
ثم تلقى السلام القاء ذل والجراثيم حولها تتحدى

والحق يقال : ان عاطفته هنا ملتهبة ، وانفعاله صادق ، ومن يستطيع أن يستمع الى هذا الاستفهام المنكسر ، ويحبس جيشان العاطفة حينما يقول مخاطبا رشيد :

أصحيح أن الخطوب أصابتك وأن الأمراض هدتك هدا
وغدا الفيل فيك داء وبيلا نافثا سمه مغيرا مجدا

بل من يستطيع أن يحبس جيشان العاطفة حينما يرى ذلك العامل الذى هده الداء فأرداه ، والذى كان يسعى وراء لقمة العيش ويكد ويكدح فى الحياة :

فغدا كالصريع يلتمس الجهد ليحيا به فلم يلق جهدا
ان يمش مشى بائسا مستكينا كأسير يجر فى الرجل قدا
خلفه من بنيه أنضاء جوع وهو لا يستطيع للجوع سدا
كلما مد كفه لسؤال أشبعتها اللئام نهرا وطردا

أو يحبس دمعة حينما يرى تلك الفتاة ، الرائعة الجمال ،

الرشيقة القد التى تسبى القلوب حينما ترتدى خمارها ، وتخبىء حسنها فتلعب بالألباب وتثير عليها كوامن الدهر وأحقاده ، فيرميها بسهام من الكوارث عمدا يرميها بحمى خبيثة تغتال محاسنها ،ويلقى برجليها داء الفيل العضال الذى لا يرحم بكاء أمها ، ولا فتنة سحرها ولا صراخ جمالها ، ولا اغراء ابتسامتها أو فتك عيونها ·

كم بكت أمها عليها فما أغـرى ... نواح ولا التحسـر أجـدى
ويحها ،أين سحرها؟أين صارت؟ ... أين ولى جمالها ؟ أين نـدا ؟
أين أين ابتسامها ؟ ذهب الأنـ ... س ومال الزمان عنها وصدا
أين فتك العيون؟لم يترك الدهـ ... ـر سيوفا لها ولم يبق غمدا
أين خلخالها ؟ لقـد خلعتـه ... وهى تبكى أسى وتنفث صهدا
طار خطابها فلم يبق فـرد ... وتولى حشد يحـذر حشـدا!

والبعوض عند الشاعر هو أس الداء ، ولعل لمرض الشاعر بالملاريا وخوفه المزمن من وهم المرض أثرا مباشرا فى حملته المحققة على البعوض القاتل فهذه الفتاة :

لسعتها بعوضـة سكنت بئـ ... را ، وقد كان جسمها مستعدا
ان هذا البعوض أهلك «نمروذ» ... وأفنى مالا يعـد وأعـدى
فاحذروه فانه شـر خصـم ... وتصدوا لحربه ان تصدى

وكأن مصر قد ابتليت بهذا البعوض الحامل للسم ، الناقـل للأمراض ، فهذه بعوضة « الجامبيا » تفتك بصعيد مصر سـنة ١٩٤٤ فلا ينج من شرها الا بعد أربع سنوات :

دهت البلاد بعوضة أجميـة ... جاءت على قدر لمصر متـاح
دقت لغير ترحـل أطنابهـا ... ورمت مراسيهـا لغـير براح
وغدت على الماء القراح جيوشها ... فغدا النمير العذب غير قـراح

السم أقوى فى شباخرطومها من حد كل مهند سفاح
كالجن تهوى الليل فى وثباتها وتفر ذعرا من بزوغ صباح

ولذلك فحينما يرى بارقة من الامل تبشر بانتصار الطب على المكروب متمثلة فى همم رجال وزارة الصحة ، وعلى رأسهم الدكتور « على توفيق شوشة » وكيل الوزارة سنة ١٩٤٧ ، نراه يبادر فيمدحه اعترافا بفضله فى استئصال الاوبئة فى مصر ، مصورا فى قصيدته هذه ذلك الصراع الخالد بين الموت والحياة ، بين المكروب والكفاح ، بين اليأس والأمل :

تدارك مصر والمكروب يطغى وينفث سمه ويؤد أدا
طوى آجال أهليها هباء وبدد نسلها فتكا ووأدا
فشد عليه مقداما جريئا كما هيجت يوم الروع أسدا
تحداه وصال فلو سواه أراد لما استطاع ولا تحدى !

ثم أنه يفرح أشد الفرح حينما يرى أن معمل المصل قد تم على يد توفيق شوشة :

معمل المصل وهو فتح مبين بعض ما نال مصر من مأثراته

ويصف الأطباء بأنهم ملائكة ، وجند شجعان ، وفدائيون أبطال :

ملائكة اذا لمسوا عليلا أزاحوا الداء واستلوا السقاما
وجند فى شجاعتهم حياة اذا جلب الجنود بها الحماما
فكم أودى بهم داء عقام اذا ما حاربوا داء عقاما

ولا يكتفى بتصوير بعض ما يرى من بؤس وشقاء فى المجتمع بل يتعدى ذلك الى وصف لبعض الادواء الاجتماعية المنتشرة من نفاق

وضيعة نتيجة للتربية الفاسدة ، وللظروف الاجتماعية والسياسية التى ترغم الناس على الممالأة والتلون .

وعلى العموم فنظرة الشاعر الى الانسان تميل الى التشاؤم ، فالانسان لم يستطع أن يتغلب على طبيعته فيرتفع الى مستوى الملائكة أو يتمادى فى حيوانيته فيهوى الى مستوى الوحوش فى الغابات ، وانما هو متعب وشقى لأن الله أعطاه الحس والشعور والفكر والارادة فهو فى صراع دائم بين هذه القوى .

متعبة الانسان فى حسه	وشقوة الانسان من فكره
كيف يرجى الصفو من كائن	الحمأ المسنون فى ذره
لم يسم للأملاك فى أوجها	ولا هوى للوحش فى قفره

* * *

كيف نصفو ونحن من عنصر الطين	فسادا وظلمة وجحودا

وحينما تقوم الحرب العالمية الاولى يتجه الى الله فيقول :

يا خالق الناس طغى شرهم	فاهد الحيارى واكشف المهيعا
لم يشبهوا الانسان فى خلة	وأشبهوا الحيات والأسبعا
قد رفع الاحسان من بينهم	وأوشك الايمان أن يرفعا
لولا سنا هديك فى بعضهم	لدكت الأرض بهم أجمعا

والغريب أن كثيرا من الناس يحاولون أن يوفقوا بين الارادات المتصارعة فيظهرون بغير طباعهم ، وينافقون المجتمع الذى يعيشون فيه ، فتزدوج شخصياتهم :

وكم من فتى يقضى بنفسين عيشه	مظاهره نفس ونفس مخابره
تراه مع النساك فى خلواتهم	وفى الحان قد نمت عليه ستائره

لسان كما طال الجرير مسبح ... رياء، ومن خلف اللسان جرائره

***

كم رأينا فى الناس من يبهر العيـ ... ـش ، وما فيه غير حسن ثيابه

يملأ الأرض والسماء ريـاء ... وعيوب الزمان ملء عيابه

***

شغل الناس بالفضول وبالحقـ ... ـد ، فان تلق نعمة تلق حقدا

***

وهكذا نرى أن الشاعر قد استطاع أن يصور بعض مظاهر الحياة الاجتماعية البائسة فى عصره .

فاذا ما تجاوزنا هذه الحياة البائسة الى حياة المجتمع الاخرى العابثة اللاهية لم نجد للشاعر فيها لا قليلا ولا كثيرا ، اللهم الا وصفه لليلة عرس فى بيت صديقه « محمد بدر الدين » وهروبه سريعا من الوصف الى الفخر بأسرته وبأسرة الممدوح .

أما تتبع مظاهر النهضة فليس للشاعر فيهـا شيء ، الا اذا أعتبرنا قصائده التى أنشأها بمناسبة افتتاح دار الاذاعة فى سنة ١٩٣٤ ، ثم فى ذكرى هذا الافتتاح فى سنة ١٩٣٧ ، وسنة ١٩٣٨ من هذا القبيل ، والا اذا اعتبرنا قصيدته فى العيد المئوى لوزارة المعارف وقصائده فى المجمع اللغوى تتبعا لمظاهر النهضة كذلك .

وأهم ما يلفت النظر فى هذه القصائد دعوته الشباب الى العلم فبالعلم تسلق مركوني الى العلا :

زمر الشباب ولى ملامة ناصح ... لو تسمعون نصيحة النصاح

بالعلم « مركونى » تسلق للعلا ... وبعزمة الوثابة الطمـاح

رجل عصامى الأرومة لم ينـل ... مجدا بأمون و لا بفتـاح

تتطلع الدنيــــا اليه وتمتطى ذكـــرى مآثره متـون رياح
ان التفاخر بالقديم تعــلة والجهل للمجد المؤثل ماحى
والعلم مصباح الحياة فنقبـــوا من قبل أن تثبـوا عن المصباح

ودعوته الى الطموح ، والمضاء ، والقوة ، والمزاحمة فى الحياة :

يا شباب الحمى ويا جنده الاحـ ـرار ان فتش الحمى عن كماته
زاحموا فى بسمة الدهر أرسا لا ولا تكتفوا بجمع فتـــــاته
الطموح الحياة والمجد فى الدنيـ ـا مباح لطـــالبى هضباتـه
لا ينال الفتى مدى المجد الا بمضاء يربى على وثبـــاته

---

٣ ـ الحرب وأثرها فى شعره :

كان يخاف الحرب ، ويخشى خطرهــــا ، ويفزع من دوى القنابل ، ويهرب مسرعا حينما يسمع « صفارة الانذار » الى جوف أحد الخنادق ، ولقد حدث الشاعر محمود غنيم بذلك فقال : (كلفتنا اذاعة الشرق الأدنى بحديث أثناء الحرب العالمية الثانية ، فذهبنا أنا والشاعر محمد عبد الغنى حسن الى بيت الجارم باعتباره أكبرنا سنا لنعد الحديث ، وفجأة انطلقت « صفارة الانذار » فتركنا الجارم فى بيته ثم حضر بعد ساعة ، ويقول محمود غنيم مفتخرا بينمـا أخذنا أنا ومحمد عبد الغنى حسن نشاهد شظايا القنابل ، وهى تتساقط من الطائرات) .

ولقد عاصر الشاعر حربين عالميتين ، وعاش مأساتهمـا بعمق وشاهد أثرهما السىء فى بلاده ، وقرأ عن ويلاتهما وما جرتاه على العالم من خراب ودمار ، فاهتزت نفسه من هول ما رأى وما ســمع ، واشتدت آلامه لما يصيب الانسانية فى سبيل اطماعها وعبر عن ذلك كله ، وعن مأساة الانسانية من خلال مشاعره فقال :

من سلب الاعين أن تهجعـــا وبذات الطوق أن تســجعا ؟
ومن رمى بالشوك فى مضجعى فبت مكلوم الحشا موجعـــا ؟
روعنى والليل فى زيـــه من مرجفات الخطب ما روعا ..

والواقع ان ارتياع الشاعر من اعلان الحرب يعتبر مشـــاركة صادقة للانسانية فى كل مكان ، مشاركة تخطت الحدود الجغرافية للوطن لتنفعل بما يجرى خارجه من فناء ودمار .

والحرب تبدأ كالحصـــاة بزاخر لم يدر ان قذفت مدى منداحها
كم هزت الدنيا صواعق نارهـــا وأصاب وجه الأرض من لوآحها

ولقد ظفرت الحربين العالميتين من الشاعر بأربع قصائد صور فيها :

(أ) الحرب ومآسيها .

(ب) أثر العلم فى فناء البشرية .

(جـ) أمل الشاعر فى اعلان السلام

(د) أمل مصر بل ارادة مصر فى الحرية والاستقلال .

(أ) أما تصويره للحرب ومآسيها فيتضح أولا من هذه الابيات السريعة التى بدأ بها قصيدته « الحرب » فى سنة ١٩١٤ والتى يذكر فيها : نار الوغى التى أطاحت بأهل الغرب ، والريح الزعزع التى هبت عليهم ، والردى الطائف الذى يخترم الانفس ، والصيحة المهلكة التى تصم الآذان ، والموت الذى لم يترك لهم موضعا فى البر أو فى البحر أو فى السماء ، وهذا الجبار الذى يجمعهم عنـــوة ويسوقهم الى الموت ، ويحسو دم القتلى ، وينهش اللحم :

لم يكفه رمح ولا مرهـــف فاتخـــذ المنطاد والمدفعـــا

وخب فيها راكبا رأســـــه   للشر ما خب وما أوضـــــعا
قد غصت الارض بأشـــلائهم   وأصبح البحـــر بها مترعـــا
وآن للعقبـــــان أن تكتـــفى   وآن للحيتان أن تشـــــبعا

وها هو ذا قد :

أطلق عزرائيل من قـــده   يرتع أنى شاء أن يرتعـــا
تطربه الحرب بأزجالهـــا   ويستبيه السيف أن قعقعـــا
كأنما فى صدرهم .. غلة ..   أبت لغير الموت أن تنقعـــا

ويتضح ثانيا من هذه الصورة العاطفية ، صورة ذلك الفارس العظيم وقد ركب فرسه فى فرح وسرور ، واتجه الى ميدان القتال فمشت بنات الحى فى اثره يودعنه ، ويرشقنه بالزهور ، ويكففن دموعهن ، ويحبسن زفراتهن خوفا عليه وعلى شبابه ، ثم يودى به الموت فلا قبر هناك ولا مشيعون :

كم فارس يمرح فى سرجـــه   يهتز كالغصن وقد أينعـــا
كأنه الصمصام اذ ينتضى   وعامل الرمح اذا أشرعـــا
ماضن بالرفد على وافـــد   ولا لوى حقـــا ولا ضيعـــا
مات فلا قبـــر له مـــاثل   ولا بكى الباكى ولا شيعـــا

ويتضح ثالثا من هذا الخراب الذى حل بأرجاء العالم ، فها هى ذى « ليج » و « نامور » المدينتان البلجيكيتان قد أصبحتا بلقعـــا وها هو ذا الروض وقد ذوى نبته وجفت أزهاره . .وها هى ذى باريس عش النسر يغلبها الخطب فتستسلم ، تستسلم بعد أن كانت معهدا لطلاب العلم ، وروضا ممرعا لطلاب الهوى :

ما أحسن الســـين وجيرانه   وأحسن المصطاف والمربعـــا

أريعت الحسناء في خدرها | نعم ، دعاها الذعر أن تهلعا
عهدي بها كانت نؤوم الضحى | ملولة ناعمة رعرعا
ما خطبها والنار من حولها | والموت لم يترك لها مفزعا

تستسلم باريس في الحرب العالمية الاولى ، وتستسلم في الحرب العالمية الثانية فيأسى الشاعر ويلتاع ، ويتحسر لسرعة استسلامها ، وينشيء قصيدته باريس في سنة ١٩٤٤ التي مطلعها :

عرس أقيم على الدم المسفوك | أأردد الألحان أم أبكيك
باريس حيرت القريض فمرة | يشدو ، وحينا والها يرثيك
نهكتك داهية الخطوب فلم تدع | للفوز غير حشاشة المنهوك

تتضح مآسي الحرب في استسلام باريس ، باريس ذات الماضي المجيد ، أم (هو جو) ، ربيبة الشعر والفنون تلك التي تلتقي فيها الثقافة بالمجانة ، كعبة الدنيا :

. . . . . . | الآن كيف الحال في ناديك ؟
أترى البلابل لا تزال صوادحا | أم راعها الغربان عن واديك ؟
والغانيات ؟ أفزعت أسرابها | وتفرق السمار عن شاديك ؟

وتتضح المأساة أكثر حينما يفر الحماة ، ويهرب المدافعون ، ويتركونها للموت الزؤام ثم يمضون حيارى ذاهلين يقذفون سلاحهم فيصنع منه العدو غلا من حديد كاد يردي باريس ، ثم تنعى الى الدنيا فتشب في القلوب لوعة حرى :

ولقيت من عسف العدو وكيده | دون الذي لاقيت من أهليك
ولى الحماة فما أجابوا دعوة | لما دعاهم للردى داعيك
تركوك للموت الزؤام وأدبروا | يا ليتهم للموت ما تركوك ..

ومضوا حيارى ذاهلين فما رأوا ... كفيك ضارعة ، ولا سمعوك
قذفوا السلاح فصبه أعداؤهم ... غلا فكاد حديده يرديك
ونعيت للدنيا فشبت لوعة ... أصلى القلوب بحرها ناعيك

ويقول « الباريسيون » انهم اسلموا باريس خوفا على معالم الحضارة فيها أن تمحى ، وياليتها محيت دون هذا التسليم لأن هذا الخوف لن يمنع التاريخ أن يسجل الهزيمة ، ولو طال بهم التصبر ساعة لنجت :

باريس هالتك الدماء غزيرة ... فسقطت بين نصال جزاريك
خفت القذائف أن تهد معالما ... فتهدم التاريخ فى أيديك
ما كان أحرى لو دككت الى الثرى ... وتركت ذكرا ليس بالمدكوك
مابرج « ايفل » حين يسلم مانع ... همسا يطل غدا باذن بنيك
لو طال صبرك فى المكاره ساعة ... لرأيت أن الموت قد ينجيك

والواقع أن المأساة الكبرى التى هتكت ستائرها الحرب هى شباب باريس ، فالنعومة والجبن والصعلكة هى مأساتهم الكبرى ، بل مأساة أوطانهم :

ويل الشباب من النعومة انها ... أعراض سم للشعوب وشيك
ما أتعس الزمن الجديد بفتية ... قتلوه فى التصفيف والتدليك
قلب كقرط الغانيات مفزع ... وارادة من حيرة وشكوك
عاشوا صعاليك الحياة وليتهم ... فازوا بصدق عزيمة الصعلوك
أبقت ليالى الأنس من أخلاقهم ... فزع النعامة وازدهاء الديك

وتتضح مأساة الحرب أخيرا فى بلاده ، فى هذه الاغارات الجوية والقنابل المتساقطة على مدن هذا الوادى الآمن فى القاهرة وبور سعيد والاسكندرية ، وفى كل مكان :

غير ان مصر لم تستسلم كما استسلمت باريس ، وانما بذلت كل ما فى وسعها ، ففى صحرائها لمع النصر ، وهزم «روميل» فى معركة العلمين :

بذلت مصر فوق ما يبذل الطو ق ، وقد يسعف النديد النديد ا
فى فيافى صحرائها لمع النصر ر ، وولى « روميل »يعدو طريدا

وان الشاعر ليأس لما أصلب بلاده من هذه الحرب التى هدمت البنيان ،وأزهقت الارواح،ولقد صور ذلك فى قصيدته «الاسكندرية» التى أنشدها فى احتفال المؤتمر الطبى الذى عقد بحديقة النزهة سنة ١٩٤٢ ، يذكر فيها نار الصواعق التى نزلت على الثغر الآمن ، والابابيل الملعونة التى تسوق أمامها الموت الزؤام واسراب الجحيم المطلقة فى السماء تقذف الضرام واللهب ، فلا تترك أما ولا رضيعا ولا شيخا هرما ولا غلاما :

وخلفك رابض جيش لهـــام يصول مناجزا جيشـا لهامـا
الى العلمين أبدى ناجـــذيه وزمجر غاضبا وسطا وحـاما
وهول ما يهول واستطـــارت بروق تنشر النبـأ الجساما

وتستبسل المدينة العظيمة فلا تستجير كما استجارت باريس، بل تتحدى الخطوب فاذا بعمود السوارى يقف مرتفع القامة يناطح السحب فى أنفة واعتزاز ، لا كما يقف برج « ايفل » فى استسلام وتخاذل :

فما أطلقت صيحة مستجـير ولا شردت عن عين منـامـا
تحديت الخطوب تزيد هـولا فتزدادين صـبرا واعتزامـا
اذا عزفت بجوك عازفـــات ملأت الجو هزءا وابتسـاما
عمودك فى سمائك مشمخـر عليه السحب ترتطم ارتطامـا
وحصنك لا يلين له حـــديد ولو شهب الدجى كانت سهاما

ويكفى مأساة الحرب أسى انها أظلمت الثغر ، بعد أن كان وضىء المحيا مشرقا ، وأنها حولت هذا الظلام الى حداد مطرز بدموع الثكالى واليتامى ، وأن الملاعب الجميلة أصبحت طللا ركاما .. وأن البحر أصبح مقفرا فلم ينعم بوجه صبوح :

ولم تمش السواحر فيه صبحا لم تملأ شواطئه غراما

(ب) وأما العلم فمسئول فى نظره عن هذه المأساة فهو الذى دبر العتاد للفتك ، والجنود للدمار ، و

أبدع الملهكات ثم توارى خلفها يملأ الورى تهديدا

وهو الذى فتت الجبال فمادت ذعرا ، وحقت من أفانين كيده ان تميدا :

وقلوب النجوم ترجف ان يجتاز يوما الى مداها الحدودا

ان العلم الضار يشبه الخمر :

فهو كالخمر تنشر الشر والاثم وان كان أصلها عنقودا

والمخترعات :

محدثات عزت على عقل ابليس فعض البنان فدما بليدا

والعلماء :

عالم فى مكانه ينسف الأرض ، وثان يحز منها الوريدا

***

نثروا كنانتهم وكل سهامها للفتك والتدمير والاهلاك

دخلوا على العقبان فى أوكارها وتسربوا لمسابح الأسماك

(ج) اعلان السلام :

وحينما تنتهى الحرب الكونية الثانية فى أوائل مايو سنة

١٩٤٥ ينشر قصيدته « يوم السلام » فى صباح انتهاء الحرب ، قصيدة عظيمة فيها انفعال وصدق ، وفرحة مخلصة •

مولد للزمان ثان شهـــدنا ه فيا من رأى الزمان وليـــدا ؟

يبدأ قصيدته بقوله :

داعب الشرق باســما وســعيدا وائتلق يا صباح الناس عيـدا
نسيت لحنهـا الطيور فصـور لبنات الغصون لحنا جـديدا
فزعتها عن الرياض خفافيـــــ ش تسد الفضاء غبــرا وسودا
ألفت موحش الظـــــلام فودت أن تبيد الدنيا وأن لا تبيـــدا
فاسجعى يا حمامة السلم للكو ن ، وهزى أعطــــافه تغريدا

ثم يعود بذاكرته الى أيام الحرب السود فيصورها ، ويصور مآسيها فى الأرواح والمدن ، وأسبابها ويتمنى ان لو كانت الرجال أسودا اذن لقنعت بالقوت :

قد رأينا الأسود تقنع بالقوت فليت الرجال كانت أسودا

ثم يتسائل أخيرا :

أصحيح عاد السلام الى الـــكو ن ، وأضحى ظـلا به ممـدودا
ورنين الأجراس يصدح بالنصـ ـر ، فيا بشره صباحا مجيدا
سايرتها قلوبنـــا ثم زدنـــا فأصغنا لشدوهن القصيــدا
رددى رددى ترانيم اســــحا ق ، وهزى الحسان عطفا وجيدا

(د) أمل مصر بل ارادة مصر فى الحرية والاستقلال :

وأخيرا يتساءل : ماذا سنجنى من النصر ؟ وهل الحريات الأربع فى ميثاق الأطلنطى عهد وميثاق ؟ وهل انقادت الممالك للعدل فلا

سيدا ترى أو مسودا ؟ وهل صار الحق حقا ؟ وهل سيسترد العرب حماهم ؟ انه ليترقب نتيجة الحرب ، وتحقيق أمل مصر ففى صحرائها لمع النصر ، وهزم روميل :

ومصر ترجو ، لا بل تريد ...

ليت شعرى ماذا سنجنى من النصر وهل تصدق الليالى الوعودا ؟
وهل « الأربع الروائع » كانت حلما أو مواثقا وعهودا ؟
وهل انقادت الممالك للعدل فلا سيدا ترى أو مسودا ؟
وهل الحق صار بالسلم حقا .. وأذابت لظى الحروب القيودا ؟
وهل العرب تسترد حماها وتناجى فردوسها المفقودا ؟
وترى السلام مجدا طريفا جاء يحيى بالأمس مجدا تليدا ؟
بذلت مصر فوق ما يبذل الطوق وقد يسعف النديد النديدا
فى فيافى صحرائها لمع النصر وولى روميل يعدو طريدا
فهى اذ تنثر الورود تناغى أملا ضاحكا يفوق الورودا
وهى ترجو لا بل تريد وأجدى بابنة النيل وحدها أن تريدا

الشعر القومى :

١ ـ مفهوم الأدب القومى فى العصر الحديث وعند الجارم :

أما فى العصر الحديث فلقد كفانا مئونة ذلك المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابيه « ثورة الأدب » و « أوقات الفراغ » حيث يرى أن مفهوم الأدب القومى ينحصر فى شقين :

أولهما : أن نتجه الى تاريخ مصر القديم فنصوره ، ونتغنى به ونخرج منه أدبا حيا يربط مصر الحديثة بمصر الفرعونية لأن الكثير من عاداتنا وتقاليدنا يرجع الى العادات والتقاليد فى مصر القديمة .

ثانيهما : أن نتجه الى الطبيعة فنستلهمها أدبا حيا راقيا ولقد أخذ يضرب الأمثلة ، ويقيم الأدلة على أن مصر الحديثة أقرب الى الفرعونية منها الى العربية ، كما أخذ ينشىء كثيرا من القصص مثل : ايزيس وراعيةهاتور وأفروديت ثم حديثأبيس ، وحديثسميراميس ثم أخذ يتغنى بجمال النيل ويحاول أن يكشف عن مفاتنه لأدبائنا وشعرائنا ويغريهم بالذهاب اليه والتملى من محاسنه ، حتى يكون احساسهم بالجمال عميقا ، وحتى يستلهموا هذا النهر الذى يفوق فى جماله كل أنهار أوربا وما يحيط بها ، بل أين أنت يا أنهار أوربا وأنهار العالم كله من نيلنا السعيد المبارك الغدوات ، الميمون الروحات ٠

ولقد أحدثت هذه الدعوة رد فعل لدى العقاد ومدرسة الديوان وعند سلامة موسى الذى كان يرى أن نجعل الأدب انسانى الغاية ، عالمى المشكلات ٠

فالعقاد قاوم فكرة الأدب القومى كما فهمها أصحابها فليس « هو الأدب الذى تذكر فيه الظواهر والمعالم القومية بالأسماء والتواريخ والحوادث ، وهكذا كان جيل شوقى وحافظ يفهم«القومية» التى تنبغى لشعراء المصريين فليس من الأدب القومى عندهم أن يصف الشاعر عواطفه الانسانية أو يصف المحيط الأطلسى أو نهر دجلة ، أو مناظر لندن وباريس لأن هذه الأشياء لا تحمل اسم النيل ومصر والهرم وأخبار الصحف المحلية والحوادث الداخلية ، وهى فكرة خاطئة ناقصة تنفيها أمثلة العظماء من الشعراء فى كل زمن وكل أمة ٠

وهيكل والعقاد كلاهما يمثل من وجهة نظره أسلوب مدرسة جمالية ٠

فسارتر يرى أن الطريق الفعلى للخلود هو الخصوصية المحلية

والارتباط بقضايا الوطن والشعب ، وقضايا إلعصر لـكى يضيف جديدا الى الملامح الانسانية العامة ، وما ينبغي لأديب أن يولى ظهره لوطنه وهو يحترق ليتجه الى ما يسمى بالقضايا الانسانية العامة ·

وهو يكاد يلتقى مع القوميين فى فهمهم للأدب القومى ·

والناقد الفرنسى ج·م· جويو يرى أن الوطن فى نظر المفكر الحديث « انما هو وطن وحدة تامة هى الانسانية حتى لقد أصبحنـا لا نرى فى الدرامة والروايات الحديثـة كروايات فيـكتور هوجر ودراماته ، ذلك التطرف فى حب الوطن الذى عبر عنـه « كورني » تعبيرا قويا فى « هوراس » · لقد أصبح حب الوطن ممتـزجا بحب الانسانية ، ولعل كثيرا من الفلاسفة والشعراء أن يقلعوا عن محبة الوطن الذى ولدوا فيــه ، وعن التغني به لو بدا لهم على فرض المستحيل أن بقاءه مضر بالانسانية ·

وأما الجارم فاعتقد أن مفهوم الأدب القومى عنده لم يخرج عن الارتباط بالقوم ، وتصور حالهم ، واحياء تاريخهم ، وتمجيد آثارهم والتغنى بالمناظر الجميلة التى تموج بها ديارهم ·

ومصر فى النصف الأول من هذا القرن كانت أشد ما تـكون حاجة الى هذا الأدب كما فهمه الجارم ، فهو الذى يحيى ميت الآمال ويبث الهمة فى القلوب ، ويهاجم الأعداء ، ويدافع عن الوطن ، ولقد حمل لواءه فى صدق واخلاص أمثال شوقى ، وحافظ ، ونسـيم ، ومحرم ، وعبد المطلب ، وكان لـكل منهم موقف خاص مع الاستعمار ومع النهضة ، ومع الثورة الوطنية ·

٢ ـ فما موقف الجارم ؟

لعلنا لا نجانب الصواب حينما نقرر آسفين أن الجارم قـد وقف موقفا سلبيا من أحداث وطنه ومن المستعمرين ··

فالمتتبع لاشعاره لا يرى فيها تلك الروح الثائرة التى ألهمت حافظا فى أوليات حياته شعره الوطنى ، والتى دفعت أمثال شوقى ومحرم ومحمود محمد صادق الى تتبع أحداث الثورة والهاب العاطفة فى قلوب الوطنيين ، مع أنه كان يدرك بعمق هذه الحقيقة التى تغنى بها كثيرا فى شعره ، والتى من أجلها زعم أنه سيوظف شعره فى خدمة الدولة حيث يقول :

الشعر للملك جيش لايصاوله   جلاد مرهفة أو فتك بتار

ولكنه عند التطبيق يقف موقفا سلبيا بفلسفه بصراحة حيث يقول فى مخاطبة « قمرى النيل » وهو فى طريقه الى السودان فى سنة ١٩٤٢ أى فى أخريات حياته :

خذ الحياة بايمان وفلسفة   فرب شر غدا بالخير مقرونا ..
فكم وزنا فما أجدت موازنة   فى صفحة الغيب مايعيى الموازينا
الكون كونه الرحمن من قدم   فهل تريد له يا طير تكوينا ؟

ومن المعروف أنه أنشأ هذه القصيدة والروح الوطنية عالية ، ونغمة الاستقلال يتردد صداها فى أنحاء الوادى رغم ما كان يحيط بمصر فى ذلك الوقت - أى فى أثناء الحرب العالمية الثانية - من حلوكة وظلام .

ولعل فى هذه السلبية تنمية لنظرية الأستاذ الامام محمد عبده فى السياسة حيث يقول فى أمر الحكومة والمحكوم : انى تركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره .

وهذه السياسة اليائسة الهاربة ينميها الجارم فى شعره ، ويصرح بها فى كثير من الاحيان ، ويزعم أن شعره سلمى يخاف من المعارك ويرتاع من حفيف النبال ، ويفزع من الفخ كالطائر :

أنا في السلم عبقرى القوافى
ليس لى فى الظبا ولا فى النصال
أنا شـــعرى كالطير يفزعه الفـــ
ـــخ ، ويرتاع من حفيف النبال
لا تعيش الطيور بين كفـاح
راكب رأسه وبين نضـــال
خفـت ان اشــعلت لظى الحـــ
ـــرب أنأنشد بيتا جرىمع الامثال
لم أكن من جناتهـــا (علم اللـ
ـــه) وانى بحرها اليـــوم صال

واعتقاد الشاعر ان الفنون لا تعيش بين نضال راكب رأسه ، يخالفه واقع وطنه المستعمر ، كما يخـــالف رأى الجارم نفسه فى وظيفة الشعر ٠

وكيف لا يشترك الفن والشعر منه بخـاصة فى ذلك الواجب المقـــدس ؟ ان مالك حداد الشاعر الجزائرى شاعر ثورى ، ولكنه شاعر انسان يؤمن بالمحبة بين البشر ، ويعشق السلام ، ولكنه يرى الثـورة ضرورة لاقرار السلام : « ليس للدم مذاق ســـائغ انى لأوثر الندى ، ولكن هذا لا يدعوك لتجنب الجبل ، أنت ربان طائرة تعرف ذلك جيدا ٠ ان وجود السحب هو الدافع لصعود الجبل ، هذه السحب الكثيفة المزعجة التى تبدو تجاعيدها فى بعض الاحيان كجبين كئيب » ٠

بل لعل هذه السلبية هى التى دفعته الى أن يختار زمن روايته « غادة رشيد » أيام الاحتلال الفرنسى ، وقد كان من الممكن أنيختار سنة ١٨٠٧ زمن أن انتصر أهل رشيد على حملة فريزر الانجليزية كما فعل بعد ذلك الرئيس جمال عبد الناصر ٠

ولنا أن نتساءل بعد ذلك عن :

٣ ـ العوامل التى جعلت من الجارم هذا الشاعر السلبى :

(أ) نشأته فى أول عهد الاستعمار

ومن العجيب انه ولد فى عام ١٨٨٢ ، وعاصر كل الاحداث ، وفتح عينيه أول ما فتح فرأى الهزيمة المنكرة بعد فشل ثورة عرابى، ورأى النفوس المضعضعة ، كما رأى جبروت المستعمر فى عنفوانه .

يقول مخاطبا الوباء فى مصر سنة ١٨٩٥ :

ان فى مصر غير موتك موتا
ترك الاروع الأعز ذليلا

ولو أنه قد نشأ قبل عهد الاحتلال ، وشاهد الثورة العرابية، والتهب شعوره مع الاحداث الوطنية لكان قادرا على الموازنة بين الحالتين مفضلا للحرية على العبودية ، متغنيا بأناشيد الاحرار .

٢ ـ وحينما شب وشبت الروح الوطنية على يد مصطفى كامل والحزب الوطنى دخل فى سجن الوظيفة فابتعد عن السياسة ومشكلاتها خوفا من ضياع وظيفته ، حيث لم يكن عنده من الدخل ما يغنيه عنها .

٣ ـ وتشاء الظروف أن يسافر الى بعثة دراسية فى انجلترا، وفى البعثة نرى روح الصداقة والاعجاب بالانجليز تنعكس على نتاج الشاعر نرى ذلك فى غادة رشيد كما نراه فى شعره .

ففى غادة رشيد نرى صداقة محمود العسال مع التاجر الانجليزى الرشيدى « نيكلسون » تزيد وتنمو أواصرها الى درجة المصاهرة فيتزوج « محمود » من « لورا » ابنة «نيكلسون» .

وفى هذا دليل على روح المودة والاعجاب ..

بل لقد صرح بهذا الاعجاب فى أكثر من موضع ، فها هو ذا يقول على لسان نيكلسون سنة ١٧٩٨ لمحمود العسال ونابليون يهدد الجزيرة البريطانية :

انى واثق ان بلادى لن تنال ، وان لها من قلوب أهلها وشجاعتهم سورا من الفولاذ يصد عنها كل فاتح ، ان غزوها محال .

ويقول على لسان محمود العسال للورا « اننى كلما فكرت فى انك من أمة عزيزة مهيبة الجانب لا يداس لها عرين ، ولمحت ما فيك من الاعتزاز بقومك الذى لا يحوم بخيال غاصب أن يقترب من شواطئهم أدركنى ما يشبه الحسد ووددت أن أفخر ببلادى كما تفخرين .

وفى شعره يتمنى ان لو كان منهم ، اذن لامتنع على الدهر ، فأرضهم قد أودعها الله بدائع الحسن :

أرض كأن اله الارض أودعها
بدائع الحسن من عون وأبكار
القوا خدود العذارى فى حدائقها
ولقبوها بأثمار وأزهار

. . . .
. . . .

لوكان فى عنصرى صلصال طينتها
ما راعنى الدهر فى يوم بأكدار
أو كنت أظفر فى الاخرى بجنتها
غسلت بالدمع آثامى وأوزارى .

ومن الغريب انه وصف شباب الانجليز بالكرم والشجاعة ، واعتدال القامة ، فهم كرماح الخط ، وكأنهم فتيـــان العرب الذين تغنى بهم شعراء العربية . يقول الجارم :

وفتية كرماح الخـــط ان خطروا
فديت بالنفس منهـم كل خطـــار
بيض الوجوه مساميح الاكف منا
جيـد الصريخ سراة غــير أغرار
لا ينزل الضيف صبحا عقر دارهم
الا ويمس عشــــاء صاحب الدار

وفى الحرب العـــالمية الاولى سنة ١٩١٤ يقترب الالمـــان من « باريس » فتهرب الحكومة الى « بوردو » ويتــوقع النــاس سقوط العاصمة بين لحظة وأخرى وهنا يتجه الى ضراغم الماء ، الى الانجليز ، فهم أولو النجدة ، وقد دعاهم الجار الى نجدته فليلبوا النداء :

ضراغم المـــاء ثبــوا وثبة ... آن لهذا الغيل أن يمنعا
دعـــاكم الجـــار (١) فكنتم الى ... دعائه من صـــوته أسرعا
وسرتم للموت فى جحفل ... ماضم رعـديدا ولا امعا
من كل شعشاع خفيـف الخطا ... ذى مـرة منـــجرد أروعا ..
لو مادت الأجبال من تحته ... أو خـرت الأفـــلاك ما زعزعا

وهنا يجب أن ننبه الى أن الجارم لم يكن وحده فى هـــذا الاعجاب ، فشوقى مدح الانجليز فقال :

الله أدركـــه بـــكم وبأمـــة ... كالمسلمين الأولين عقـــولا

---

(١) بلجيكا

وحافظ مدح فقال :

يا دولة فوق اعلام لهـــا أسد تخشى بوادره الدنيــا اذا زأرا

فاذا ما انجابت هذه القيود وجدنا النغم الخافت يعلو فبينما هو يقول فى سنة ١٨٩٥ مخاطبا الوباء ، ومعبرا عن حالة المصريين المعنوية :

ان فى مصر غير موتك موتــا ترك الاروع الاعــز ذليــــلا

اذا به يصف احداث ثورة ١٩١٩ ولكن للأســف بعد حوالى عشر سنين فى رثاء سعد زغلول فيصور الأحداث المترسبة فى أعماق نفسه بعد أن مرت العاصفة :

أرأيت مصر تهب لاســتقلالهــا والسيف يلمع فوق كل قذال
والذعر يعصف بالقلوب كماجرت هوج الرياح على كثيب رمــال
والأرض ترجف والسماء مريضة والنفس حيرى والهمــوم توالى
والناس فى صمت المنون كأنهم .. ..

ثم اذا به وقد أحيل الى التقاعد ينشىء قصيدة « اعلان السلام» فى سنة ١٩٤٥ صبيحة انتهاء الحرب العالمية الثانية فيصور فيهــا مآسى الحرب ويتساءل بصراحة وشجاعة : ماذا سنجنى من النصر ؟ وهل الحريات الاربع فى ميثاق الاطلنطى عهــد وميثاق ؟ وهــل انقادت الممالك للعدل فلا سيدا ولا مسودا ؟ وهل صار الحق حقا ؟ وهل سيسترد العرب حماهم ؟

انه هنا لا يمدح الانجليز كما فعل فى الحرب العالمية الأولى لأنه لا يرجو ولا يخاف .

ثم انه يترقب نتيجة الحرب ، ويود ان يتحقق أمل مصر . ففى صحرائها لمع النصر ، وهزم روميل .

نغم جديد غير انه متعقل لانه يصدر عن شيخ وقور هذبته الاحداث ، وعن ماض سلبى لم يشارك فى عظائم الأمور ٠

٤ ـ عنايته بالتاريخ القومى :

والتاريخ القومى وبعثه هو لب الدعوة التى نادى بها هيكل فى ثورة الأدب ، والشاعر الذى خاض هذا الميدان ووفق فيه غاية التوفيق هو شوقى الذى تحدث عن الاهرامات ، وابى الهول ، وسيزوستيريس وتوت عنخ آمون ،ورمسيس ، وقمبيز وكيلوباترا٠

أما الجارم فله محاولة من هذا اللون فى قصيدته « مصر » التى مطلعها :

صور الله فيك معنى الخلود فابلغى ما أردته ثم زيدى
أنت يا مصر جنة الله فى الأر ض وعين العلا وواو الوجود

وهى قصيدة طويلة تبلغ التسعين بيتا أنشدها بقاعة المحاضرات بالجامعة المصرية فى افتتاح المؤتمر الطبى العربى الثانى فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٩ ٠ ولقد جعل مصر فى هذه القصيدة « فتاة » حينما كان الدهر ما يزال طفلا يلهو بطوق الوليد كما جعل الزمان يشيب وهى ما زالت غصن ريحان أخضر ، وجعلها كذلك بسمة فى فم الحسن ، ودمع الحنان فوق الخدود ، ووردة برية يحيط بها الشوك من كل جانب ليحميها ويدافع عنها :

قد رآك الدهر العتى فتاة وهو طفل يلهو بطوق الوليد
شاب من حولك الزمان وما زل ت كغصن الريحانة الاملود
أنت يا مصر بسمة فى فم الحس ن ودمع الحنان فوق الخدود
أنت فى القفر وردة حولها الشو ك وفى الشوك عزة للورود

صور جميلة لمصر دلت على خصب شاعرية الجارم ، ثم أخذ يتحدث عن أمجاد مصر من علم وآثار ورجال ·

عظم يبهـــر الســــماء وشأو عاق ذات الجناح دون الصعود

ثم أخذ يتساءل ويسأل عن رمسيس ومجده وعظمته وجنوده وكهانه وبنات الوادى اللائى يمشين اختيالا ويحيين بين دف وعود:

اين رمسيس والكمـاة حواليـــه مشاة فى الموكب المشهود؟
مـلأ الأرض والســـماء فهدى بجنود وهـــذه ببنـــود
وجموع الكهان تهتف بالنصـــر وتتلوا النشيد أثر النشيد
وبنات الوادى يمســن اختيالا ويحيين بين دف وعـــود

ثم انتقل سريعا بعد ثلاثة وعشرين بيتا اذ أن نفسه لم يحتمل أكثر من ذلك الى الحديث عن العروبة فى مصر :

اين عمرو فتى العروبة والاقدام أو فى مجاهد بالعقـــــود

كما أخذ يتحدث عن العرب ونهضـــتهم التى اشتملت على الحكمة والترجمة والطب واستمر على هذا المنوال متتبعا لعصور العربية فى مصر حتى انتهى الى أسرة محمد على ·

جاء والناس فى ظلام من الظلـــم وعصف من الخطوب شديد
فأزاح الغطـاء عنهم فقامـــوا فى ذهول واقبلوا فى ســمود

وأخذ يتحدث عن مظاهر النهضة على يد هذه الأسرة ·

وعلى أى حال فلقد هرب من تاريخ مصر القـــديم الذى دعـا « هيكل » الى احيائه ليتحدث عن امجاد العروبة ، وعن تاريخ مصر الحديث ·

وتعليل هذه الظاهرة فى رأينا لا يخرج عن أن ثقافته فى التاريخ المصرى القديم كانت محدودة ، وان روحه كانت تتجه الى العروبة لا الى الفرعونية .

وحديثه عن مصر الحديثة لا يتعدى الحديث العابر ، فمصر هى كعبة الشرق التى انجبت العلماء والابطال والشعراء والكتاب والخطباء :

أصبحت كعبة يحج اليها الشرق بين الخشوع والاقنات
تتهادى وحق أن تتهادى بين ماض زاهى الجبين وآت
كل تاريخها كتاب من المجد كريم مطرز الصفحات
بعثت دارس الفنون وأحيت بعد يأس الزمان أم اللغات
وأعادت الى العلوم منارا كان صبح الدجى وهدى السراة
انجبت للبلاد ابطال عزم هم دروع البلاد فى الازمات

وحديثه عن الاسكندرية ذات الماضى العظيم لم يخرج عن هذا التعميم :

جرى التاريخ بين يديك طفلا وشمس الافق لم تعد الفطاما
وصال البحر حولك منذ «مينا» عظيما يدفع الكرب العظاما
يحوط حماك أبيض أحوذيا كما جردت من غمد حساما
فكم غازبه أمسى رميما وكم فلك به أمست حطاما

الوصف :

قدرة الجارم على التمثيل وبث الحركة ـ تقصيره فى الوصف واسبابه .

لم نظفر للجارم بقصيدة مستقلة خلد فيها النيل ، أو وصف فيها الطبيعة ، على الرغم من نشأته برشيد على ضفاف النيل والبحر المتوسط ..

وان كنا قد ظفرنا له بلمحات متناثرة هنا وهناك تتخلل قصائده ساعدتنا على تقييم طاقته الفنية أمام هذا الجنس الادبى الخالص الذى توزن به قيم الشعراء الحقيقية ، كما ساعدتنا على معرفة طبيعة شعره الوصفى .

والجارم وان لم يغن للطبيعة غناء خالصا ، الا انه قد اضطر فغنى لها فى كثير من قصائد المديح ، لقد فرضت الطبيعة نفسها عليه .

وهل يستطيع الجارم ان يتخلص من تأثر نشـأته باقليمه الجميل رشيد ؟ أو هل يستطيع أن يقاوم انفعالاته اللاشعـورية بمواطن الجمال فى بلاده ؟

لقد غنى للطبيعة فى خلال مدائحه ، وفى خلال ذكرياته عن رشيد والاسكندرية . واستطاع رغم غنائه القليل ان يصور مظاهر الطبيعة المختلفة تصويرا سريعا ساذجا ادى به بعض ما عليه من دين لطبيعة بلاده الجميلة .

فلقد وصف النيل والبحر المتوسط ، كما وصف الروض ، والنخيل والصحراء ، وصور الليل ، وانبثاقة الصبح ، والربيـع والشتاء وتحدث عن الطير ، وسجل رحلته الى السودان .

وسوف نتتبع كل مظهر من مظاهر الطبيعة تحدث عنه الجارم على حدة ثم نستنبط من كل ذلك طبيعة شعره الوصفى .

(أ) فلقد وصف النيل والبحر المتوسط عند رشيد فقال :

النيل والبحر الخضم يحوطه والباسقات على الطريق قيام
والتوت والصفصاف يهتف طيره فتردد الكثبان والآكام
والزهر فى جيد الرياض قلائد والنهر فى خصر الرياض حزام
والموج كالخيل الجوامح أطلقت وانحل عنها مقود ولجام
تجرى السفائن فوقه وكأنها والريح تدفع بالشراع حمام
ومناظر يعيا القريض بوصفها ويضل فى ألوانها الرسام

وهو هنا يرسم لوحة بسيطة فى خطوطها ، وألوانها ، وظلالها تعتمد على احساسات البصر ، فالنيل ، والبحر المحيط به ، والنخيل القائم على الطريق ، والتوت والصفصاف ، والطير المحلق الهاتف ، والكثبان والاكام ، والزهر ، والنهر ، والموج ، والسفائن ، وما يحيط بكل ذلك من اضواء وظلال يكمل اللوحة .

ولقد كنا ننتظر منه أن يعمق احساسه بهذا المنظر ، فيستحضر كل المعانى العميقة المحيطة به ، والتى تتوارد على ذهنه وخواطره ، « فاحساسات البصر احساسات تمثيلية فهى تستمد عمقا جديدا من المعانى الكثيرة التى ارتبطت بها حتى اصبحت مركزا تتجمع حوله اجزاء كاملة من وجودنا ، انها الحياة كلها مكثفة مختصرة فالذكرى عند من وهبت له حاسة البصر ، سلسلة من اللوحات اعنى من الصور والالوان ، وقد تماسكت هذه الصور فاصبحت كل صورة تستدعى الصورة الأخرى ، فاذا نظرت الى وردة فى ابريق مثلا حضرتنى على الفور ذكرى كل الاحساسات والعواطف التى ترتبط عادة بمنظر الوردة فاذا انا أتصور حديقة وغياضا ونزهة وقد أتصور نزهة مع شخص آخر ، وقد أتصور يدا تقطف الزهرة لتقدمها لى ، وقد أتصور الصدر الذى تصلح زينة له ، وهكذا ترى أن اللون البسيط وحده شىء تعبيرى» .

غير أن الجارم لم يفعل من ذلك شيئا ، وانما حاول أن يصور هذا المنظر فى لوحة ساذجة خالية من هذا التوارد المعمق للاحساسات البصرية ..

وهل يعفيه من مسئوليته قوله :

ومناظر يعيا القريض بوصفها ويضل فى ألوانها الرسام ؟

فاذا ما بعد عن رشيد ــ موطن صباه ــ وأراد أن يتحدث عن النيل ضعف نفسه ، حتى وهو فى رحلته الى السودان حيث النيل الخالد يشق طريقه الصخرى فى عظمة وجبروت ، وحيث بيوت النوبة العطشى ، التى تمثل الجفاف الصخرى ، والتى تغسل أقدامها فى مياه النيل ثم تحرم منه كالباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لم تلهم شاعر رشيد بشىء من الجلال والعظمة، وان تحدث عمن نزلوا على الشطين

سر أيها النيل فى أمن وفى دعة وزادك الله اعزازا وتمكينا
أنت الكتاب كتاب الدهر أسطره دعت حوادث هذا الكون تدوينا
فكم ملوك على الشطين قد نزلوا كانوا فراعين أو كانوا سلاطينا
فنوتهم كن للأيام معجزة وحكمهم كان للدنيا قوانينا
انا قرأنا الليالى من عواقبها فصار ما يضحك الأغرار يبكينا

واذا أراد كذلك أن يصف البحر المتوسط بعيدا عن رشيد على شاطىء المكس بالاسكندرية لم يجد الا الحديث السريع عن المكس المشرق ، والرمل الطيب المقام ، والموج المترامى فوق الثرى صبا ، والنزهة البديعة :

فمكسك مشرق البسمات ضاح ورملك جنة طابت مقاما
ترامى الموج فوق ثراه صبا وكم صب تمنى لو ترامى
ونزهتك البديعة ما أحيلى وما أبهى اتساقا وانسجاما

إذا انتثرت ازاهرها نثارا جمعن الحسن فانتظم انتظاما

فاذا ما أراد أن يخلص وصفه لرشيد بعيدا عن النيل والبحر ضل فى متاهات الصور الجزئية دون تنسيق لها فى لوحة متكاملة، فرشيد وردة بين الرمال ، ودرة البحر ، ودوحة الشعر ، وروضة الأمل ، وصحوة المجد ، وطلعة الحسن :

يا زينة بين الثغور وفتنة سحر الممالك ثغرك البسام
يا وردة بين الرمال نضيرة تزهى بها الاغصان والاكمام
يا درة البحر التى بوميضها ضحك الصباح وأشرق والاظلام
يا دوحة نبت القريض بأرضها فأصولها وفروعها الهام
يا روضة فتن العيون جمالها وتحدثت بأريجها الانسام

(ب) الروض :

ويحتل الروض فى شعر الجارم جانبا مهما وان ذكره فى مقدمة بعض قصائده ليستعين بتصويره على ما فى نفسه من خواطر وانفعالات ٠

وروضة الجارم أحيانا زهراء مثمرة تتيه بغصونها وزهورها وطيورها ، واحيانا أخرى مصوحة مهشمة تبكى طيورها على أصائلها وبكورها ، وعلى زهورها ، وجمال مفاتنها ، على حسب الغرض الذى من أجله سيقت القصيدة ٠

ففى سنة ١٩٣٧ احتفلت وزارة المعارف المصرية بعيدها المئوى وكان للشاعر فيها قصيدة رائعة صور فيها الروض فأبدع التصوير لان وزارة المعارف روضة العلم والمعرفة :

أخرج الروض أطيب الثمرات هات ما شئت من قريضك هات

ولا عجب ، فخريجو هذه الوزارة ثمارا ، وطلابها زهرات :

لم تفارق كمامها وشذاها ينشر الطيب فى جميع الجهات

ومدارسها غصون ، وأساتذتها حمائم ، وعلمها الغيث .

فى هذه الروضة غرس العلم ، وبذرت القلوب الصغار ، وسقيت بماء الأزهار ، وحميت بسياج الخلق ، الذى حفظها من الرياح ووقاها شره الحشرات .

وقبل ان يلجأ الى عقد موازنة بين الروض ووزارة المعارف فيستعير صور هذه لتلك ، يتحدث عن روضة حقيقية فى اثنين وعشرين بيتا ، روضة تتيه غصونها بالازهار ، وازهارها بالغصون فتصير صفحة الرياض سماء ، وتنشر الطيب فى جميع الجهات ، وتسير فيها الريح بخشية وأناة ، تصغى لغناء الحمائم ، وتضحك الأزهار لبكاء الغيث :

واذا ما جرى الغدير تدانت لتحيى الغدير بالقبلات
ان للروض فى معانيه حسنا فوق حسن الملامح الفاتنات
فانظر الروض لا ترى غير تبر من تراب ودرة من حصاة
حبة انبتت سنابل سبعا ثم ملء الفضاء من سنبلات
ونواة جادت بنخل ونخل وارف الظل دائم الثمرات

وحينما يموت شوقى أو الزهاوى نرى روض القريض هشيما ، وريحانه مقصفا ، وطيره مفزعا يبكى خمائله الذابلة التى كان يغنى فى ظلها ، ويغرد فيبعث فى النفوس الآمال والهمم .

ذوى نبتة بعد البشاشة وارتمت
مصوحة اثماره وازاهره

تلفت أين الروض ؟ أين مكانه ؟!
وأين مجـــاليه ؟ وأين بواكره ؟

وأين الذى لم يطـرق الأذن مثله ؟
اذا صدحت فوق الغصون مزاهره ؟

حمائم ألهاها النعيم عن البكـــا
وأذهلهـــا عن عابس العيش ناضره

اذا أرســـلت ألحانها فى خميلة
توثب زهـر الروض واهتز عاطره

(ج) النخيل والخمائل :

أما النخيل عند الجارم فلقد ارخت شعورهـــا ، ومدت ظلهـــا فتموج ، وصفت حول اجيادها عقـد العقيق من البلح ، فهى تشبه العذراء دائمـــا .

هذه العذراء التى يدنو بها الشوق ، ثم ينأى بها اللوم :

والنخيل النخيل أرخت شعورا   مرســـلات ومدت الظل مـــدا
كالعذارى يدنو بهاالشوق قربا   ثم تنأى مخافة اللوم بعــــدا
حول أجيادها عقـــود عقيق   ونضار صفاؤه ليس يصـــدا

●

أرخت شعورا للنسيم كأنمـــا   أظلالها تحت الغمـــام غمـــام
تهفو ويمنعهـــا الحيـــاء فتنثنى   كالغيد روع سربهـــا اللوام

أو هذه العذراء التى تميس فى الحبرات ، تتناءى بها الظلال لتتجمع ثم تدنو لتتفرق ، مثل الرسام ، أو وجه الحسناء الذى يبدو ويختفى !

كم تهادى مع النسيم اختيالا ... كالعذارى يمسن فى الحبرات
تتناءى به الظلال لجمع ... ثم تدنو مدلة لشتات
أو كوجه الحسناء يبدو ويخفى ... بين ميل الهوى وخوف الوشاة

ومثل ذلك الخمائل الحذرة فى الظلام التى تتقى عيون الرائين الراكبين فى القطار :

وللخمائل فى ثوب الدجى حذر ... كأنها تتوقى عين رائينا
كأنهن العذارى خفن عاذلة ... فما تعرضن الا حيث يمضينا

(د) الصحراء :

ولقد أبدع فى وصف الصحراء التى مر بها فى طريقه الى العراق ، أو صحراء العطمور التى اجتازها قاصدا الخرطوم ، فلقد وصف اتساع رقعتها وتموجها بالرمال ، وتخلص النظر بها من مرمى بعيد الى مرمى بعيد :

طالت بنا الصحراء حتى ... خلتها أبد الأبيد
يتخلص المرمى المديد بها ... الى مرمى مديد
كتخلص الحسناء من ... وعد طوته الى وعود

كما وصف اثر الرحلة فى نفسه :

وسفينتى نرن بها ... ما فى فؤادى من وقود

***

تطوحنا الصحراء ليس بعيدها ... بدان ولم نعرف لآخرها حدا

***

ثم انتقلنا الى الصحراء توسعنا   بعـدا ونوسعها صبرا وتهوينا

* * *

عددنا بها الساعات حتى تركتنا   وقد سلمت منها اصابعنا عدا

وشبهها بالبحر من غير شاطىء :

بحر بلا شـطين يزخر بالتنائف والنجود

* * *

والرمل يزخر فى هول وفى سعة   كالبحر يزخر بالامواج مشحونا

وما أدق تشبيهه لكثبان الرمال الجاثمة على أرضـــها بجمال أنيخت لا تساق ولا تحدى :

كأن الرمال الجاثمـات بأرضها   جمال أنيخت لاتساق ولا تحدى

وجعل هذه الكثبان ناعسة تمد طرفها ثم تغفى :

تطل من خلفها الكثبان ناعسة   يمـددن طرفا كليلا ثم يغفينا

وصور السراب الخادع ، وربـط بينه وبين المرائين فى توارد خواطر جميل :

وكم سراب بعيـد راح يخدعنا   فقلت : حتى هنا نلقى المرائينا

وجعلها أرض النوم والاحلام :

أرض من النوم والاحلام قد خلقت   فهل لهـا نبأ عند ابن سيرينا

كأنمـا بسـط الرحمن رقعتها   من قبل أن يخلق الامواه والطينا

(هـ) الليل :

وكما استهوته الامـكنة فوصفها ، اســتهوته كذلك الازمنة والفصول ، فتحدث عن الليل ، والصباح ، والربيع والشتاء ٠

وحديثه عن كل ذلك لم يخرج عن تصوير احساساته أمام هذه الازمنة التى أثارت انفعاله ، بصرف النظر عن كونها جميلة فعلا ، أو أنه استطاع أن يلمح فيها موطن جمال خفى .

فحديثه عن الليل يرتبط دائما بروح هادئة طيبة فى ليلة عيد أو فى ليلة ندوة أدبية ، وتصويره لليل يرتبط بصورة الزنجى أو الراهب .

فالزنجى يستمع الى غناء بلابل الأدب فيبتسم ، فتفتر مشافره عن زهر النجوم ، وهو مع ذلك متعصب لزنجيته متمن لها أن تزداد اظلاما حتى يتمتع فى هدوئه بهـذا الغنـاء ؟ فلو ان الغيد ضمت شعورها الى شعره فطالت غدائره ، ولو أن الفجر عوق سيره، وطاش به الطريق ، وزلت بشطآن المجرة رجله لتحققت أمانيه :

يصيخ اليها أسود الليل باسما	فتفتر عن زهر النجوم مشافره
يود لو ان الغيد ضمت شعورها	الى شعره الداجى فطالت غدائره
ويرجو لو ان الفجر عوق سيره	وطاش به نائى الطريق وجائره
وزلت بشطآن المجرة رجله	فطوحه فى غمرة اليم زاخـره

أما الراهب فلقد تردى الليل مسوحه ، وسارت ذوائبه تسد الخافقين ، ثم أخذ ينظر من عليائه الى الارض فى ليلة العيد ، تتلألأ أساريره للاحسان ، ويتموج فيعلو البر والبحر موجه ، تسبح عليه سفائن النجوم التى لم يعرف لها الدهر ساحلا :

تردى مسوح النسك فى زى راهب	وسارت تسـد الخافقين ذوائبه
وأعجبه ان دارت الارض تحته	كدور شريط ما تناهى عجائبه
اذا أبصر الاحسان فيها تلألأت	أساريره واهتز بالعجب جانبه
يموج فيعلو البر والبحر موجه	وتملك أرجاء الفضـاء مذاهبه

فاذا ما ترك ظلام الليـــل الذى ألهمه هاتين الصورتين التى سبقه الى احداهما أبو العلاء فى قوله :

ليلتى هذه عروس من الزنـــ ـــج عليها قلائد من جمان

وأراد أن يصور صورة مشرقة لليلة عرس عجز ، فلم يتحدث الا عن سرعة مـــرورها وتمنى الكواعب الا تنتهى ، حتى ولو عدت بغدائرهن السوداء أو بحبات عيونهن :

يا ليـــلة حمـــدت بهـــا عقبى الموارد والمصـــادر
مـــرت كحسوة طـــائر قصرا وكرات الخـــواطر
ود الـــكواعب لم تمـــ ـــد بمـــالهن من الغدائر
أو لـــو وصلن ســـوادها بسواد حبـــات النواظر

أين وصف ليلة العرس ؟ وأين التقاليد المصرية المتعارف عليها فى الأفراح ؟ ماذا حدث فى هذه الليلة التى مرت كحسوة الطائر أو كرة الخاطر ؟ لم يقل الشاعر شيئا ، وكان أولى به أن يعكس ما رأى من خلال مرآته الفنية لـكى يضيف الى أدبنا العربى مشهدا حيا لليلة عرس مصرية ..

غير أنه والحق يقال صور فى أدبه النثرى ليالى الأنس والطرب وغناء بلابل الأدب .

(و) الصباح :

فاذا ما أشرقت الشمس بعد هذا الليل الطويل المظـــلم الذى عاشه الشاعر كثيرا وهو ينظم أشعاره ، وعادت الى الـكون حياته ، فصحت الأزهار من وسناتها ، واستقبلت الأطيار بســـمة نوره ، وصعدت على الأفنان سكرى من السنا فبدأت تغنى استقبله الشاعر حفيا به مرحبا بجماله الذى بدد غياهب الظلام التى كانت تلف الكون باردية غليظة لولا ما فيها من نجوم :

وللصبح عندى منة كلما بدا ... بى الليل أو طالت على هيادبه
أراه فألقى البشر فى قسماته ... طهورا كثغر الطفل حين تداعبه
وأشعر أن الكون عادت حياته ... اليه وأن الأنس قد آب غائبه
يهش اليه كل حى كأنما ... اشعته حلم الصبا ورغائبه
وتضحو له الأزهار من وسناتها ... تضاحكه والطل لم يجر ذائبه
وتستقبل الأطيار بسمة نوره ... فيبهرنا من كل لحن غرائبه
تراها على الأفنان سكرى من السنا ... ينــاجى أليف ألفه فيجاوبه
قياف أرق الله أوتار عودها ... فأحيت أغانيه وأشجت مضاربه

فاذا ما أراد أن يصور الصباح وما فيه من جمال ونشوة لجأ الى الصور الجزئية والتشبيهات السريعة : فعمود الصبح الأبيض يشبه السلسل الضحضاح فوق جليد ، أو اليد البيضاء الكريمة ، أو جيد العذارى ، أو اقتبال الحسن ، أو ابتسام الدل بعد صدود :

أسمعت شدو الطائر الغريد ... هزجا يناغى فجر يوم العيد ؟
وبدا عمود الصبح أبيض ناصعا ... كالسلسل الضحضاح فوق جليد
أو كاليد البيضاء تنضح بالندى ... والغيث، أو جيد العذارى الغيد

(ز) الربيع والشتاء :

وأراد أن يصف الربيع فوصف الشتاء ، لأن الشتاء فى مصر قارص البرد ، كثير المطر ، أما الربيع فمظهره ـ رغم تفتح الأزهار ، وتغريد الطيور وتسلسل المياه ـ غير مثير لأحاسيس الشعراء ، ان رياح الخماسين التى تحمل الهبوب وما يشبه الأعاصير فى مطلع الربيع كافية فى أن تقتل الاحساس بالربيع فى نفوس الشعراء .

ولعل أبا تمام الشاعر الواعى لم يكن عابثا حينما جعل من الربيع مقدمة للمصيف فى قوله :

نزلت مقدمة المصيف حميدة ... ويد الشتاء جديرة لا تكفر

ولعل الجارم هنا كان يتأثر خطى أبى تمام حينما ذكر الربيع والشتاء فى مطلع قصيدته :

اقتبال الربيع فى بسماته ... نبه الكون بعد طول سباته
ينثر الزهر كالدنانير غضا ... أين حر النضار من زهراته

غير أن أبا تمام استطاع أن يرسم لوحة رائعة لمظاهر الطبيعة فى الربيع فصور نهار الربيع الممطر الرائق الذى يكاد من الغضارة يمطر ، وصور وجوه الروض ، والزهر وألوانه .

أما الجارم فلقد تحدث عن الشتاء المظلم البارد الممل الممحل ، كما تحدث عن الانسان الفرح ، باقتبال الربيع ، قد تخلص من الشتاء :

قد سئمنا دجى الشتاء فجئنا ... نرهف النور من سنا لمحاته
وخلعنا الدثار مثل أسير ... حل من قيده ومن وخزاته
قد ظنناه فى الشتاء وقاء ... فجمعنا الشتاء فى طياته
تبخل الكف أن تشير من البر ... د ، ويخشى المقرور من لفتاته
جمدت صولة اللسان وكادت ... تجمد الهاتفات من كلماته
واختفى الطير واختفى كل صوت ... موصلى الأداء فى لهواته
ورأينا الأشجار يسلبها الحسـ ... ـن سنا حليه وسحر شياته
مال فيها برأسه كل فرع ... باحثا فى التراب عن ورقاته
يهرم الدهر فى الشتاء ويلقى ... ما مضى فى الربيع من صبواته

فاذا وصل الى الربيع صوره بأنه تخت الوجود غنى به الطير ، وسايرته الأزهار فى الغناء فهى تهفو يمينا وشمالا على هوى نغماته ، واذا صفق للغدير انثنى الغصن راقصا :

هو تخت الوجود غنىبه الطيـ ـــر فهز الغصـــون فى دوحاته
سايرته الأزهار تهفو يمينـــا وشمالا على هـــوى نغمـــاته
واذا صفق الغدير انثنى الغصـ ـــن نضـير الشباب فى رقصاته

أين هذا من تصوير أبى تمام المفتن الذى يصور الأرض فى الربيع وما عليها من زهور صفراء وحمـــراء تتبختر على وهادهـا ونجادها بفئتين من الراقصات :

حتى غدت وهداتها ونجادهـا فئتين فى حلل الربيـع تبختر
مصفرة محمـــرة فـــكأنها عصب تيمن فى الورى وتمضر

تقصيره فى الوصف وأسبابه :

ومن الدراسة السابقة نجد ان الجارم لم يفتن بالطبيعة رغـم نشأته فى رشيد ، ورغم تفتح عينيه على النيل والبحر وهما يطوقان بلدته ، ويحملان على امواجهما البواخر الســـابحة فى الصباح والاصائل والأماسى ، ورغم كثرة النخيل الضارب فى عنان السماء ورغم اعتراضه على أبى الطيب المتنبى لانه قصر فى وصف مصر ، ومن المهم أن نكرر هنا ما قاله الجارم على لسان عائشة بنت رشدين « فى الشاعر الطموح ، لنسأل بدورنا الجارم نفس الأسئلة التى وجهها الى أبى الطيب : يقول الجارم : قالت (عائشة) دعنى اعاتبك يا أبا الطيب : أقمت بيننا أشهرا فمـــا اهتزت شاعريتك لوصف ما ترى من روائع المشاهد ولا اجتذب نظرك جمال يوقظ وســنان القريض • أين من شعرك النيل وأمواجه ، وسفنه السابحات وهو يتهادى بين الشاطئين كالملك بين رعيته ، يجود على الأرض بمائه

تبرا ، فتنثر عليه من أزهارها ياقوتا ودرا ؟ وأين من شعرك تلك الاهرام العـاتية التى لم ينحن ظهرها لعواصف الدهر ، وأحداث الزمان ، والتى لو تحدثت بأخبار الملوك الذين أقاموا فى ذراها ، والجيوش التى مرت بها لسمعنا حديثا عجبا يهدى الى الرشد؟أين من شعرك رياض مصر الباسمة ، ومروجها الفاتنة ، ونخيلها الباسقات، وأدواحها الظليلات ؟ أحب يا أبا الطيب ان تكون شـاعر الدنيا لا شاعر الملوك • أحب أن تصور لنا الحياة حلوة لذيذة كما نحب أن تكون ، أحب أن يكون فى شعرك أمل اليائس ، وعلالة العاشق، وسلوة الحزين ، وهداية الحائر • ان الشعر دنيا جديدة خلقها الله للناس ليفروا اليها كلمات ضاقت بهم دنياهم ، وجعل مفاتيحها فى أيدى الشعراء ، فافتح للناس يا سيدى من أبوابها ما ينقذهم مما هم فيه من بؤس وشقاء صور لهم جمال الحياة يا أبا الطيب تصويرا يحبب اليهم الحياة ، واخلق لهم من روائع خيالك كونا جديدا ، فقد ضاق بهم على اتساعه هذا الكون اللعين •

لقد كان الجارم يدرك مدى تقصير أبى الطيب فى وصف مصر، ولكنه للأسف لم يكن ليدرك مدى تقصيره هو لأن مرآته الفنية لم تستطع ان تعكس مدى هذا التقصير ، ولأن هناك عوامل متعددة ساعدت على تقصيره فى هذا الفن الأدبى الخالص ، منها :

(أ) طغيان شعر المناسبات على أغراضه الفنية ، واذا كان شعر المناسبات قد قضى على شاعر عظيم كالمتنبى فدمغ ثلث شعره تقريبا بطابع المديح، وأبعده عن الفن الخالص فى بقية شعره ، فانه حرى من باب أولى ان يقضى على شـاعر كالجارم ، افتتن بالمتنبى نفسه ، كما افتتن بغيره من شعراء المديح •••• وساعدته حياته التى كان يحياها ، والظروف المتعددة التى جعلت له مكان الصدارة بعد موت شوقى وحافظ على ذلك ، لقد كان قائد المداحين الى قصر

عابدين . أما الطبيعة فكانت وسيلة ومقدمة الى مدائحه ، لقد حلت محل البدء بالغزل فى الأدب العربى القديم .

(ب) اغترابه الروحى الى الجزيرة العربية .

ولقد أثر هذا الاغتراب فى نظرته الحية الى مواطن الجمال فى بلاده ، لقد كانت مخيلته الفنية تعيش هناك فى جزيرة العرب ، وبالأخص فى العصر الجاهلى حيث تشهد القوم قد اجتمعوا للشورى:

من كل مكتهل بالبرد مشتمل   للقول مرتجل ، للهجر مجتنب

وحيث تلمع النـار :

.... فى الظلماء قد نضبت   لطارق الليل والجيران والسغب

وحيث تبصر القوم :

.... يوم الروع قد حشدوا   للموت يجتاح،أو للنصروالغلب

وحيث يحضر :

... الشعراء اللسن قد وقفوا   وللبيان فعال الصارم الذرب

ولا شك أن هيام الشاعر بذلك ، وسيطرته على أغلب شعره الفنى الخالص – البعيد عن المدح والرثاء – أثر فى بعده عن مواطن الجمال فى بلاده ..

(ج) ولقد نشأ على ضفاف النيل ، وتفتحت عينه على الجمال فى رشيد ، غير ان هذا الجمال لم يثر دهشته لألفته له ، والدهشة مرحلة مبكرة من مراحل الشاعرية وكلما بعد الانسان عن الطبيعة كان أحس بها ، وأصبى اليها ، وكانت فكرتها أبرز فى ذهنـه ، وصورتها اعلق بخاطره .

ولعل هذا هو السر فى غناء على محمود طه لمواطن الجمال خارج بلاده على نهر «الرين» أو على «بحيرة كومو» أو أمام مياه «فينيسيا» لقد اندهش على محمود طه لهذا الجمال الذى تفتحت عينه عليه لأول مرة ولقد كان لاندهاشه هذا أثر فى تحويل خياله الى مواطن الجمال فى بلاده حيث النيل ، والبحر ، وبحيرة المنزلة ٠

(د) ولقد كان لتعلق الجارم بتراث العرب المدون أثر لا يقل شأنا عما تقدم من الأسباب ، لقد كان يعيش بين الكتب الصامتة أكثر مما كان يعيش بين الطبيعة الحية ٠

ومع أن تقصيره فى وصف الطبيعة الحية كان ظاهرا الا أننا نلاحظ أنه قصر أيضا فى وصف المخترعات الحديثة ، رغم أن ذلك كان اتجاها بعينه فى الأدب الانجليزى وسايره من شعراء العربية شوقى والبارودى وغيرهما ٠

الغزل :

الحب عند الجارم يضغط غالبا فى منطقة اللاشعور ، لأن الجارم بطبيعته رجل متدين ، نشأ فى بيئة محافظة ، وأتجه فى تعليمه الى الأزهر ، وكان له من اخلاقه ونشأته، وأتجاهه التعليمى ما يمنعه من ممارسة تجارب عنيفة فى ميدان الحب ، فاذا حدث شىء من ذلك ضغطه فى منطقة اللاشعور ولم يتحدث عنه الا لماما ٠

ونتيجة لهذا فلقد التبس على الدارس غزل الجارم التقليدى بغزله الصادق ، وأصبح فى حاجة الى كثير من الأناة والهدوء ليبرز تجربته الحية فى هذا الميدان حتى لا تختلط بالغـــزل التقليدى الموروث ٠

لقد أحب الجارم بالفعل ، وأحب أكثر من واحدة ، وكانت له مع كل منهن ذكريات حرص أشد الحرص على حجبها عن قرائه ، وان نمت عنها بعض أبياته وقصائده :

(أ) ففى سنة ١٩٠٤ والشاعر على أبواب الدراسة العليا ، وسنه لما تتجاوز الثانية والعشرين نراه يتعلق بفتاة رشيدية أسمها « زينب » ويظهر أن هذه الفتاة كانت جميلة ، وكانت تستغل الحجاب فى أبراز جمالها شأن «فتيات البلدة» اللائى يحاولن دائما لفت الأنظار اليهن عن طريق السفور المحجب ٠

ولقد وقع الشاعر فى غرامها ، ولعبت فعلا بلبه ، وتمادى فى ذلك فقلبه متفتح للتجربة الأولى ٠

زينب اين منك زينب ، والشمـ
ـل جميع والعيش خصب الجناب ؟

وبنـات الثغور يلعبن بالالـ
ـباب لعب الشمول بالالبـاب

يتظاهرون بالحجـاب وهل أذ
كى الجوى غير لؤم ذاك الحجاب

كم وجـوه تنقبت بسـفور
ووجوه قد أسـفرت بنقـاب

ثم تكشفت له الحقيقة المرة ، فزينب فتاة هلوك لا تفهم الحب النظيف الذى يفهمه الشاعر المحافظ ، ولا تعرف الا نظرات الدلال والتفنن فى لفت الأنظار ، وماذا عليها اذا هام بها أكثر من واحد بل لعل ذلك كان من لوازم الدلال والجمال ٠

واشركت مع المحب الولهان غيره فثار :

علقت غيرى وترجو صـلتى   عجبـا مما ترجى عجبـا
هل يحل الغمد سيفان معا ؟   أو يضـم الليل الا اغلبا ؟

ثم يأتى بأقيسة منطقية يبرر بها ثورته فيقول :

ان هـــذا الحسن كالماء اذا كثر النـــاهل منه نضبا
وهو مثل الزهر ان اكثرت من شمه يا زين أمسى حطبـــا

وأخيرا تشتد ثورته فيقول أنه يبغضها ، ويبغض من أجلها كل شيء جميل رغم تعلق قلبه :

قــدك المائس قد بغــض لى كل غصن بين أنفاس الصـبا
وجنى خديك قــد زهدنى فى حديث الورد يزهى فى الربا
ابصروا البدر فقالوا وجههـــا فتغشــيت بثوبى هربـــا
فاحتجب يا بدر عن أعيننـــا وعزيز عنـــدنا أن تحجبـــا

(ب) وفي سنة ١٩١٣ يعد الشاعر قصيدة ليهنىء بها صديقه محمد بدر الدين بزواجه فيبدؤها بالغزل ويقول :

هذى الديار وأنت شـــاعر فانثر كريمات الجواهـــر
وافعل كما يلى الهـــوى فاكتم حديثك أو فجـــاهر
هى من علـــمت مـكانها فاربأ بنفسك أن تخـــاطر
حـــاذر علـى وليت شــــعـ ـــرى هل يردك قول حاذر ؟
حوراء تسرح فى القـــلو ب كأنهـــا مرح الجـآذر

ثم ينتقل سريعا الى وصف ليلة العرس :

يا ليـــلة حمدت بهـــا عقبى المـــوارد والمصادر

وانى لأتساءل لمـاذا بدأ قصيدة التهنئة بالغـزل ؟ ألمجـــرد التقليد ؟ أم أن ذلك خضوع لسيطرة اللاشعور ، وان هذه الأبيات ترمز فعلا الى قصة حب كانت للشاعر فى هذه الديار ؟ وانها فى الواقع صراع بين اللاشعور والرقيب فكلما حاولت الظهور منعهـا الرقيب بقوله :

هى من علمت مــــكانها   فاربأ بنفسك أن تخــاطر
حاذر على ... ...

ولكن طغيان الرواسب المضغوطة تهتف به :

... ... وليت شعرى   هل يردك قــول حــــاذر

وأخيرا لا يستطيع الشاعر الا أن يهرب الى وصف ليلة الزفاف ليبتعد عن هذا الصراع فلربما جرد الشـــاعر من أثوابه فبرزت لنا قصة حبه .

ومن الغريب أن الجارم قد تزوج بعد ذلك بأخت صديقه محمد بدر الدين ..

(ج) ثم بعد عودته من انجلترا وفى سنة ١٩١٥ تلمح من خلال قصيدته « حنين طائر » أثر الذكريات حبيبة الى نفسه ، جدد أشجانها ذلك الطائر الذى كان يغنى فى الصباح الباكر ، والكون صامت ، والنسيم عليل .

وبدلا من أن يستقبل الشاعر شدو الطائر بالارتياح النفسى فيعلل ترديد الصوت بالغناء ، اذا به يلون هذا الغناء بلون نفسه الحزينة فاذا بالطائر يبكى :

هزه شـــوق الى ســـكن   فبـــكى للأهل والســـكن
ويك لا تجزع لنـــا زلــة   ما لطـــير الجو من وطن

ثم يأخذ فيذكر قصة قلبه فى انجلترا :

كان لى ألف فأبعــــده   قـــدر عنى وأبعـــدنى
أنا مـــد الدهـــر أذكره   وهو مد الدهـــر يذكرنى
قد بنينا العش من مهـــج   غسلت من حـــوبة الدرن
... ...

وظننـــا أن نعيش بـــه عيشـــة المستعصم الأمن
فــرمت كف الزمان بـــه فـــكأن العش لـــم يـكن

وأخيراً يطلب من الطـائر أن يذهب الى « التـايمز » ليصف حاله :

صف له يا طير ما لقيت لأبى الدمـــع لم تصـــن
صف له روحا معـــذبة مهجتى فى الحب من غبن
صف له عينـــا مقرحة ضـاق عن آلامهـــا بدنى

أما غزله التقليدى فخال من التجربة الحية ، والعاطفة الجياشة وان كان يمتاز بروعة السبك ، وجزالة اللفظ ، وفخامة الموسيقى :

(أ) فله قصيـــدة بعنوان « الحب والحرب » ويقصد بالحرب الحرب العالمية الأولى .

تحدث فيها عن حبه ، وعن حبيبته الهاجرة ، وعن صديقتها التى تدخلت لاصلاح الأمر ، وبدأها بقوله :

ما لى فتنت بلحظك الفتـــاك وسلوت كل مليحـــة ألاك
يسراك قد ملكت زمام صبابتى ومضلتى وهداى فى يمناك
فاذا وصلت فكل شىء باسم واذا هجرت فكل شىء باك
هذا دمى فى وجنتيك عرفته لا تستطيع جحوده عينـــاك

ثم يستغل الحوار الجانبى استغلالا رائعا فى قوله :

قالت خليلتها لها لتلينهـــا ماذا جنى لمـــا هجرت فتاك ؟
هى نظرة لاقت بعينك مثلها ما كان أغناه وما أغنـــاك ؟
قد كان أرسلها لصيدك لاهيا ففررت منه وعاد فى الاشراك ؟

عهدى به لبق الحديث فما له   لايستطيع القــول حين يراك
اياك أن تقضى عليـــــه فانه   عرف الحياة بحبـــــه اياك

ولـكنه للأسف يتخلص من الحب الى الحرب بجامع المشابهة بين الدماء التى سفكتهـا الحسناء والدماء التى تسـيل فى ميـادين القتـال .

وهذا وحده دليل على الصنعة والتكلف ، وانى لأتساءل : أين هى التجربة ؟ وأين هو الصدق العاطفى ؟ وهل هو يغـــار فعلا من الـكؤوس حينما يقول :

انى أغـار من الكئوس فجنبى   كأس المدامة أن يقبـل فاك ؟

(ب) للجارم كلام فى الحب لم يربطه بتجربة ، وانما عرضــه عرضا مجردا فجاء باردا متكلفا لا حياة فيه ولا حرارة .

لقد أراد أن يفلســف الحب ، وأن يحيطه بســياج متين من الاخلاق ونسى ان الحب الصحيح يهذب الطباع ، ويصقل النفس ، والا فما هو بحب وانما هو فجور وعربدة ..

يقول الجارم :

عاج الخيال فلم يبل أواما
ومضى وخلف فى الضلوع ضراما

مالى وللكحلاء هجت عيونهـا
فملأن قلبى أنصـــلا وســـهاما

يا قلب ويحـك ما سمعت لناصح
لما ارتميت ولا اتقيت ملاما

لعبت بك الحســـناء تدنو ساعة
فتثير ما بك ثم تهجر عاما

وكيف يكون محبا ذلك الذى تلعب به حسناؤه ، فتدنو منه ساعة ، ثم تهجره عاما كاملا ؟

لا ليس هذا هو الحب ..

ثم أستمع الى الجارم حينما يقول :

والحب ما لم تكتنفه شمائل غر يعود معرة وآثاما

ألا يتبادر الى الذهن قول حافظ ابراهيم :

والعلم ما لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الاخفاق

ثم استمع اليه حينما يقول :

والحب أحلام الشباب هنية ما أطيب الايام والاحلاما
والحب نازعة الكريم تهزه فيصول سيفا أو يسيل غماما
والحب نيران المجوس لهيبها يحيى النفوس ويقتل الاجساما

أين هو الحب ، أهو هذه التقريرات الجامدة التى أتحفنا بها الشاعر ؟ أين الحرارة ؟ وأين التجربة ؟

(ج) فى سنة ١٩٠١ بدأ فشطر قصيدة اسماعيل صبرى .

يا لواء الحسن أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء

ومن الواضح انه لم يفهم فى هذه القصيدة معنى الحب ، ولم تمر بها تجربته وانما أراد أن يتلاعب بمعانى اسماعيل صبرى المتكلفة الخالية أيضا من حرارة التجربة .

(د) صور الجارم اله الحب (كيوبيد) فى شعره كما رآه الغربيون الذين آمنوا به ، وارتقبوا آياته :

قد آمنــوا باله الحب وارتقبوا ... آياته بين اجلال واكبــار
وصوروه فتى أعمى اذا رشقت ... يداه بالنبــل أصمت كل جبار
عريان ان مسه برد الشتاء فما ... له سوى زفرات الوجد من نار
يغشى الفتاة ولم ترقب زيارته ... وخدرها بين اغـــلاق واستار
فطرفها خاشع من بعــد زورته ... وقلبها نهب أوهام وأفكار
تشكو الى أمهــا طيفا ألم بها ... والأم أن تستطع باحت بأسرار

أما صاحبنا فلقد كان بنجوة منه ، ولقد كفر باله الحب أخيرا ولم يؤمن به الا ليرتد عن هذا الايمان ·

الفخر :

والفخر من أغراض الشــعر التقليدية التى قضت عليها روح العصر الحديث بما تحمل من معانى الديمقراطية والاشتراكية ، ونمو الروح الجماعية ·

ولقد افتخر « الجارم » فى أول حياته الادبية ، ثم خضع لروح العصر فانصرف عن الفــخر بعد أن ترك فى ديوانه قصيدة تقليدية وبضعة أبيات ·

أما فى القصيدة فلقد افتخر بنفسه ، وبفضـــائله ، وبعزمه وحلمه وأشار الى حساده والحاقدين عليه ، وذكر تبرمه وملله من هؤلاء الحاسدين الحاقدين :

سئمت حياتى بين قوم فضائلى ... لديهم يغطيها التــدابر والحقد
اذا ما بدت ترنو اليهم فضيلة ... تصدى لهــا نذل وكر لها وغد
اذا كان عيبى بينهم اننى فتى ... صغير وشعرى بالشبيبة مسود
فمهلا أنا النجم الذى يبصرونه ... صغيرا ويخفى قدره عنهم البعد

والتقليد هنا واضح ، وشخصيته تائهة وراء المبالغات الجوفاء التى ملأ بها أبياته ٠

وأما فى الابيات فلقد افتخر بجده ، بعلمه ، وبشجاعته الادبية ، وبمكانته الاجتماعية فى رشيد ٠ استمع اليه وهو يقول لصديقه وصهره محمد بدر الدين :

عصر بجدى ثم جدك كان بالعلياء زاهر
سهرا فنام البائسون محصنين من المخاطر
وتقاسما فضل الفخار ، ونادیا هل من مفاخر
جدى بعلم ناصع يهدى ، وليل الشك عاكر
وبمقول يفرى الحديد ويصرع الخصم المكابر
فى حين جدك بالسماحة يخجل السحب المواطر

وبهذه اللمحات المحدودة فى ديوانه تحدث الينا عن نفسه وأسرته ٠

الحكمة :

وقد جاءت « حكم » الجارم فى ظل النص الادبى فهى بعيدة عن التقرير والتجريد وان كان من الممكن بسهولة استخراجها من النص للاستشهاد بها تبعا لنظام القصيدة العربية القديمة التى تعتمد على وحدة البيت ٠

واذا تتبعنا فهارس الديوان ، والفهرس الذى يشتمل على أهم الموضوعات التى فيه بخاصة رأينا ان الحكمة قد احتلت مكانا بارزا ظاهرا تفوق فيه غيرها ٠

ولم يكن هذا العمل من الجارم محض اتفاق ، وانما اعتقد انه

كان يهتم للحكمة يزين بها قصيدته الشعرية ، ويرى ان ذلك غاية الاحكام".

وحكم الجارم تخضع لجو النص العام الذى تقع فيه ، وتلون بلونه ، فهناك حكم تأتى فى ظلال المديح ، وحكم تأتى فى ظلال الرثاء أو فى ظلال الشعر الاجتماعى مثل :

واذا الله رام اصـــلاح شعب   سلك القائد الطريق الاسـدا

ومثل :

قد خبرت الدنيا فلم أر أزكى   من يمين تفتحت عن نـوال

ومثل :

رب من كنت فى الحياة له حر   باشققت الجيوب عند غيـابه
وتحديت شمسـه فاذا ولى م   تمنيت لمحة من ضبابـه
لم يفـــز منك مرة بثنـاء   فنثرت الازهــار فوق ترابـه
يعرف الورد حينما ينقضى الصيـ   ـف ويبكى النبوغ بعد ذهـابه

ومثل :

لا تضـــل الشـــعوب مصباحها العلم   يؤاخيـــه راسخ الايمان
فـاذا أطفىء السراج فمين   وضـــلال ما تبصر العينـــان

الفصل الثالث

دراسة فنية لشعر الجارم

١ ـ النقد الحديث وتوجيهه للشعر بعد البارودى :

تسلم « البارودى » الراية وتصدى للقيادة فى مجالين ، فى المجال الحربى حيث ظهر نبوغه العسكرى فى المعارك التى خاضها مع جيوش الدولة العلية ضد الثوار ، وفى الثورة العرابية •

وفى المجال الأدبى ، فلقد استطاع بما أوتى من ثقافة عربيـة خصبة ، وقريحة نفاذة متقدة ، وصبر على الاطلاع على عيون الادب العربى أن يضرب المثل أمام شعراء عصره ، فيأتى بنماذجه القوية التى تعد ثورة على شعر الضعف والركاكة •

وخير النماذج التى حلق بها البارودى الى سـماوات الفن قصائده التى عكست انفعال نفسه ، وصدق تجربته فى أحـداث الثورة العرابية ، وفى المنفى ، مما حدا بكثير من الشـعراء الذين أتوا بعده أن يقفوا أمام هذا التطور المفاجىء فيتأملوه باعجـاب ، ويسيروا على هديه ، فيغترفوا من نبع الثقافة العربية الأصيلة التى اغترف منها •

واذا كان البارودى قد ضرب المثل الرائع فى ميدان الثقـافة العربية الاصيلة فان كثيرا من المثقفين والمستغربين قد استطاعوا فى أواخر القرن الماضى أن ينقلوا الى الأدب العربى كثيرا من نماذج الأدب

الأوروبى شعره ونثره ، وأن يعرفونا ببعض الاجناس الادبية الخالصة كالمسرحية والرواية والقصة والأقصوصة والملحمة .

كما استطاعوا فى الوقت نفسه أن يعرفونا بشيء عن الشعر الاوربى وأن يوازنوا بينه وبين الشعر العربى من حيث نظام القصيدة ومن حيث المعانى والأغراض .

هذا بالاضافة الى هجومهم على القصيدة العربية التى تبدأ بالغزل والنسيب لمجرد التقليد .

ولم يقتصر الامر على ذلك وانما وجدنا تيار الثقافة الاوروبية يشتد ويتفاعل مع البيئة المثقفة الجديدة التى فتحت عيونها المبهورة على الادب الرائع الذى أنتجه شعراء الانجليز والفرنسيين منذ عهد النهضة الى مطلع القرن العشرين فأخذتهم روعته وقوته ، وتفاعله مع الحياة ونظرياته النقدية ، وفلسفته الفنية !!

وتأثرت به فى مصر طائفتان :

طائفة تمثل المدرسة الانجليزية فى الادب العربى ، وطائفة أخرى تمثل المدرسة الفرنسية .

وعلى رأس المدرسة الأولى العقاد ، والمازنى ، وشكرى ، وعلى رأس المدرسة الثانية خليل مطران ، وطه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، ومن خيرة شعرائها شوقى ، وعلى طه ، وابراهيم ناجى .

على أن المتتبع لآراء هاتين المدرستين لا يكاد يبعد قليلا فى فهم نظريات كل منها حتى يقترب فيجد أن كلتا المدرستين تدعو الى وحدة القصيدة من الناحية الفنية ، وان اختلف مفهوم الوحدة تبعا لاتجاه المدرسة .

فالمدرسة الانجليزية تدعو الى البنية الحية فى القصيدة على لسان العقاد .

أما المدرسة الفرنسية فتهاجم القصيدة العربية على لسان خليل مطران لأنه « لم يجد ارتباطا بين المعانى التى تتضمنهاالقصيدة الواحدة ، ولا تلاحما بين أجزائها ، ولا مقاصد عامة تقام عليها أبنيتها .

كما أن المدرستين قد اتفقتا أيضا على مهاجمة الشعر التقليدى الذى لا يتمشى مع العصر ولا البيئة ، وضربت المثل بنماذج حية رائعة .

ولقد سار التياران الى جانب التيار التقليدى ــ على ما بينهم من اختلاف وتنافر ــ الذى حافظ على الاغراض العربية القديمة من مدح ورثاء وغزل وهجاء ووصف كما اهتم بصحة الالفاظ والتراكيب ومقاييس البلاغة العربية القديمة وأوجه الاستعارة والمجاز والتشبيه

وليست مهمتنا دراسة مدارس النقد الادبى بالتفصيل وانما غايتنا لتعريف بالمدرسة لتى ينتمى اليها الجارم ، وتبيين خصائصها الفنية .

٢ ــ المدرسة التى ينتمى اليها الجارم :

واذا كنا نعد شوقى من رجال المدرسة الفرنسية فى الأدب العربى فما ذلك الا لأنه قد تأثر بالمسرح الفرنسى فى نظم مسرحياته العربية تأثرا واضحا ، كما تأثر بالمدرسة الرومانسية الفرنسية فى تغذية اتجاهه للتاريخ القديم ، واهتمامه بالطبيعة والشعر الاجتماعى .

أما فى غير ذلك فلقد كان جل اعتماده على الادب العربى مما جعله فى الطليعة من حيث اشراق الديباجة ، ونصوع الفكرةوجزالة اللفظ ، وقوة الأسر والسيطرة على موسيقى الشعر .

ولقد شاعت مدرسة شوقى فى الأوساط التى تميل الى المحافظة كالأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى ، كما شاعت بين كثير من المدنيين الذين يدرسون الأدب العربى والأدب الفرنسى .

والجارم أحد أركان المدرسة الدرعمية المتأثرة بشوقى بل ان الجارم كان أكثر شعراء دار العلوم تأثرا بأمير الشعراء لصلته الشخصية ولاعجابه المنقطع النظير الذى جعله منه بمنزلة مهيار من الشريف .

يقول الجارم :

جزيت بشعرك شعرا وهل ... تجازى الخمائل أمطارها
فكنت شريف قوافى البيان ... وكنت بفضلك مهيارها

ولقد سار الجارم على منوال شوقى فى أغراضه الشعرية التقليدية المتوارثة عن الأدب العربى ، كما نهج نهجه فى الاهتمام بالتاريخ القديم وان اختلفت البيئة عند كل من الشاعرين ،فشوقى قد اهتم بتاريخ الفراعنة وتاريخ مصر ، والجارم قد اهتم بتاريخ العروبة والعربية فى عصورها المختلفة . ونهج نهجه أيضا فى كتابة الرواية التاريخية وان اختلفا فى الشكل حيث لم يستطع الجارم أن ينافس أميره فى مضمار الشعر فلجأ الى النثر ، واتجه بأغلب رواياته النثرية الى التاريخ العربى فى عصوره المختلفة الى العصر الحديث .

ومن هنا يتبين أن مدرسة شوقى الادبية قد سيطرت على الجارم وكانت مثله الأعلى بالاضافة الى ما استفاده الجارم من خصائص المدرسة الدرعمية فى الأسلوب .

والمدرسة الدرعمية كما حدد أبعادها العقاد مدرسة لغوية عربية سلفية عصرية ، ولكن على منهج فريد بين مناهج المعاهد

السلفية ، والمدارس الأفرنجية ، وبين مناهج المحافظة والتجديد ، ومناهج الابتداع والتقليد ٠

ولا يسعك وأنت تقرأ قصيدة لشاعر من أركان المدرسة الدرعمية أن تحجب فكرة « اللغة » عن خاطرك وأن تنسى أن قائل هذا الشعر يثبت على القديم وان أخذ بنصيبه من الجديد ، وحرص على انتسابه اليه حرصه الى انتسابه الى التراث القديم ٠

وأقرأ هنا وهناك ما شئت من قصائد (المدرسة الدرعمية) فانك ترى التشطير وبيت التخلص ، ومحسنات الاشباه والنظائر ولكنك لا تلبث أن ترى القبعة الى جانب العمامة وأن ترى « الشجون المعتادة » بين الوطن الثقافى الاصيل والوطن الثقافى المستحدث ، وهما حيث كانا يتلاقيان وبينهما برزخ لا يبغيان ٠

٣ ـ موقفه من الثقافة الغربية ، ومذاهب الأدب الحديثة :

ولقد حدد الجارم موقفه من الثقافة الغربية تحديدا واضحا حينما قال فى معرض هجومه على المجددين من الشعراء فى ذكرى شوقى وحافظ سنة ١٩٤٧ ٠

إنما الشعر قطعة منك ليست	من دماء اللاتين واليونان
كل فن له مكان ٠٠ وأهل	ان غدا العلم ماله من مكان
ان رأيتم اخوة العود للجز	بند فابكوا سلامة العيدان
لا يهز النخيل الا حنان النا	ى فى صمت ليلة من حنان
وجهة الشرق غير وجهة الغر	ب فأنى وكيف يلتقيان ؟

وهو بذلك يقف من الفنون الغربية موقفا حاسما فلا يسمح لها بأن تؤثر فيه أى تأثير لاعتقاده بمحلية الفن ، وبعدم التقاء الشرق والغرب فى مجال الفنون اذا صح أن يلتقيا فى ميدان العلم !!

ولقد هاجم كثير من النقاد شعر الجارم واتهموه بالتقليد والسير فى ركاب القدماء ومن هؤلاء النقاد الدكتور بشر فارس ، وسلامة موسى ، والناقد الكلاسيكى أحمد الشايب الذى كان يقول للجارم فى فبراير سنة ١٩٢٩ فى مجلة كوكب الشرق :

« مهما يكن من شىء فما رأى الاستاذ الجارم اذا قلت له : انك مقصر فى الانتفاع بالادب الغربى والشعر خاصة ما دمت تجيد اللغة الانجليزية ، نعم مقصر على رغم انتفاعه بذلك ، فكان المنتظر من مثله وهو يتقن الادب العربى أن يهضم فيه من أدب الغرب مايلائم حياتنا الادبية التى ترتكز الى درجة قوية على الثقافة الاجنبية ، ومنه وحده كنا نحصل على تلك الروح الجديدة تختال فى حلل عربية جميلة فيريحنا من تلك الطائفة التى تحاول نقل الروح الانجليزية أو الفرنسية فاذا بها تتعثر فى أساليب خاطئة ، وتتسكع فى ألوان من اللفظ تنبو عن الذوق الصافى والطبع السليم ، وعلى كل فللجارم شعر فى فنون شتى تقوى فيه الروح العربية ، وتتوارى الروح الانجليزية .

ولكن الجارم لا يستجيب لكلام النقاد لأن هناك كثيرا من العوامل الوراثية والبيئية والثقافية طبعته بطابع الثقافة العربية الاصيلة ذكرناها فى غير هذا المكان .

واذا كان الجارم لم يستفد من الثقافة الغربية بعامة فهو بطبيعة الحال لم يهتم بمذاهب الادب الحديثة ولم يعطها أى اعتبار .

وعلى العموم فليس فى شعر الجارم أى أثر للثقافة الغربية اللهم الا اذا استثنينا ترجمة لبعض الاناشيد الاسبانية من اللغة الانجليزية فى كتابه « العرب فى أسبانيا » الى اللغة العربية .

والحق أنه قد نجح فى هذه الترجمة ، واعتمد على الجزئيات البسيطة التى تصور الموقف الشعرى فى اطار الحدث العـــام ، والعمل الفنى المتكامل • وهو بذلك يضرب المثل الرائع لما كان يجب عليه أن يفعله •

لقد صور الجارم اعتمادا على الأنشودة الاسبانية المترجمة من الانجليزية هزيمة « لذريق » على يد العرب ، واعتمد على « الحوار الداخلى » والحديث النفسى للمهزوم ، وتصوير الحدث تصـــويرا يعتمد على الجزئيات التى تثير العاطفة والانفعال •

يقول الجارم :

ومزق جيش لذريق وخـــارت	بمن فيه العزائم والقـــلوب
وحين رأى العزيمة فر يعـــدو	وحيدا مســـــتكينا لا يؤوب
عليه من غبار الحرب ثــــوب	ومن لون الدمـــاء به لهيب
وتحمل كفه سـيفا خضيبـــا	كمنشار أفلتــــــه الحــروب
فلأمة صدره فيهـــا شـــقوق	وخوذة رأسه فيهـــا ثقـــوب
أطل بقمــــة فرأى دمــــارا	له كادت حشاشـــــته تذوب
وأعلاما ممزقــــة تبـــدت	وكل بالدم القـــانى خضيب

كما صور «برنارد» الاسبانى وهو يقود فرســـان ليون فى مذبحة لجيش الافرنج بأسبانيا أيام عبد الرحمن الداخل •

تقول الأنشودة الاسبانية وقد ترجمها الجارم :

مشى برنارد فى جيش خضـــم	يسوق الى الفرنج به أســـودا
ليحمى أرض اسبانيا ويعــلى	شعار « بلاى » والشرف التليدا
وانا سادة الأحرار لكــــن	رضينا أن نكون له عبيـــدا

نتابع ريش خوذته ونمضى قريبا كان يقصد أو بعيدا
وعاهدناه أن نفنى جميعا وانا خير من حفظ العهودا

وفى غير هذين النصين لم نلمح أثرا جادا للتأثر .

٤ ــ القديم والجديد فى شعره من حيث الاغراض والصور والمعانى:

(أ) الأغراض :

أغراض الشعر عند الجارم كثيرة ومتنوعة ، بعضها موروث ، والبعض الآخر تظهر عليه روح العصر وملامحه .

أما الاغراض التقليدية التى تمسك بها رغم منافاتها لروح العصر فمن أهمها « المدح » ولقد رأينا من دراستنا لشعره أن المدح يعتبر من أهم الاغراض التى قال فيها اذا ما أحصينا عدد أبياته وقصائده .

ومعنى هذا أن هناك ظاهرة قديمة قد سيطرت على شعوره ولم يستطع التخلص منها ، بل لقد حاول أن ينميها وأن يوظفها فى سبيل أغراضه ومطامحه .

والرثاء غرض تقليدى آخر ولكنه يمتاز على المدح بما فيه من صدق الوفاء وروعة الذكرى ، وحرارة العاطفة ، وبتمشيه مع روح العصر ، وكل عصر آخر .

ولقد أجاد فيه الجارم وبخاصة بعد موت ولده البكر الطالب بكلية الهندسة ، وصب فيه كل ما يملك من صدق وانفعال عاطفى ، واستطاع أن يجعل منه نماذج رائعة لفن الرثاء فى الادب العربى الحديث .

أما الغزل فعلى الرغم من اثراء الشعر العربى بنماذجه الحية

الا أن الجارم لم تمر به فى الواقع تجربة قاسية تستطيع أن تلهم عرائس أحلامه شيئا من لوعات المحبين وصدق عواطفهم ، وهو لذلك يعتبر مقلدا ، فأحيانا يبدأ قصيدته بالغزل وأحيانا أخرى يتمادى فيصور غزلا متكلفا لا أثر فيه للصدق ولا لانفعال ، وربما زاد على ذلك فشطر قصيدة اسماعيل صبرى « يا لواء الحسن أحزاب الهوى .. » واستعار عواطف شاعر متكلف فى حبه فزاده ذلك تكلفا على تكلفه .

وكذلك بعض قصائده فى الفخر التى لا تتمشى مع روح العصر

أما الأغراض العصرية التى افتن فيها الجارم فقليلة وأهمها شعر العروبة .

والجارم أحد الرواد القلائل فى الشعر العربى بعامة ،والشعر المصرى بخاصة فى بلورة الفكرة العربية . والعمل من أجلها على منهج تخطيطى وفلسفى فريد .

ولقد أكثر الجارم من شعر العروبة ، وتغنى بها فى كثير من المناسبات ،مايجعلنا نؤكد صدق الرجل فى اتجاهه ، واخلاصه له .

أما الشعر القومى فلم يصل فيه الى مستوى حافظ ابراهيم الذى اشتهر به وأجاده .

وكذلك لم يصل بشعره الاجتماعى الى مستوى شوقى أو حافظ أو حتى أحمد محرم .

(ب) الصور :

أما الصور فغالبيتها تقليدية بحتة وان حاول أن يضفى عليها شيئا من رونق الأسلوب ، وبهاء العبارة ، وبحسبك أنه قد استخدم

لابراز الصورة المجاز اللغوى وما يتفرع منه من تشبيه واستعارة أو كناية متوارثة .

ولقد بالغ فى ذلك واشتط فيه فالحبيبة تحكى الظبى فى كناسه ، والبدر فى سمائه ، والممدوح يحكى النجم فى عليائه وفتاة باريس :

عهدى بها كانت نؤوم الضحى ملولة ناعمة رعرعا

وهكذا الى آخر ما حفظه الشعر العربى من تشبيهات واستعارات

ولقد وقف به خياله فى ابراز الصور الى نفس الحيل التى كان يلجأ اليها القدماء من تجريد شخص يتحدث اليه الشاعر أو الى اللجوء الى المحسنات اللفظية كالطباق والجناس ، ورد العجز على الصدر وبراعة التقسيم وحسن الابتداء وان لم يبالغ فى ذلك ولم يجعله هدفه .

يقول الجارم : ولا يكون جمال الشعر دائما بالمجاز وضروب التزويق اللفظى ، وانما جماله فى استعداده للنفاذ الى النفس والوصول الى القلب على أى صورة كان ، وفى أى ثوب يكون ، ومع تيقظه لهذا الأمر الا أن سيطرة القديم عليه جعلته يدور فى فلكه !!

يقول مجردا شخصا يتحدث اليه :

ظننت الدمع يسعد بالعزاء فهل أجدى بكاؤك أو بكائى

* * *

ماذا طحا بك يا صناجة الأدب هلا شدوت بأمداح ابنة العرب

أو شخصين :

يا خليلى خليانى وما بى أو أعيدا الى عهد الشباب

ويقول مستخدما الطباق لابراز الصورة الادبية وهو يخاطب الطائر :

أنت فى خضراء ضـــــاحكة من بكاء العـــارض الهتـــن

أو متحدثا عن الحب :

يا خليـــلى والهـــوى أحن لارمـــــاك الله بالاحـــن
ان رأيت العين ناعســـة فترقب يقظـــة الفتـــن
أو رأيت القـــد فى هيف فاتخـــذ ماشئت من جنـــن
قد نعمنـــا بالهـــوى زمنـــا وشـــقينا آخر الزمن

وقد يستخدم الجناس فيقول عن بيت محمد على فى مصر :

بيت له عنت الوجوه خواشـــعا كالبيت يمسح ركنه ويزار

والتشبيه المقلوب كقوله :

كأن ضياء الصبح والكون مشرق سنا طلعة الفاروق لاحت ركائبه

وحسن التقسيم كقوله :

هنـــاك بدا العيدان : وجهك والضحى مشارقه وضـــــاءة ومغاربه

وقوله :

رأى ملكا كالنيل : أما عطـــاؤه فغمر ، وأما المكرمات فساحله

وبراعة الاستهلال كقوله :

خشعت لفيض جلالك الأبصـــار وذكت بمسك خلالك الأشعار

وقوله :

بهر الوجـــوه بلؤلئى ضيـــائه نجم تألق فى بديع سمائـــه

وقد يأتى بصور تقليدية بحتة كقوله فى مديح الأسرة العلوية :

ندب اذا حل الحباء لغـــارة ألقى السلاح الفارس المغوار

وقوله وقد أرق لاعلان الحرب العالمية الاولى :

من سلب الأعين أن تهجعا   وبز ذات الطوق أن تسجعا
ومن رمى بالشوك فى مضجعى   فبت مكلوم الحشا موجعا

وقوله مفتخرا بشعره :

اقبس النور من شعاع الراح   والثم الحسن فى جبين الصباح
وابعث اللحن من سمائك ياشعر   ونافس به ذوات الجناح

وقوله فى رثاء الشيخ أحمد الاسكندرى وقد شبهه وهو يخطب بالبعير يخرج من فيه ما يشبه الرئة اذا هاج ويسميها العامة (القلة) .

كأنى أراك اليوم تخطب صائلا   وتهدر تهدار الفنيق المشقشق

واذا كان النقاد القدماء قد عابوا أبا تمام بتجسيمه للمعنويات فان الجارم قد وقع فى نفس العيب حينما جعل الدهر فى انقياده لممدوحه جوادا ذل لراكبه بعد جموحه :

كما جعل الدهر فى بيت آخر حيوانا غير مستأنس يجرح بنابه وبظفره :

جرحه الدهر فمن نابه   تلك الاخاديد ومن ظفره

وجعل له لعابا يلعق به دمه :

ما الذى تبتغى يد الدهر منى   ودمى لا يزال ملء لعابه

ثم شبه الخطب بالجمل اذا برك بصدره على الشىء :

جمع الشجون وبدد الأحلاما   خطب أناخ بكلكل وأقاما

أما الجديد فى الصور فقليل كقوله وهو يتحدث عن الصباح الأبيض الناصع بأنه فى صفائه واشراقه وانتشاره فى الأفق يشبه الماء العذب الذى يترقرق فوق الجليد ٠

وبدا عمود الصبح أبيض ناصعا   كالسلسل الضحضاح فوق جليد

وقد تتبلور الصورة وتتكامل وتأخذ وضعها الاصيل كقوله مصورا أمله فى ابنه ومشبها له بنبت حرص على نموه كل الحرص وزاد عنه كل ما يهدده حتى اذا قوى واستحصد عصفت به هـوج الرياح فقضت عليه ٠

(ج) المعانى :

ومعانى الجارم وأفكاره كثيرة ومتنوعة بتنوع أغراضه وكثرتها ولكنها تكاد تخلو من الابتكار،ومن النظرة الفلسفية العميقة الشاملة ويرجع ذلك الى اعتماده على الشعر العربى القديم مما ضـيق من نظرته الى الكون والحياة ٠

وحسبك أن الأعلام كلها قديمة ، وبالقاء نظرة سريعـة على فهرست الاعلام يظهر ذلك فآمون ، وأبو العلاء المعرى ، واسحاق الموصلى والبحترى ، وبلال وجميل ، وحاتم ، وحسان ، وخالد ، وأبو نواس ، والأخطل ، والأعشى ، وبشار والجاحظ ، وحماد ، وردينة ، وزلزل ، وزهير ، وعنان ، ولبيد الى آخره تتردد دائما فى أشعاره ٠

ولقد يأتيك بجديد من المعانى كقوله مادحا :

أرأيت آثار الملوك وما بنـوا   مما يضيق الجن عن انشائه
ولدوا وشمس الأفق فى ريعانها   والدهر يرفل فى ثياب صبائه
درسوا كتاب الكون أول طبعة   ووعوه من ألف الوجود ليائه

وأتوا من الاعجاز ما ترك النهى حيرى فلم تملك سوى اطرائه
ذهبوا ولم تذهب صحائف مجدهم وطواهم المقدار فى أطوائه
المجد فى الدنيا سجل خالد تتعاقب الأجيال من قرائه

٥ – بمن تأثر ؟

ولقد اختلفت نظرة النقد الحديث فى مسألة التأثير والتأثر عن نظرة النقد القديم ، وبعدت به عن معنى السرقة والسلخ كما كانوا يقولون ، كما بعدت به عن معنى التقليد المحض ، فالتأثير والتأثر شىء يتمشى مع سنة التطور والارتقاء .

ومن هنا كانت سمو نظرة المحدثين اليه حتى أفردوا له فنا مستقلا بالدراسة – حينما يكون التأثير من لغة الى لغة – يسمى بالادب المقارن .

غير أن التأثير والتأثر يبعد كل البعد عن معنى التقليد المحض يرى الكاتب الفرنسى بلتيه Pliter ١٥١٧ – ١٥٨٢ أنه لا يصح أن يقع الكاتب المتطلع للكمال فى زلة التقليد المحض بل يجب عليه أن يطمح – لا الى اضافة شىء من عنده فحسب ، بل الى أن يفضل نموذجه فى كثير من المسائل .

ويقول الاستاذ أحمد الشايب .. وكثير من دواوين الاحياء حافل بالترجمة والتقليد ، وعندى أن ذلك لا بأس به فهو غذاء للشعر العربى ، وتقريب بين الثقافات الفنية ، ولكنه ليس كل شىء وليس خير الوسائل .

وبدهى أن الجارم وقد تعددت روافد ثقافاته ، وأوتى مقدرة فذة على السيطرة على موسيقى الشعر لم يضع نموذجا بعينه لينسج على منواله حتى نستطيع أن نقول : انه ساوى نموذجه أو زاد عليه وانما كل ما فى الامر أنه عاش بخياله الفنى فى رحاب الاقدمين فاذا

به وكأنه واحد منهم قد تخلف عن عصر العباسيين الى العصر الحديث ·

وحسبنا هنا أن نرد بعض ما يبدو فى شعره الى روافد ثقافاته التقليدية المتعددة ·

فلقد تأثر بالقرآن الكريم فى كثير من المعانى والصور ·

تأثر بالعبارة والمعنى فى قول الله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » حينما كان يتكلم عن البيان النبوى فى قوله :

وبيانا هاشميا لو رمى ... قلل الأجبال لانهدت قواها

وتأثر بقول الله تعالى : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة» فى قوله :

صبغة الله صبغة تبهر النفس ... تعالى الاله عز وجلا

وتأثر بقوله تعالى : « ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا » فى قوله :

عبثت بالوليد ثم أرته ... منه أنقى معنى وأقوم قيلا

وتأثر بقوله تعالى : « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد ·· »

فى قوله :

هبطت حكمة البيان عليه ... فاذكروا فى الكتاب اسماعيلا

وبقوله تعالى : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا

أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » فى قوله :

اذا لبس الربيع شباب قوم ... فأسرع ما يفاجأ بالشتاء
وكل نضيرة فالى ذبول ... وكل مضيئة فالى انطفاء
وهل تهوى ثمار الأرض الا ... اذا أدركن غايات النماء

وفى قوله فى معرض رثائه لابنه البكر :

قد كان لى أمل سقيت فروعه ... بدمى وغذيت المنى بعذاته
أحنو عليه من الهجير يمسه ... ومن النسيم يهز من أسلاته
وأذود عنه الطيران حامت على ... زهر يضىء الافق من عذباته
الليل ينفحه بذائب طله ... والصبح يمنحه شعاع اياته
حتى اذا قويت لدان غصونه ... واستحصد المرجو من ثمراته
وأخذت أستجلى السنا من نوره ... واشم ريح الخلد من نفحاته
وأفاخر الزراع أن غراسهم ... لم يزك مثل زكائه ونمائه
عصفت به هوج فخر معفرا ... وجنى عليه الحين قبل جناته

وتأثر بالحديث الشريف : « ان أرواح الشهداء فى مناقير طير خضر من طيور الجنة تشرب من مياهها، وتسبح فى أنهارها ، وتأكل من ثمارها » فى قوله :

ونسبح فى أنهار عدن كأنما ... سرائرنا من مائها المتدفق
ونخترق الأجواء بين مدوم ... يمد جناحيه وبين مصفق

وتأثر بالشعر ، تأثر بقول الشاعر :

لكل شىء اذا ما تم نقصان ... .

وبقول الآخـر :

ما طـــار طير وارتفع الا كما طـــار وقـــع

في قوله :

وابتداء الكمال فى عمل العا مل بدء الشـــكاة من أوصابه

كما تأثر بالشعراء وعلى رأسهم ، البحترى :

واقرأ ان شئت قصيدة البحترى :

محـل عـلى القـــاطول أخلق دائره
وعادت صروف الدهر جيشا تعاوره

***

ولم أنس وحش القصر آذ ريع سربه
واذ ذعـــرت أطلاؤه وجــــآذره

ثم اقرأ رثاء الجارم للزهاوى فى قوله :

سل الروض أن أصغت اليك رسومه
متى روعت أطـــلاؤه وجـــآذره

واقرأ تهنئة البحـــترى للخليفة بالعيـد ، وتهنئة الجـارم لفاروق بالعيد أيضا .

وتأثر بقصيدة المتنبى عن الحمى حينما كان يقول فى رثاء صديقه الأستاذ محمد أمين لطفى :

رمتنى الليالى قبـــل نعيك رميـــة
عرفت بهـــا كيف القلـــوب تقطع

نصـــال حـــداد قـــد ألمت لحملهـــا
وأعلـــم أنى هالك حين تنـــزع

وتأثر برثاء أبى العلاء فى قوله :

وليس تـراب الأرض غـير ترائـب
وغـير عقـول حطمت وقلـوب

وفى قوله :

نأكـــل الأرض ثم تأكلنـــا الأر
ض دو اليـــك أفرعـا وأصــولا

وفى قوله :

بهـا الأضـداد تجمع فى صعيـد
وفيهـا يلتقى دان بنـاء

وتأثر أيضـا بعلى بن الجهم فى توليده للمعـانى بأبياته المشهورة لما سجن وأولها :

قالوا حبسـت فقلت ليس بضائرى
حبسى وأى مهنـد لا يغمـد

ثم بتلك الأبيات الأخرى لما صلب وأولها :

لم ينصبوا «بالشـاذياخ» عشية اثنين مسـبوقا ولا مجهولا
ان يبتذل فالبدر لا يرضى بهم ان كان ليلـة تمـه مبـذولا

يقول الجارم لزينب وقد اهتم بتوليد المعانى :

قـدك المـائس قـد بغض لى كل غصن بين أنفـاس الصبـا
وجنى خديـك قـد زهدنـى فى حديث الورد يزهى بالربا
أبصروا البـدر فقالوا : وجهها فتغشـيت بثوبى هربـا
فاحتجب يا بـدر عن أعيننـا وعزيز عنـدنـا أن تحجبـا !

وتأثر بعمر بن أبى ربيعة وبحواره فى قصيدته الحب والحرب والتى يقول فيها :

قالت خليلتها لهـا لتلينهـا ... ماذا جنى لمـا هجرت فتـاك ؟
هى نظرة لاقت بعينك مثلهـا ... ما كان أغنـاه وما أغنـاك !
قد كان أرسـلها لصيدك لاهيا ... ففررت منه وعـاد فى الأشراك
عهدى به لبق الحـديث فماله ... لا يسـتطيع القول حين يراك
اياك أن تقضى عليـه فانـه ... عرف الحيـاة بحبـه ايـاك
ان الشـباب وديعة مردودة ... والزهد فيه تزمت النسـاك

٦ ـ مكانة الجارم فى عصره :

قلنا أثناء دراستنا عن مكانة الجارم الاجتماعية : لقد تمتع الرجل فى حياته بمكانة يغبطه عليها الكثيرون ، وطن اسمه فى كثير من الآذان وبخاصة فى ميدان التربية والتعليم : فى البلاغة الواضحة ، والنحو الواضح ، وفى المجمع اللغوى ، ودار العلوم ، ويرجع كل ذلك الى اخلاص الرجل وتفانيه فى عمله ، وحبه لقومه ولغته • أما شعره فكان له محبوه ، والمعجبون به من أنصار المدرسة القديمة وبخاصة الدرعميون والأزهريون ، كمـا كان له ناقدوه ومهاجموه وبخاصة الدكتور بشر فارس ، وأنصار المدرسة المجددة فى الشعر الحديث •

وهنا نحب أن نوضـح جانب النقد والهجوم حتى يتسنى ابراز منزلة الجارم فى عصره كشاعر وفنان •

لقد تعرض الجارم فى حياته وبعد مماته لهجوم متواصـل لاتجاهه الأدبى الذى يسير به فى دروب الأقدمين ، واتخذ لذلك مظهران :

(أ) مظهر سلبى : ويبدو واضحا فى موقف كثير من النقاد ازاء أدب الجارم واهمالهم له ، ولقد تتبعنا الصحف الأدبية والسياسية فى الفترات التى كانت تعقب ظهور أى جزء من أجزاء ديوانه فاذا بها اشارات سريعة عن صدور الديوان أو غمزات تكشف عن سر طبع وزارة المعارف للديوان ، وتعلل لذلك بصلة الرجل بالوزارة ، ونستطيع أن نقول : أن ديوان الجارم لم يثر أى دراسة مهمة ، على العكس من بعض الدواوين الأخرى المعاصرة ، كالملاح التائه وليالى الملاح التائه ، ووراء الغمام .

(ب) ومظهر ايجابى : ويبدو واضحا فى هجوم النقاد وسخريتهم أو غمزاتهم وهاك بعض نماذج من هجومهم عليه :

يقول العقاد فى تعليقه على قصيدة الحب والحرب لعلى الجارم متجاهلا اسم الجارم ومشيرا اليه بقوله : أسمعنا بعض المتعلمين قصيدة يصف فيها الحرب ويستهلها بالغزل ، وأظنه استطرد من الغزل الى وصف الحرب بجامعة المشابهة بين الدماء التى سفكتها الحسناء ، والدماء التى تسيل فى ميادين القتال ! وكان بعض السامعين يعجب ويستحسن ، ويشتد اعجابه ويعظم استحسانه لهذه المشابهة الطريفة ، وهذا الانتقال البارع ! وكل أولئك ممن يقرأون الشعر ويتصفحون كتب الأدب ويعرفون أن هناك شعر صناعة ، وشعر سليقة ، وان من الكلام ما يتكلف ، ومنه ما يرسل عن وحي البديهة الصادقة والذوق السليم ! فعجبت لاعجابهم ، ودهشت لاستحسانهم ، ورأيت أن المسافة بينهم وبينى فى النظر الى ذلك الشعر كالمسافة بين من يقبل على المائدة متشهيا ملتذا وبين من تغثى نفسه من الخلط والغثاثة .

نعم فان للنفس غثيانا كغثيان المعدات ، وان للمعانى لخلطا كخلط الطعام ، وان رجلا لا ترفض نفسه احساس الغزل ممزوجا باحساس النكبات والكوارث لأعجب عندى من رجل لا ترفض

معدته العسل ممزوجا بالخل والتوابل ، وذوب السكر ممزوجا بذوب الملح وما اليه) .

واليك نقد الدكتور بشر فارس لتأبين الجارم للسكندرى ووالى ونلينو فى دار الأوبرا :

اليك المطلع وما فيه من براعة استهلال (حسب الدستور الأكبر المسمى بعلم البديع) .

غدا فى سـماء العبقريـة نلتقى
وتجتمع الأنـداد بعـد التفـرق

أما المصراع الأول ففيه « فخر » لطيف مع شيء من «المبالغة»

وأما المصراع الثانى ففيه « تأكيد وطباق »

وفى القصيدة ما تشاء من « محسنات معنوية ولفظية » لايقوم مثل هذا الشعر الا بها لأن لبابه يتفتت اذا خطر لك أن تقبض عليه فمثله مثل الفتاة المصدورة تحمل وجهها مالا يطيق من ألوان الطلاء المعروضة فى جميع الحوانيت .

ويقول الأستاذ أحمد الشـايب معلقا على قصيدة الجارم « ذكرى الغرب » فى قصيدته : «يا دار فاتنتى حييت من دار » ..

كانت ملاعب أنس قد لهوت بهـا
وظبية من بنـات الغرب معطـار

فقال الشايب ، وهناك أسأل الأسـتاذ الجارم هل يرضى الانجليز عن تشبيه فتياتهم بالظباء ؟

فعدل الجارم البيت فى الديوان بقوله :

كانت مجال صبابات لهوت بها
ومستراض لبانات وأوطار

٧ ـ رأى النقاد المعاصرين فى شعره :

(أ) رأى العقاد :

لست أوفيه حقه ، انه حق بيا ... ن عن البيان غنى
وارث الأصمعى فى لغة الضا ... د ، وفى الشعر وارث البحترى
والأديب الذى له فطنة المصـ ... رى زانت سليقة البدوى
والمربى الذى تعهد جيلا .. ... عهد علم منه وعهد رقى
ومعيد التاريخ وهو جذور ... شجرا مثمرا بكل جنى
وأخو النشأتين شرقا وغربا ... من قديم باق ومن عصرى
كم شهدناه فى شواهد نص ... ورأيناه فى معارض رأى
وسطا بين ممعن فى وقوف ... عند ماض ، وممعن فى مضى
قائلا ناقلا سميعا مجيبا ... حسن تبيانه كحسن الصغى

(ب) رأى الشاعر السودانى الكبير أحمد محمد صالح :

ملك القريض ووارث ... الحسب المؤثل فى معد
غرد كما شاء البيا ... ن محدثا عن خير عهد
أيام كان لواؤنا ... يجتاز من سهل لوهد
واذكر لنا عهد الجدو ... د وصف لنا أيام أحد
فى القادسية يوم سار ... النصر من بند لبند
قلب صحائف مجدنا الفو ... اح من مسك وند
وتغن من فنن الى ... فنن ومن غور لنجد

يا وارث الأدب التليـــــد وبانى الأدب الأجـــد

(جـ) رأى الأستاذ محمد عبد الغنى حسن :

ألفت فى عقد البيان توائمـــا يكفيك فخرا أن تكون الجارمـا
سبحان من جعل البيان موطأ لك والفصيح على لسانك قائما
واختص شـــعرك بالخيال كأنه ينهل من فوق الســـماء غمائما
أبدعت فى وصف الطبيعة حلوة والروض مخضل الخمائل باسما
وكأنمـا أعطيت ريشـــة ماهر صنع ، وألهمت الروائع ناظما

(د) رأى الأستاذ أحمد العوامرى

ويبهرك من الجارم عمق معانيه ، وصفاء ديباجته فى فخامة وجزالة وفحولة تقرؤه فكأنما تقرأ لمهيار وعلى بن الجهم ، وأضرابهم من أمراء الشعراء فى العصور المزدهرة بالعلم والأدب ، ولا غرو فقد آثر الجارم هؤلاء ، وتوفر عليهم ، وأشرب فى قلبه فنهم فتأثر بأساليبهم فى القول ، ومناحيهم فى تصريف المعانى ، فجاء نتاجه على غرارهم ، فمدح ، وتغزل ، ووصف ، ورثى ، وأتى بالحكمة الباهرة ، وضرب الأمثال البارعة ، كل ذلك على سننهم ومنهجهم فلم نر فى شعره على كثرته وتعدد فنونه نزوعا لما يسمونه الآن بالتجديد فى أى صورة من صوره ، وأى مظهر من مظاهره ، وانما كنا نود حقا لو أنه قد أتيح له أن يقبس من أدب الغرب فى بعض شعره وهو الذى حذق الانجليزية ، وتخرج فى بلادها ، ولو أنه أتحف العربية بروائع من قصص القوم أو شعرهم اذن لرأينا فى مرآته الصافية صوزا من تفكيرهم ، وقبسا من أخيلتهم ، وتصورهم للحياة .

(هـ) رأى الأستاذ أحمد الشايب :

وأما اذا التمست فى الشعر الحديث ذلك الأسلوب العربى الصافى الذى يجمع الى القوة والجزالة رقة وسلاسة ، ونصوع ألفاظ ، وسمو أساليب ، فلن تجد ذلك الا عند الأستاذ الجارم ، تلك ميزته بين المعاصرين لا يشاركه فيها أحد ، وميزة أخرى لا أقول : أنفرد بها ، وانما أقول : سبق فيها ، وافتن هى التصرف فى المعانى ، والعبث بها حسبما يوحى اليه فنه ، وقوة عبقريته ، وأما اذا عرضنا لفصاحة اللسان وحسن الالقاء الخطابى والشعرى فقد لا نجد للجارم ثانيا ، اللهم الا عند الأستاذ توفيق دياب فى الخطابة .

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٦٣/١٩٧١

فهرس